رسالة الدكتوراه

الريف المصري فى الرواية العربية المعاصرة بالتركيز الخاص على روايات يوسف القعيد: دراسة انتقائية

بحث جامعي لنيل شهادة الدكتوراه

الباحث

محمد شاهنواز عالم

(Enrolment No. 12/51/MA/011)

تحت إشراف

الدكتور عبيد الرحمن طيب

مركز الدراسات العربية والإفريقية،

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة،

جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي-110067

2019

مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110 067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली - 110067
Gram: JAYENU Tel. : +91-11 2670 4253, Fax : 91-11-2671 7525

July 02, 2019

Declaration

I hereby declare that the thesis entitled "**Egyptian Countryside in the Contemporary Arabic Novels with Special Focus on Yousuf al-Qaeed's Novels: A Selective Study**" (***Al-Reef Al-Misri Fi Al-Rewayah Al-Arabia Al Moaserah Bittarkeez Al-Khas Ala Rewayaat Yousuf al-Qaeed: Derasah Inteqaiyah)*** submitted by me is my original work and has not been previously submitted for any other degree to this University or elsewhere.

Mohammad Shahnawaz Alam

(Research Scholar)

Dr. Ubaidur Rahman Tayyeb

Supervisor

Dr. Ubaidur Rahman
Associate Professor
Centre of Arabic & African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Prof. Rizwanur Rahman

(Acting Chairperson)

Chairperson
Centre for Arabic and African Studies
SLL&CS, Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى

أبي الشفوق

وأمي الحنون

رب ارحمهما كما ربياني صغيرا

مقدمـــــــة

إنّ أدب الريف من الموضوعات الهامّة فى آداب جميع الأمم على اختلاف مواقعها لأنه أقرب إلى الطبيعة ويحكي لغة الطبيعة والفطرة ومن ثم تكون الطبائع الإنسانية فيه بعيدة عن زيف المدينة. إن للريف مكانة مرموقة فى الأدب العربي الحديث منذ بدايته حيث تناولته جميع الأنواع الأدبية العربية موضوعيا وعالجت قضاياه ومشاكله. الرواية العربية الحديثة لها علاقة أصيلة بالريف، وهذه العلاقة تبدأ منذ مولد الرواية العربية التي مهما اختلف في تأصيل بدايتها، فإن كل البدايات تعود إلى مولد الرواية في بيت الفلاح في مصر، والفلاح المصري الذي كان منذ آلاف السنين العمود الفقري للاقتصاد الزراعي والتجاري في مصر، قد أصبح مهيمنا على الخطاب الاجتماعي والفكر السياسي للدولة المصرية الحديثة في القرن العشرين، وظهر فجأة كشعار قوي للهوية الوطنية في مصر. ورغم أن النخب الحضرية احتقرته وتجاهلته منذ قرون، غير أنه أصبح فيما بعد يعرف بالثقافة الوطنية حتى أن الكثير من الإنتاج الفني والفكري في مصر يصنع في صورته. وفي بداية من القرن الماضي، بدأ الشعراء والكتاب والفنانون والمؤلفون للموسيقى يركزون على الفلاح باعتباره موضوعا مناسبا لفن وطني جديد. فكتب الصالح حامدي حماد قصصه القصيرة "في الريف" عام 1910م، وقرض مصطفي صادق الرافعي قسطا وافرا من الأشعار في وصف الريف والحياة حوله عام 1908م، وهو أول من تعرض لهذا الموضوع. وكتبت عدة مسرحيات في سياق الريف، وكذلك التراكيب الموسيقية لسيد درويش، والتماثيل الضخمة لمحمود مختار، وروايات طه حسين، وتوفيق الحكيم ساهمت مساهمة كبيرة في رسم هذا الشكل الجديد. والمثقفون المشهورون مثل سلامة موسى ومحمد حسين هيكل كتبوا مقالاً بعد مقال يحتفلون بنسبهم القديم

وأصالتهم الوطنية حتى السياسيين الأرستقراطيين مثل الزعيم الوافي سعد زغلول، والملك فاروق نفسه قد أعلنوا أصولهم الفلاحية بصوت عال. وهذا كان من الأمور التي لم يمكن التفكير فيها قبل مجرد خمسين عامًا... وهكذا بدأ الرنين والطنين للريف المصري وازهرد على مر الدهور وكر العصور في الأدب الروائي المصري، ولعب دورا بارزا في تحديد المسرح الوطني على المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

فنظرا إلى أهمية هذا الموضوع قررنا دراسة الريف المصري، واخترنا روايات يوسف القعيد لأن رواياته مهمة جدا فى تاريخ الرواية العربية الريفية إذ تحمل بين طياته نكهات طيبة من تراب الوطن العربي المليئ بالوقفات التاريخية المتشعبة. والروائي يوسف القعيد نفسه يعتبر واحدا من أبرز الكتاب الشباب المصريين ومؤلف غزير الإنتاج للروايات الريفية فى مصر. وهو يعتبر لسانا ناطقا بالريف المصري من بين الأدباء المصريين في مرحلة ما بعد نجيب محفوظ، إنه استخدم تقنيات أدبية مبتكرة ونهجا أدبيا جديدا فى كتاباته التي انعكست فى رواياته وقصصه بوضوح، وقد عرف القعيد بنبرته السياسية الناقدة وعرضت بعض أعماله للمصادرة، وهو لا يساوم فى تسجيل ما رآه، وبالرغم من أن يوسف القعيد سطع كنجم متلالئ في أفق الأدب الريفي المصري قلما اهتم النقاد والباحثون برواياته نقدا وتحليلا حتى تأتي إنتاجاته على منصة الشهود. ولم أقف على دراسات سابقة تعالج هذا الموضوع بشكل مباشر، اللهم إذا استثنيت منها بعض الأعمال التي تبحث عن بعض الجوانب من كتابات القعيد. ومن هذه الأعمال كتاب "الريف في الرواية العربية" لمحمد حسن عبدالله الذي أخرجه عام 1998م، غير أنه لم يبحث عن القضايا الاجتماعية والسياسية التي تمر به الأرياف المصرية. كما اطلعت على بحث تم تقديمه للحصول على درجة الماجستير وهو "محمد يوسف القعيد: حياته وأدبه" للباحث الدكتور سهير الكلماوي في جامعة القاهرة بمصر، والرسالة تشكل دراسة

عامة، تبحث عن حياة وأعمال القعيد بشكل عام بدون التغلغل في بواطن هذا الموضوع، وتحليل الجوانب الموضوعية والفنية. ودراسة أخرى "مظاهر التجديد في الرواية العربية المعاصرة: يوسف القعيد نموذجا" للكاتب أزيد به ولد محمد البشير، وهي مقالة بحثية تم تقديمها في قسم الفنون والعلوم الإنسانية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، عام 1995م، والتي تقدم صورة من مظاهر التجديد، بدون الارتكاز على الجوانب الاجتماعية والسياسية للريف المصري فى ضوء رواياته. وكتاب "الفلاح والسلطة في أدب يوسف القعيد" لمصطفى البيومي لعام 2000م، الكتاب يبحث عن الفلاح والسلطة لكنه لايتصدى بذكر الجوانب الثقافية والاجتماعية من كتابات القعيد. و"المعونة الأمريكية في رواية يحدث في مصر الآن" هي رسالة الماجتسير للباحثة دينا عبد الفتاح، غير أنها لاتتحدث إلا عن رواية واحدة، ويرتكز على الجانب السياسي الأمريكي. و"البعد الاجتماعي في رواية "يحدث في مصر الآن" لسليمان عبد العظيم كتاب آخر حول هذا الموضوع، إنه يبحث بشكل مباشر عن الفضاء الريفي في الإطار الاجتماعي، غير أن إطاره ضيق جدا، حيث يرتكز على رواية وحيدة من بين روايات يوسف القعيد. وهذه هي الأعمال والدراسات السابقة حول القعيد وأعماله التي لاترتكز على الجوانب الاجتماعية والسياسية للريف المصري بشكل مباشر ولاتخوض في غمار البحث، بل تتناول من هنا وهناك، ولاتستوعب جل رواياته التي تبحث عن هذه الجوانب. ومن ثم ازداد ولعي بهذا الموضوع، فمن خلال عرض وتحليل أعمال القعيد حاولت الاكتشاف عن نواح عدة معنية بالأدب الريفي المصري.

وبه يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على وضع الرواية الريفية فى بلدان العالم العربي مقارنة مع أنواع أخرى من الروايات الريفية المصرية، والاستقراء عن كيفية انعكاس الظروف المختلفة لظهور وتطور الرواية الريفية فى مصر. كما يحاول الباحث

إبراز الملامح الريفية التي انعكست فى كتابات القعيد الروائية والقصصية، والأسباب التي دفعته إلى الكتابة عن الفلاح وأرضه وقريته حتى أصبح فلاحا فصيحا وتحول من فلاح يكتب أدب الفلاحين إلى مثقف يكتب عن الفلاحين، ويحاول البحث لدراسة مقارنة بين يوسف القعيد وبعض الروائيين الآخرين لكي تتعين مكانته بينهم فى معالجة قضية الريف.

وعلى كل حال، إني قسمت هذا البحث إلى أربعة أبواب ما عدا المقدمة ونتائج البحث.

الباب الأول يحتوي على ثلاثة فصول. فالفصل الأول يشتمل على وضع الريف فى الرواية العربية الحديثة فى مختلف البلدان العربية. وقمت فى هذا الفصل بإلقاء الضوء على مكانة الريف فى الأدب العربي الحديث وخاصة الرواية العربية الحديثة مع ذكر الأسباب التي مهدت الطريق لظهور الأنواع الأدبية الريفية في بلدان العالم العربي، كما ذكرت التطورات اللاحقة بالريف المصري على مر العصور، ودرست أسباب تطور الروايات الريفية في البلدان العربية.

والفصل الثاني يشتمل على وضع الريف فى الرواية المصرية الحديثة، قمت فى هذا الفصل بإلقاء الضوء على خلفية ظهور الفلاح المصري كشعار قوي للهوية الوطنية وكموضوع جديد مهيمن على الخطاب الاجتماعي والفكر السياسي للدولة المصرية الحديثة.

والفصل الثالث يعطي نبذة عن أهم الروايات الريفية المصرية. ووجدت أن الرواية الريفية لا تشكل مجموعة من الكتاب، ولا نوعا أدبيا، أو نوعا فرعيا من الأدب المصري، بل تشكل مجموعة من الروايات التي تستخدم القرية كوضع وموضوع لها، وذكرت فهرس أسماء الروايات الريفية مع إلقاء الضوء على أهمها بالتفصيل.

والباب الثاني يحتوي على ثلاثة فصول؛ فالفصل الأول يلقي نظرة عابرة على القضايا الاجتماعية والسياسية التي تتعلق بالريف المصري، وركزت فى هذا الفصل على المباحث الأساسية للقضايا الريفية فى مصر التي تشمل القرية المصرية، والأرض ومكانتهما فى الرواية الريفية، والاتجاهات الأدبية التي تغلب عليها فى مصر وبلدان العالم الأخرى فى القرن العشرين.

والفصل الثاني يشتمل على القضايا الاجتماعية التي عالجتها الرواية الريفية المصرية.

والفصل الثالث يحتوي على القضايا السياسية التي انعكست فى الرواية الريفية المصرية. والقضايا السياسية التي عالجتها الرواية الريفية المصرية تشمل قضية الاغتراب، وأزمة الكتابة، والنقد، والعدالة الاجتماعية، وقضية الديمقراطية، وأزمة الحرية، وحرب يونيو 1967م وحرب أكتوبر 1973م وآثارهما السلبية والإيجابية على المجتمع الريفي المصري، ومن القضايا الأخرى قضية الأرض، وقانون الإصلاح الزراعي، والفساد السياسي والإداري، واستغلال المناصب، وقمع الحريات، والاستبداد السياسي.

والباب الثالث يحتوي على ثلاثة فصول؛ فالفصل الأول يشتمل على موضوعات ريفية توجد فى كتابات يوسف القعيد العامة. هذا الفصل يلقي نظرة عابرة على كتابات يوسف القعيد وخصائصها الموضوعية. ثم قمت باستعراض شامل للموضوعات الريفية فى كتاباته. والفصل الثاني يشتمل على تجليات الريف في كتاباته القصصية. ويبلغ العدد الكلي لقصص القعيد نحو ست وثلاثين قصة قصيرة. إن قصص "من يخاف كامب ديفيد" و"طرح البحر"، والضحك لم يعد ممكنا"، و"قصص من بلاد الفقراء"، و"أقدم لكم اليوم

قصة"، و"حكايات من الزمن الجريح" من أعماله القصصية الشهيرة، وقد ألقيت الضوء على بعضها فى هذا الفصل.

والفصل الثالث يحتوي على تجليات الريف في كتابات القعيد الروائية. تجلى الريف في كتابات القعيد الروائية بشتى أشكاله، وصوره وما يتعلق بالقرى والأرياف المصرية وشؤونها، وما تجري من أحداث في محيطها الداخلي والخارجي. ومن هذه التجليات علاقة الفلاح بالأرض، والهجرة، والمعتقدات والخرافات، والاضطهاد والشقاء في الحياة، والربط بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية، والصراع الريفي، وسذاجة الحياة الريفية، والمرأة، والريف المحتكر، والريف المحتاج والفقير، والريف ساحة التحولات، والريف المأوى، والريف ذو الفئات الاجتماعية، والريف ساحة الفساد الإداري واستغلال المناصب وما إلى ذلك.

والباب الرابع الذي يحتوي على ثلاثة فصول خاصة بدراسة مقارنة بين يوسف القعيد وبعض الروائيين الآخرين في معالجة قضية الريف المصري؛ فالفصل الأول يشتمل على ملامح القضايا الريفية المصرية في روايات يوسف القعيد.

والفصل الثاني يشتمل على ملامح القضايا الريفية المصرية لدى الروائيين المصريين الآخرين. حاولت فيه دراسة روايات لبعض الروائيين المصريين الآخرين عدا روايات يوسف القعيد، التي تعالج القضايا الريفية المصرية. واتخذت الطريقة الانتقائية في اختيار النماذج الروائية الريفية المصرية فى هذا الفصل.

والفصل الثالث يشتمل على دراسة مقارنة لأوجه التشابه والاختلاف بين يوسف القعيد والروائيين الآخرين في معالجة القضايا الريفية المصرية. قمت فى هذا الفصل أولا بدراسة مقارنة لأوجه التشابه والاختلاف بين يوسف القعيد وتوفيق الحكيم ثم بين محمد

حسين هيكل وعبد الرحمن الشرقاوي. ثم قمت باستعراض دقيق شامل لدراسة القضايا الريفية المشتركة في الأعمال الروائية المصرية بشكل عام. وفى النهاية، قمت بالمقارنة لأوجه التباين بين الروايات المصرية الريفية وروايات يوسف القعيد؛ فأوجه التباين فيها تتجلى من خلال عدة ملامح ومحاور خطابية وموضوعية وأسلوبية.

وأخيراً أشكر الله سبحانه وتعالى على أنه وفقني لإتمام هذا البحث، وبعد الشكر لله تعالى اتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى مشرفي المخلص وأستاذي الشفوق الدكتور عبيد الرحمن طيب لحثه المستمر إياي على إكمال البحث ولتوجيهه فى كل مرحلة من مراحل البحث. وهو مازال وسيزال مصدر العطاء والتوجيه بالنسبة لي. ولو لا تعاونه الكبير وكرمه الواسع لما أنجز هذا العمل. فأدعو الله أن يعطيه الصحة والعافية ويجزيه أحسن الجزاء كما أدعو أن يعم عطاؤه العلمي الغزير. وأشكر جميع أساتذتي الذين واصلوا ليلهم بنهارهم فى إيقاظ شعلة رغبة العلم فى قلبي، ولم يألوا جهدا فى إكمال هذا البحث وشرفوني بآرائهم القيمة السديدة أخص منهم الأستاذ البروفيسور محمد بشير أحمد جمالي، والأستاذ البروفيسور رضوان الرحمن، والأستاذ البروفيسور مجيب الرحمن وغيرهم الذين ساعدوني بآرائهم الغالية واقتراحاتهم الثمينة. وأدعوا الله لهم أن يمتعهم بدوام الصحة والعافية فإنه سميع مجيب الدعوات وهادٍ إلى الصراط المستقيم.

وهناك أصدقاء يعاونوني دائما ويخلصون لي المودة. فهؤلاء يستحقون التقدير والشكر وأخص بالذكر منهم الأخ مسعود عالم، والأخ محمد أنظر حسين، والأخ الدكتور عطــاء الله السنابلي، والأخ محمد زبير، وكثيرون آخرون لا أذكر أسماءهم ولكن أبث إلى جميعهم مشاعر التشكر والامتنان، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

وقد قصدت من هذه الرسالة أن آتي بشيئ جديد، لا أدري هل وفقت أم لا. والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق.

محمد شاهنواز عالم

جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند

2019 /07/02م

الباب الأول

نظرة عابرة على الرواية الريفية فى مصر

الفصل الأول: الريف فى الرواية العربية الحديثة

الفصل الثاني: الريف فى الرواية المصرية الحديثة

الفصل الثالث: نبذة عن أهم الروايات الريفية المصرية

الفصل الأول

الريف فى الرواية العربية الحديثة

تعتبر الرواية إحدي الأجناس الأدبية التي تكون صدى عن ظروف المجتمع أو الأفكار والملاحظات التي تكمن في ذهن المولّف. فبعبارة أخري هي فنّ أدبي تستخدم كوسيلة للتعبير عن واقع الحياة وقضايا المجتمع وعن مشاكل الإنسان وأزماته وكلما يعرقل مسيرته في الحياة، وهي ذات عناصر مختلفة مثل الشخصية، والزمان، والمكان، والسرد، والحوار، والحدث، والحبكة، والأسلوب والهدف، وتحتوي على العديد من الشخصيات، لكل منها بواعثها وانفعالاتها الخاصة كما يقول الدكتور طه وادي: "الرواية من أكثر الفنون الأدبية قدرة على التعبير عن أزمات الإنسان وقضايا الواقع من خلال حساسية خاصّة تجيد طرح الأسئلة وإثارة الانتباه"[1].

إنّ أدب الريف من الموضوعات الهامّة فى آداب جميع الأمم على اختلاف مواقعها بسبب كونه أقرب إلى الطبيعة حيث يقول الدكتور محمد حسن عبد الله: "لأنّ الريف هو الأقرب إلى الطبيعة وفي كل العصور لأنّه يحكي لغة الطبيعة والفطرة، ومن ثم تكون الطبائع الإنسانية فيه بعيدة عن زيف المدينة"[2]. إن للريف أهمية بالغة ومكانة مرموقة فى الأدب العربي الحديث حيث تناولته جميع الأنواع الأدبية العربية موضوعيا وعالجت قضاياه ومشاكله. ومن أهم الأسباب التي مهدت الطرق لظهور الأنواع الأدبية الريفية في العرب وجود مناطق ريفية بشكل هائل في بلدان العرب،

---

[1]. وادي، طه، هيكل رائد الرواية: السيرة والتراث، دارالنشر للجامعات، مصر، 1998م، ص: 23.
[2]. عبدالله، محمد حسن ، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م، ص: 117.

ونقلهم من القرى والصحاري إلى المدن، وبانتقالهم من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي. وقد مر المجتمع العربي أيضا في القرن العشرين مثل المجتمعات التقليدية من خلال تغييرات مفاجئة، وكثيرا من تلك العمليات التي جلبت هذه التغييرات منوطة أصوليا بهذه الأسباب. وقد أثرت هذه التغييرات على المجتمع العربي أيضا لكنه احتفظ سماته الخاصة ضمن تأثير هذه العمليات، وبقي تقليديا إلى حد كبير، لذاك نجد أن الريف لا يزال يحمل أهمية بالغة في سياق القومية العربية العامة، وقد تحدث النثر ولا سيما الرواية العربية عن التطورات الحديثة في المجتمع العربي أكثر مما تحدث الشعر.

إن الرواية الريفية، هي التي تتحدث عن أهل الريف وأعرافهم وتقاليدهم وطرق حياتهم حيث يكون أهل الريف هم الشخصية الرئيسية فيها وكذلك تعالج قضاياهم ومشاكلهم، كما يقول الناقد عامي العاد: "فالرواية الريفية هي التي نظمت حبكتها المركزية في الريف حيث أهل الريف هم الشخصية الرئيسية فيها، والتي تتحدث مباشرة أو غير مباشرة عن أمور تتعلق بأعرافهم وطرق حياتهم، وتعالج شؤونهم وقضاياهم حسبما تعكس عليها الظروف"1.

ومما لا شك فيه أن الكتاب العرب اطلعوا على الأدب الغربي عن طريق الترجمة ولهم إلمام بهذا الأدب ويعلمون بالتغيرات التي تقع في عالم العرب وفي البلدان من العالم الثالث، وهم متأثرين به مباشرة أو غير مباشرة، فقد نال شكل الرواية قبولا عاما بين كتاب العرب، والرواية الريفية تنسجم خاصة بطابع المجتمع العربي الذي لا يزال على طريق النمو. فيقول الناقد عباس لبيب: "وهذا من الصعب

[1] .Elad, Ami, The Village Novel in Modern Egyptian Literature, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 1994, P 26.

تحديد تأثير الكتاب العرب بالأدب الأوربي ومدى معرفتهم بالثقافة الأوربية وبأعمالها، إلا رواية "الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوي الذي يتشابه مع رواية "Fontamara" للاغنياز سيلون، وكذلك مع رواية "Good Earth" لبيرلس بك ورواية " And Quiet flows the Don" لميخائل شولوكو"1. تطورت الرواية الريفية جنبا إلى جنب أنواع الآداب الأخرى، وفى السطور التالية، نحاول إلقاء الضوء على وضع الرواية العربية فى بلدان العالم العربي المختلفة.

الرواية الريفية في العراق: البدايات الأولى للنتاج الروائي العراقي كانت في العشرينات من القرن العشرين، حيث اهتم الكتاب العراقيون بحياة الريف، لكن وصلت الرواية الريفية العراقية إلى أوجها في الستينات والسبعينات نوعيةً وكميةً. وهذا ليس غريبا على بلد ثلاثة أرباع سكانه يعملون بالزراعة، أو في أنشطة ترتبط بها. ولعل الظروف التي كان يعيشها العراقيون في ظل الاحتلال البريطاني الذي أحكم قبضته بتشجيع النظام العشائري، ومحاربة رجال الدين هي التي تبرز توجه الكتاب العراقيين الذين صوروا ما آل إليه الريف.2 ومن أهم الروايات الريفية في العراق رواية "سبيل الزواج" لمحمود السيد عام 1929م، ورواية "الدكتور إبراهيم" لذي النون أيوب عام 1939م، ورواية "الفرات الأوسط" لمحمد حسن النمري عام 1931م، ورواية "رنة الكأس" لعلي الشبيبي عام 1936م. ورواية "الثالوث" ليحيى عباس عام 1953م. بعد ذلك ظهرت روايات أخرى عن الريف ومشكلاته حتى الثمانينات مثل رواية "أم أيشين" لجاسم الهاشمي عام 1981م.

---

[1]. لبيب، عباس، بين الأرض وفونتامارا، فصول، يناير-مارس، 1982م، ص: 240-253.

2. عبد الله ، محمد حسن، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م، ص: 20 .

ومن أهم الروايات الريفية فى العراق رواية "الثالوث" عام 1953م التي كتبها يحيى عباس، فالرواية تحكي قصة سليمان الهارب من القرية بسبب الإقطاع وممارساته. يعمل سليمان فلاحا لدى أحد الإقطاعيين لساعات طويلة مقابل أجر زهيد. رأى سليمان بأم عينيه كيف يعامل هذا الإقطاعي عماله وخاصة صديقه جابر الذي أحرق بيته، وصلم أذنيه وشواها وأجبره على أكلها، مما دفع بسليمان أمام هذه المشاهد المروعة إلى حمل أسرته باتجاه بغداد أي باتجاه المدينة. في المدينة يضطر إلى العمل في أشق المهن رفقة ولده. أما ابنته فيجرفها تيار الغواية فيقتلها أخوها ويفر إلى الكويت.1

كل هذه الروايات تناولت جوانب شتى من حياة الريف، خاصة مسألة الصراع على الأرض وتصدع الوحدة القرابية العشائرية الفلاحية. "فالموضوعات في الرواية الريفية العراقية تشمل طرق الحياة في الأرياف، والأنماط الثقافية، وأعرافها وتقاليدها، وانتقال أهل الأرياف إلى المدن، وأثره على المجتمع الريفي والحضري، والتغيرات التي تقع في الريف نفسه، والعلاقات بين الفلاحين والسلطة، وقتال الفلاحين لحقوقهم ضد ملاك الأراضي"2.

الرواية الريفية في السوريا: تعد رواية "نهم" لشكيب الجابري باكورة الأعمال الروائية السورية في الثلاثينات من القرن العشرين. جاء الاهتمام بالريف لدى الروائيين السوريين متأخرا أي في الخمسينات، ولكن في أحضان الاتجاه الواقعي. وقد انصرف هؤلاء الروائيون إلى تناول حياة الريف وما يعانيه الفلاحون في ظل نظام إقطاعي

1. نفس المرجع، ص:23.

2 .Alad, Emi, The Village Novel in Modern Egyptian Literature, Klaus Schwarz Verlag, Berlin 1994, P 26.

مرابي، وطبيعة قاسية. ومن أهم الموضوعات التي توجد في الرواية الريفية السورية الأعمال، والأرض، واستغلال الفلاحين، وأوضاع النساء في المجتمع والهجرة إلى المدن. وإن صلاح دهني، وفارس زرزور، وهاني الراهب، ونبيل سليمان، وحيدر حيدر من أشهر كتابها.

من أهم الروايات التي رصدت مكابدة الفلاح السوري رواية "المذنبون" عام 1947م لفارس زرزور. تدور أحداث الرواية في قرية الميرة إحدى قرى الجنوب السوري والتي تقع في منخفض من الأراضي الشديدة الوعورة ذات المرتفعات والأغوار الحجرية البركانية "يعيش سكانها على رغيف جاف، مصنوع من الخليط شعير وحنطة وذرة مجتمعة. وفي فصل الربيع ربما تغير الحال قليلا، فإما أن يغمسوا لقمتهم بالبرغل، أو بما يفيض من خضخضة اللبن الرائب عندما يصنعون منه السمن... الذي يبيعونه ليكتسوا بثمنه".[1] ويتجلى موضوع الأرض في هذه الرواية من خلال شخصيته المحورية جدعان عبد الله الفلاح الشاب الذي تركه أبوه صغيرا رفقة أخته وأرض صغيرة ليزرعها و يتمتع بها، غير أن يد الإقطاع امتدت إليها وسلبتها منه، فاضطر إلى هجرة أرضه وقريته إلى المدينة، إلا أن علاقته بأرضه لم تنقطع، فهو دائم التفكير فيها لجمع المال أملا في العودة إليها يوما ما.

الرواية الريفية في المغرب: تأخر ظهور الرواية في المغرب كفن أدبي متميز له خصائصه المنفردة، وسماته الخاصة، إلى فترة الخمسينات من القرن العشرين. هناك خلاف بين النقاد عن ظهور أول رواية في المغرب. فمنهم من قال إن البذور الأولى لكتابة الرواية في المغرب ترجع إلى الثلاثينات مشيرا إلى قصة "فاطمة" لأستاذ عبد

1. نبيل، سليمان، الرواية الريفية في سوريا (1967م-1977م)، مجلة الأقلام، بغداد، 1979م، عدد 9، ص:317.

الخالق الطريس. ومنهم من أرجعها لسنة 1947م، وقال إن رواية "غادة أم القرى" لأحمد رضا حوحو أول رواية مغربية، ومنهم من أرجعها إلى عام 1957م، تاريخ صدور "في الطفولة" لعبد المجيد بنجلون، ومنهم من ذهب لما هو أبعد وربطها بتاريخ صدور "الزاوية" للتهامي الوزاني سنة 1942م، أو "الرحلة المراكشية" لإبن المؤقت عام 1923م. وقد أجمع مختلف الدارسين على أن سيرة عبد المجيد بنجلون "في الطفولة" هي أول عمل روائي صدر بالمغرب عام 1957م، حيث توفرت له مقومات الجنس الروائي ضمن خانة أدبية ظلت فارغة على مدى تاريخ تطور واستحداث الأجناس التعبيرية بالمغرب.

ومما لا شك فيه أن الرواية المغربية تأثرت بالرواية العربية في مصر، خاصة رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل على الرغم من تأخر ظهورها الذي يعود إلى فترة الخمسينات من القرن العشرين، ولعل رواية أحمد رضا حوحو "غادة أم القرى" عام 1947م تؤكد هذا التوجه الرومانسي، ذلك أن الرواية تبدو متأثرة برواية هيكل، حيث تتعرض لقضية المرأة وحقها في التعلم والحب والحرية، كما أن تأثرها بغادة الكاميليا، وبأسلوب المنفلوطي ليس من قبيل الصدفة. نفس الأمر ينطبق على الكاتب المغربي عبد المجيد بن جلون الذي ألف روايته "في الطفولة" عام 1957م، وهي عبارة عن سير ذاتية وهو يقيم بمصر مما جعل التأثر بالطابع الرومانسي في الرواية المصرية يتأكد.1

ومن أهم الروايات المغربية التي اتخذت من الكفاح الوطني ضد الاستعمار الوطني بالريف موضوعا لها رواية "بامو" عام 1974م للروائي أحمد زياد الذي حدد

1. المرجع نفسه، ص: 36-39.

له الإطار المكاني قرية من قرى المغرب والإطار الزماني منتصف الحرب العالمية الثانية. في هذه الرواية حشد الكاتب مجموعة من الأحداث التي تعرضت لها فرنسا أثناء تعرضها للغزو النازي، كما عرضت لأحداث محلية تخص الحركة الوطنية ونضالها، وكذا جهاد محمد الحنصالي.

يختار الكاتب في حديثه عن الكفاح الوطني زوجين يعيشان الفقر، ولكنهما رضيا به وأقنعا نفسيهما بعشية الشطف، والعوز. الزوج باسو يعمل حدادا، يصلح للفلاحين بالقرية أدواتهم الزراعية من مناجل ومحاريث، يعود مساء إلى بيته، حيث زوجته بامو، يداعب أوتار الكمبرى ويجالس أصحابه فيقص عليهم كفاح والده ضد الاستعمار، وعن المعمرين الذين استولوا على الأراضي الزراعية وطردوا أصحابها. فقد كان أبوه ثريا صاحب أراض، والآن فقد كل شيئ وأضحى فقيرا وقد وجد في شيخه سي موسى فقيه القرية مرجعا ثقافيا يضعه على خط العمل الوطني، فتزداد زوجته إعجابا به.

كان للأحداث التي شهدتها مناطق كثيرة في المغرب صدى واسعا لدى مناضلي قرية دويزعت ومنهم باسو، الذي قبضت عليه السلطات مع خلق كثير، وزجبهم في السجن. بامو رمز المغرب تعاني بعد سجن زوجها من أبناء جلدتها، ومن الدخلاء، كما عانى المغرب في تلك الفترة العصبية، إلا أنها تظل صامدة، ولكن ليس لمدة طويلة، حيث تصاب بمرض فتموت. أما زوجها باسو فيهيم بوجهه بعد أن أصبح درويشا، لكن المغرب يحظى بالاستقلال.1

1. المرجع نفسه، ص: 36.

عالج الكاتب أحمد زياد في هذه الرواية معاناة الريف المغربي في ظل الاحتلال الفرنسي وما لاقاه المجتمع من حيف جراء استيلاء المعمرين على أخصب الأراضي وطرد أهلها إلى الأراضي القاحلة. إضافة إلى فرض الضرائب المتنوعة، ولم يتوقف عند هذا الحد بل عمل على إفساد المجتمع وذلك بنشر الرذيلة، وتشجيع تعاطي الخور، وفتح بيوت الدعارة وما إلى ذلك. كما سعى الاستعمار إلى تقسيم البلاد إلى مناطق، وجعل بعضها مناطق أمنية يستعصي الدخول إليها. ومما زاد من معاناة أهل الريف تعرض محاصيلهم الزراعية للجفاف والجراد الزاحف الذي يأتي على الأخضر واليابس وهو في ذلك يتساوى مع المعمرين الذين زحفوا على الأراضي واغتصبوها بقوة الإرهاب تارة، وبسياسة التزوير تارة أخرى.

الرواية الريفية في سودان: الرواية الريفية في سودان تحتل مكانا مرموقا لعمق ارتباطها موضوعيا بالريف إلى درجة التوحد التاريخي، نشأة وامتدادا، ونجدها ترسم للريف السوداني صورة خاصة متميزة حيث لا تتخذه بيئة مكانية فقط لطرح قضايا عامة أو مناقشة أمور مسبقة يمكن أن تطرح من خلاله، كما يمكن أن تتداول على مستويات أومن خلال بيئات أخرى. فاتساع الرقعة السودانية، فتنوع الطبيعة ما بين الوادي والصحراء والغابة، واختلاف الأصول والأعراق أو امتزاجها ما بين العربية والزنجية يميز الرواية الريفية السودانية من الروايات الأخرى. وإضافة إلى هذا مصادر القلق الحي المؤثر بالنسبة لمرحلة الاستقلال وما تبعها، من صراعات قومية وثقافية ولغوية، وما يستند إليه بعض هذه الصراعات من جذور دينية أو عشائرية أو عنصرية، تؤكد هذه الخصوصية والامتياز للرواية الريفية في السودان. وهذا ما يجعلنا لا نجزم بالاطمئنان إلى انفراد هذا الجانب أو هذه العوامل بالتأثير هو أننا

نستطيع أن نجدها متحققة –بصور وملامح قد تختلف قليلا– في جهات أخرى من العالم العربي، ولكنها لم تقدم إلينا رواية ريفية أو غير ريفية لها هذا العبق الخاص. وهذه الجاذبية المثيرة المؤثرة.

إن معظم الموضوعات التي تناولتها الرواية الريفية السودانية تتعلق بعلاقة الفلاح مع السلطة، وقضية الأرض، والهجرة إلى المدن وإلى المغرب، والاحتكاك مع الثقافة الغربية وأقدارها، وطرق الحياة الريفية، وأوضاع النساء ومشاكلها في السودان.

وازدهرت الرواية الريفية في سودان خلال الستينيات والسبعينيات. ومن أشهر الروايات الريفية في سودان رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" عام 1966م، ورواية "عرس الزين" عام 1969م، ورواية "بندر شاه" عام 1971م للطيب صالح، ورواية "جزيرة العوض" لعمر الحميدي عام 1980م، ورواية "أحزان النهر والغابة" لمكي محمد مكي عام 1981م، ورواية "الجنخانة" لعمرو محمد عباس عام 1981م.

الرواية الريفية في تونس: من أهم الروايات التونسية الريفية رواية "التوت المر" لمحمد العروسي المطوي عام 1972م. تقع أحداث الرواية في إحدى قرى الجنوب التونسي، حيث يلجأ الشيخ مفتاح إليها هاربا من بطش الاستعمار الإيطالي في ليبيا مع ابنته مبروكة التي تحمل هموم أبيها وأختها عائشة الكسيحة، ولكنها باهرة الوجه، رائعة الشعر، عميقة النظرات فيقع في حبها عبد الله بعد أن رآها تحت التوت تمشط شعرها، فيقرر الزواج بها.

في هذه القرية ينتشر تعاطي "التكروري" أي الحشيش بتشجيع من السلطة الاستعمارية فيحاول عبد الله رفقة بعض شباب القرية محاربة الظاهرة، حيث يقدم أحد هؤلاء الشباب على حرق دكان والده الذي كان يبيع هذه السموم. وفي خضم هذه

الأحداث يحاول الكاتب عرض بعض العادات والتقاليد المنتشرة في الريف التونسي من باب الدعوة إلى المحافظة على هذه التقاليد والعادات، وبالتالي إسباغ نكهة الواقعية على الرواية.1

الرواية الريفية في فلسطين: لقد كتبت روايات كثيرة عن فلسطين ومشكلتها، وغطت جميع مراحل تاريخها الحديث وكافة مناطقها الجغرافية، وجميع قطاعات المجتمع فيها، فنجد الروائيين الفلسطينيين يعكفون على رسم خريطة أرضهم بالأحداث والرجال وملامح الطبيعة الثابتة حتى الشجرة والتل والنبع والتربة الحمراء والنباتات الحراجية ما بين أقصى الشمال: مرج ابن عامر وما حوله، إلى أقصى الجنوب: غزة ورفح وما حولهما لم تهمل الروايات بقعة واحدة، أو مدينة مهما كان حجمها، أو أهميتها، قد تحتل القدس مكانا مهما، ولكن نابلس وأريحا وبير السبع وغزة وجنين وغيرها، قد أخذت أماكنها كذلك. الكاتب الفلسطيني يصور القضية الفلسطينية من خلال الناس، والمجتمع، والحياة اليومية وما فيها من هموم وحاجات صغيرة قد تزاحم الأهداف الكبيرة، وقد تشغل الناس عنها، فلا يتذكرونها بوعي إلا حين تستجد أزمة أو تحدث صدمة.2 إن الروائي الفلسطيني هو وحده الذي كتب عن الريف الفلسطيني والحياة الاجتماعية في فلسطين سواء قبل الاحتلال أو بعده، داخل الأرض المحتلة، أو فيما بقى من أرض فلسطين تحت إدارة عربية، في إدارة عربية، في المدن الصغيرة، أو القرى أو المخيمات، قريبا من الحدود، أو خط وقف إطلاق النار، أو بعيدا عنها.

1. المرجع السابق، ص:51 .
2 . الراهب، هاني، الشخصية الصهيونية فى الرواية الإنجليزية، مركز الأبحاث فى منظمة التحرير الفلسطينية، 1975م، ص 118.

ومن أهم الأعمال الأدبية الريفية في فلسطين رواية "الكابرس" لأمين شنار عام 1968م، ورواية "نزل القرية غريب" لأحمد عمر شاهين عام 1977م، وروايتي "أيام الحب والموت" عام 1973م، و"العشاق" عام 1977م لرشاد أبي شاور، ورواية "بئر الثوم" لفيصل حوراني عام 1979م، رواية "الخيوط" لوليد أبي بكر عام 1980م، ورواية "عصافير الشمال" لعلي حسين خلف عام 1980م، ورواية "تفاح المجانين" ليحى خلف عام 1982م، وثلاثة أعمال لأميل حبيبي تعتبر أيضا مساهمة في الأدب الريفي الفلسطيني رغم أنها تختلف في درجة اقترابها من الشكل الروائي: "سداسية الأيام الستة" عام 1969م، و"الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحاس المتشائل" عام 1972م، و"لكع بن لكع" عام 1980م.

إن "الأرض" في أدب أميل حبيبي هي أرض فلسطين، وهو المفهوم السائد المستقر لاستخدام الكلمة عند الكتاب العرب من فلسطينيين وغيرهم إذا ما اتخذوا من قضية فلسطيم موضوعا لعمل فني، ولكن الإضافة التفصيلية التي يفطن إليها الكاتب الفلسطيني قبل غيره أو أكثر من غيره، تنبع من المعايشة اليومية، ومن ثم التخلص من التعميم الذي يؤدي إلى التجريد، ومؤدى هذه الإضافة أن معركة الوطن بدأت بالصراع حول الماء والأرض المزروعة، وقد كان لهذه المعركة مسوغها من جانبين: أن الفلاح شديد الالتصاق بالأرض والتمسك بالإقامة في مسقط رأسه مهما عان من اضطهاد أو استهدفه من خطر، وأن اليهود في بلادهم التي قدموا منها إلى فلسطين نادرا ما كانوا يعملون في الزراعة، وهكذا أحيط بالفلاحين العرب ليندفعوا في طريق الهجرة خارج فلسطين ومن صمد منهم تعرض لضغوط أخرى تدفعه إلى هجر الفلاحة إلى العمل في المصانع أو العمل أجيرا في المزارع الجماعية الإسرائيلية.

لهذا أقر مبدأ الاستيلاء على أراضي الغائبين تحت مبدأ أنهم مهزومون، وليس للمهزوم الحق في شيء! وهذا الحوار بين سعيد أبي النحس وزوجته باقية يكشف عن مبادئ العصور الهمجية التي تطبقها إسرائيل في منتصف القرن العشرين: "سألتها: ألم يكن لأخوالك أرض في جسر الزرقاء ؟

فأجابت: بلى، ولكن الحكومة استولت عليها كما استولت على بقية الأراضي في جسر الزرقاء. فسألتها: ألم يرفع أخوالك أمرهم إلى القضاء؟ فأبدت دهشتها وقالت قال لنا المختار: إنهم قالوا له: حاربتم فانهزمتم فأصبحتم وأموالكم حلالا لنا، فبأي قانون يطالب المغلوب بحقه1، فهذا "حق الفتح" إذا يطل علينا، فيمحو. نطق إسرائيل حقوق الإنسان، كما يمحو زعمها في الحق التاريخي والعودة، إنه منطق القوة لا غير، لأن صياغة الحوار في هذا الاقتباس لتكشف أن هذا القوي لم يعبأ بأن يخاطب الضعيف أو يقنعه عن طريق القضاء، حتى وإن كان قضاء منحازا، فجواب القضية –وليس الحكم فيها– أبلغ إلى المتظلم عن طريق المختار قبل رفع المظلمة!

إن الرواية الريفية في فلسطين رغم أنها ركزت على وحدة الاهتمام بالريف كرمز للأرض الفلسطينية وهي بذاتها الأرض الزراعية والقرى، حاولت أن تغطيى مراحل من الصراع قبل النكبة وأثناءها وفي أعقابها، وحتى بعد نكسة 1967م، وانتصار العبور في أكتوبر 1973م، وأن تغطي أرض فلسطين في مختلف مواقعها ما بين قرى الشمال، والمدن الإقليمية الصغيرة في الوسط، وقرى الجنوب حول النقب وقريبا من غزة. يقول الدكتور حسن عبد الله: "إن رؤى أدباء الرواية لم تتجاوز الصهيونية كعدو أول، ولكنها –في بعض الروايات– لم تكن العدو الوحيد، لقد مهدت

1 . حبيبي، أميل، الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبي النحاس المتشائل، دار الهلال، 1974م، ص: 30.

له صراعات عرقية وطبقية وروجت له قوى أجنبية وتخاذلت في مواجهة بوادره الأولى طبقات ومصالح، واستمرت هذه الطبقات وتلك المصالح في الضغط على القوى الشعبية المتصاعدة لمناهضة الصهيونية كي تبقي لنفسها على مكاسبها".1

1 . عبد الله، محمد حسن، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م، ص: 207.

الفصل الثاني

الريف في الرواية المصرية الحديثة

الرواية العربية الحديثة لها علاقة أصيلة بالريف، وهذه العلاقة تبدأ منذ مولد الرواية العربية التي مهما اختلف في تأصيل بدايتها، فإن كل البدايات تعود إلى مولد الرواية في بيت الفلاح في مصر. إن الرواية العربية الأولى "زينب" لمحمد حسين هيكل كانت ريفية تجري أحداثها في الريف، وأثارت هذه الرواية ثورة أدبية وفكرية في الأدب العربي الحديث وحثت الآخرين من الكتاب أن يتجهوا إلى هذا الموضوع حتى كتب معظم الكتاب رواية واحدة على الأقل عن الفلاح أو قريته.

إن الفلاح المصري الذي كان منذ آلاف السنين العمود الفقري للاقتصاد الزراعي والتجاري في مصر، قد أصبح مهيمنا على الخطاب الاجتماعي والفكر السياسي للدولة المصرية الحديثة في القرن العشرين، وظهر فجأة كشعار قوي للهوية الوطنية في مصر. ورغم أن النخب الحضرية احتقرته وتجاهلته منذ قرون، أصبح الفلاح الآن يعرف بالثقافة الوطنية حتى أن الكثير من الإنتاج الفني والفكري في مصر يصنع في صورته، والدولة المصرية نفسها تحكم بإسمه أو على الأقل تدعي القيام بذلك.

في بداية من القرن الماضي، بدأ الشعراء والكتاب والفنانون والمؤلفون للموسيقى يركزون على الفلاح باعتباره موضوعا مناسبا لفن وطني جديد. فكتب

الصالح حامدي حماد قصصه القصيرة "في الريف" عام 1910م،1 ثم كتب الكتاب الآخرون بعد ذلك كثيرا من القصص عن الريف ونشروها في الدوريات والمجلات، من أهمها و"إحسان هانم" لعيسى عبيد عام 1921م، و"حديث القرية" لمحمود طاهر لاشين عام 1928م. تدور هذه القصص حول موضوعات استغلال الفلاحين، وأعمال الأراضي، والهجرة، وحول الحياة والأعراف والتقاليد والخرافات الريفية، والأديان، وعلاقة الفلاح مع الرؤساء والسادات. وقرض مصطفي صادق الرافعي قسطا وافرا من الأشعار في وصف الريف والحياة حوله عام 1908م،2 وهو أول من تعرض بهذا الموضوع. ومن الصعب تحديد جميع الشعراء الذين قرضوا الأشعار عن الريف، ومجموعات عبد الرحمن تتحدث عن هذا الموضوع بالتفصيل3. ونظمت عدة مسرحيات في سياق الريف، منها اثنتان لسعد الدين الوهاب4، وجعلت عدة أفلام عن الريف تبني بعض منها على الروايات، والأخرى على أحداث حقيقية، من أشهرها "زينب" لمحمد حسين هيكل، و"الأرض" للشرقاوي، و"الحرام" ليوسف إدريس. يعتقد العالم المصري الأب هنري عيروط: "أن الأفلام بدأت تهتم بشؤون الأرياف في بداية العشرينيات مثلا فيلم "عاصفة على الريف"، و"ليلي بنت الريف"، و"ابن النيل" وغير ذلك."5 وكذلك التراكيب الموسيقية لسيد درويش، والتماثيل الضخمة لمحمود مختار، وروايات طه حسين، وتوفيق الحكيم ساهمت مساهمة كبيرة في ترسيم هذا الشكل الجديد. والمثقفون المشهورون مثل سلامة موسى ومحمد حسين هيكل كتبوا مقالاً بعد مقال يحتفلون بنسبهم القديم وأصالتهم الوطنية حتى السياسيين الأرستقراطيين مثل

1 . حماد، الصالح حامدي، أحسن القصص، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، 1910م.
2. حسن، محمد عبد الغني، الفلاح في الأدب العربي، دار القلم للطباعة والنشر، 1965م، ص: 24-25.
3. البنودي، عبد الرحمن، الأرض والليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م، ط2.
4. الوهاب، سعد الدين، المحروسة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1967م.
5 . عيروط، هنري، الفلاحون، ترجمة إلى العربية: محيي الدين اللبان، المركز القومي للترجمة السلسلة: ميراث الترجمة، 2009م، ص: 287.

الزعيم الوافي سعد زغلول، والملك فاروق نفسه قد أعلنوا أصولهم الفلاحية بصوت عال. وهذا كان من الأمور التي لم يمكن التفكير فيها قبل مجرد خمسين عامًا.

خلفية تاريخية للرواية الريفية: يمكن إرجاع هذا التحول الكبير في الصور والحوار السياسي المحيط بالفلاح المصري إلى أوائل القرن التاسع عشر على الأقل. وقد أنتج الاستعمار البريطاني، واندماج مصر في اقتصاد رأسمالي عالمي الظروف الاجتماعية والسياسية التي جعلت هذا التحول ممكنا. وتشمل هذه الظروف مؤسسية وتوطيد الدولة القومية الحديثة، وظهور القومية والنضال ضد الاستعمار البريطاني، والتغيرات الديموغرافية الهائلة التي حدثت في مصر نتيجة لسبب هجرة أهل الريف إلى المدن، وانتشار محو الأمية والتعليم العالي، وأخيراً، وعي الفلاحين المتزايد لدورهم الفعال كقوة سياسية واقتصادية في مصر الحديثة. ونتيجة مباشرة لهذه التغيرات، حدثت أسطورة جديدة وفريدة من نوعها حول شخصية الفلاحين المصريين على مدار القرن العشرين. وكانت هذه الأسطورة مربوطة بعمليتين تاريخيتين مركزيتين، كان أولهما ظهور وتوطيد الدولة القومية الحديثة في مصر، خاصة في المرحلة الاستعمارية المتأخرة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وآخرهما ظهور سلسلة الأنواع الأدبية الجديدة من المقالة الصحفية، والقصة القصيرة، والرواية القرن العشرين.1

ظهور "زينب"، أول رواية عربية فنية: إن هناك خلافا بين النقاد في الرواية العربية الأولى، فمنهم من قال إن رواية محمود خيرت "الفتى الريفي" أول رواية عربية، ومنهم من قال إن رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل أول رواية عربية، يقول الدكتور

1 Selim, Samah, The Novel and the Rural Imaginary in Egypt, 1880-1985, Routledge Curzon, London, 2004, p 2.

مصطفي الضبع بهذا الصدد: "يدور هذا الخلاف حول السبق الفني لمحمود خيرت في روايتيه "الفتى الريفي"، و"الفتاة الريفية" (1902م) أو لعبد الحميد خضر البوقرقاصي في روايته "القصاص حياة" (1905م) أو لمحمود طاهر حقي في روايته "عذراء دانشوائ" (1906م) أو لمحمد حسين هيكل في روايته "زينب" (1914م). ولكن هذا الاختلاف لن ينقص حقيقة مولد الرواية في بيت الفلاح لأن جميع هذه الأعمال كان مسرحها الريف، وأشخاصها هم الفلاحون".1 اتفق معظم النقاد على أن الرواية الفنية العربية الأولى الفنية بالمعنى الحقيقي للكلمة هي رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل التى التي ظهرت عام 1913م، كما يقول الدكتور حمدي السكوت في "ببلوجرافيا الرواية": "إن التاريخ الحقيقي للرواية المصرية والعربية بالمعنى الدقيق للكلمة إنما يبدأ بعام 1914م حين ظهرت رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل بعنوان "زينب"، مناظر وأخلاق ريفية بقلم فلاح مصري"2.

تصور رواية "زينب" واقع الريف المصري في تقاليده القاسية وطبيعته السمحة، كما هي تحكي قصة شاب مثقف من أبناء الطبقة المتوسطة إسمه "حامد"، يحب ابنة عم له إسمها "عزيزة"، وتحول التقاليد القاسية في الريف دون التحقيق عن هذا الحب، ثم اختار أهلها زوجاً آخر لها، ويحرم منها حامد نهائياً، ثم يجد حامد بعض العزاء عند فتاة ريفية من الطبقة الكادحة إسمها زينب ولكن هي ثانية تفضل عليه "إبراهيم" رئيس العمال الذي تعمل تحت إشرافه... ويتم حرمان من زينب، ومن خلال الرواية نرى أنّ زينب تزوج مع رجل آخر"3. وفي الحقيقة تسعى هذه الرواية إلى أن تبين للقارىء حالة القرية التي لا تعترف بمشروعية الحب بين الرجل والمرأة

1. الضبع، مصطفى، فلاح الرواية رواية الفلاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998م، ص: 21.
2 . حقي، يحيى، فجر القصة المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986م، ص: 41.
3. هيكل، محمد حسين، زينب، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة، مصر، 1992م، ص: 208.

وأنّ التقاليد القاسية ترسم خطوط العيش، ولابّد للناس أن يستسلم أمام هذه التقاليد القاسية ومصيرهم القدري. ومن الأسباب المهمة التي تتميز بها رواية "زينب" من الروايات الأخرى هي الواقعية التي لم تكن تتوافر عادة في الروايات السابقة، فاكتسبت الرواية بذلك أصالة بتقديم صورة واقعية للعادات والقيم والتقاليد وجوانب الحياة الريفية المصرية، كما يكتب الأستاذ يحيى حقي: "إن مكانة قصة "زينب" لا ترجع فحسب إلى أنها أول القصص في أدبنا الحديث، بل إنها لاتزال إلى اليوم أفضل القصص في وصف الريف وصفاً مستوعباً شاملاً.1

إن رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل التي أثارت ثورة أدبية وفكرية في الأدب العربي الحديث قد حشاها كاتبها الشاب بكل ما في الشباب من عاطفة جامحة تجاه الوطن والمستقبل. وتجدر بالإشارة هنا إلى أن محمّد حسين هيكل تأثر في روايته "زينب" إلى حدّ كبير بالأدب الفرنسي حال كونه يشكو لبعده عن الوطن وحنينه له ولقريته، ولكن قد استطاع أن يقدّم رواية فنيّة واقعيّة تبين زاوية من الحياة الريفيّة. فالحنين المشبوب إلى الريف المصري هو الذي دفعه إلى كتابة "زينب" لأنه كتبها في الغربة بين باريس وسويسرا حيث كلمات الإهداء تقول: "إلى مصر، إلى هذه الطبيعة الهادئة المتشابهة اللذيذة، إلى هؤلاء الذين أحببت، وأحب، إلى بلاد بها ولها عشت وأموت".2 وإن عنوان الرواية: "زينب: مناظر وأخلاق ريفية" يشير أيضا إلى أهم جوانب الرواية ومضامين نصوصها بشكل عام. "ولعل هذا الارتباط المبكر بين الريف المصري وأول رواية عربية فنية حث الآخرين من الروائيين على أن يتجهوا

1. حقي، يحيى، فجر القصة المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م، ص: 48.
2. هيكل، محمد حسين، زينب، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة، 1992م، ص: 3.

موضوعيا إلى الريف حتى كتب معظم الكتاب رواية واحدة على الأقل عن الفلاح وقريته".1

- فكتب طه حسين روايته الشهيرة "الأيام" عام 1919م ودقق حياة أهل الريف فيها، والتي اشتهرت بكونها سيرته الذاتية. وفي عام 1934م، كتب روايته "دعاء الكروان" عن واقع الحياة في المجتمع الريفي المصري. وفي عام 1939م، كتب روايته "أديب" صور فيها تناقض الأفكار بين مجتمع مصر الريفي وبين مجتمع أوربا.
- وفي عام 1933م كتب توفيق الحكيم روايته الشهيرة "عودة الروح". "يعتبر توفيق الحكيم أحدا من الرواد القلائل الذين وظفوا الريف وتناولوا قضاياه في رواياته. ويتميز بالأدب الحر والروح المصرية التقليدية طوال رواياته ومسرحياته. وليس أدل على ذلك من روايتيه "عودة الروح" و"يوميات نائب في الأرياف" حيث تنادي الأولى بالروح المصرية التقليدية والثانية بتكريس العدالة الاجتماعية في الريف المصري وإزالة الإقطاع في السياسة والاقتصاد والدين".2 وتعتبر روايته "يوميات نائب في الأرياف" التي كتبها في عام 1939م أول مرحلة كاملة للرواية الواقعية في الأدب العربي الحديث.
- وفي عام 1933م، كتب محمود البدوي روايته الشهيرة "الرحيل". وإن معظم رواياته وقصصه تصور واقع القرى المصرية وقضاياها الاجتماعية السياسية.

1. سي. كيه، عبد الرشيد، صورة الريف المصري فى روايات توفيق الحكيم، رسالة ما قبل الدكتوراه، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند، 2012م، ص: 68.
2. المرجع السابق، ص: 74.

- وفي عام 1934م، كتب يحيى حقي روايته "البوسطجي" تناول فيها قضية الشرف لدى القرويين في مصر من خلال قصة حب. وكتب روايته "صح النوم" في عام 1954م التي تكشف قرية مصرية راقدة بين الغيطان.
- وفي عام 1945م، كتب علي أحمد باكثير روايته الشهيرة "الثائر الأحمر" التي صور فيها الظلم السائد في المجتمع المصري الريفي.
- وفي عام 1953م، كتب عبد الرحمن الشرقاوي روايته الشهيرة "الأرض" التي انتقل بها إلى مرحلة جديدة في تاريخ الكتابة للرواية العربية الحديثة، وخاصة عن الريف والأرض والفلاح حيث قدم قرية مصرية باتجاه الواقعية الاشتراكية بعيدا عن النظرة الرومانسية. وهي أول عمل ينطق فيه الفلاحون بلغتهم الحقيقية، حيث تقول فاطمة موسى عن عبد الرحمن الشرقاوي: "هو أول من أنطق الفلاح المصري في الرواية العربية".1
- وفي عام 1956م، كتب نجيب العقيقي روايته "أرض الله" التي تدور أحداثها حول الريف المصري لكنها لا تقف عند سرد تقاليد وعادات القرى المصرية بل يتسع نطاق رسمها إلى أطوار الحياة العامة في مصر.
- وفي عام 1965م، كتب يوسف إدريس روايته الشهيرة "الحرام" يصور فيها جوانب الظلم الاجتماعي في الريف المصري. وفي روايته "العيب" يرصد القيم الموروثة في المجتمع الريفي المصري.
- وفي عام 1969م، كتب يوسف القعيد روايته "الحداد". وقد كتب يوسف القعيد عديدا من الروايات الريفية. ونحن نرى أن القرية المصرية هي الجانب

1. موسى، فاطمة، فى الرواية العربية المعاصرة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1971م، ص: 169.

الأساسي في كتابات يوسف القعيد، ومعظم شخصيات وأحداث رواياته تتكون من القرية مباشرة أو غير مباشرة.

- وفي عام 1991م، كتب بهاء طاهر روايته الشهيرة "خالتي صفية والدير" وهي أيضا من أفضل ما كتب عن الريف المصري.
- وفي عام 2010م، كتب الدكتور مرعي المدكور روايته "يوم الزينة" التي تسلط الضوء على مظاهر الريف المصري وخصوصيته وتكشف القرية المصرية بشكل جديد، يقول في الإهداء: "هذه قريتنا واحدة من آلاف القرى المصرية التي تشكل عمق بلادنا وروحنا، ليت أحلامكم تتحقق معا".1

أسماء أهم الروائيين البارزين: ومن أهم الكتاب الذين كتبوا روايات ريفية ولعبوا دورا فعالا في هذا المجال قبل ثورة يوليو 1952م، هم محمود خيرت (الفتى الريفي، 1902م)، ومحمود طاهر حقي (عذراء دانشواي، 1906م)، ومحمد حسين هيكل (زينب: مناظر وأخلاق ريفية، 1914م)، وطه حسين (الأيام الجزء الأول، 1929م، ودعاء الكروان، 1934م)، وإبراهيم عبد القادر المازني (إبراهيم الكاتب، 1931م)، وتوفيق الحكيم (يوميات نائب في الأرياف، 1937م)، وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) (سيد الإزباء، قصة إمرءة قاتلة، 1944م)، ومحمد عبد الحليم عبد الله (بعد الغروب، 1949م) على سبيل المثال.

وأما في مرحلة ما بعد الثورة، فهم عبد الرحمن الشرقاوي (الأرض، 1954م)، ويحيى حقي (صح النوم، 1955م)، وثروت أباظة (هارب من الأيام 1957م)، ويوسف إدريس (الحرام، 1959م)، ومحمد عبد الحليم عبدالله (الجنة العذراء،

1 . مدكور، مرعي، رواية يوم الزينة، دار الهلال ضمن سلسلة روايات الهلال، مصر، 2010م، ص: 3.

1963م)، وعبد الحكيم قاسم (أيام الإنسان السبعة، 1969م)، ومحمد يوسف القعيد (الحداد، 1969م)، وعبد الفتاح الجمل (الخوف، 1972م)، وسليمان فياض (أصوات، 1972م)، وأبو المعاطي أبو النجا (ضد مجهول، 1974م)، وعبد الستار خليف (البحث عن بندقية، 1978م، وغريب بين الديار، 1980م، والمسافرون، 1982م، والأبناء الأسير المر، 1985م) وغيرهم.

تطور الرواية الريفية المصرية في مراحل مختلفة: إن الرواية الريفية في مصر ظهرت في بداية القرن العشرين، وحققت مكانا هاما في تطوير الأدب المصري. تكمن أهمية هذه الروايات في استخدامها لأدوات فنية شديدة الوضوح لتصوير الواقع الاجتماعي والسياسي في الريف. إن هناك عوامل لظهور الرواية الريفية وتطورها في مصر. فالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة التي كُتبت هذه الروايات فيها تنعكس بوضوح في مواضيعها الفكرية والشعرية. وفي السطور التالية، نرى كيف ظهرت وتطورت الرواية الريفية المصرية في مراحل مختلفة؟ وما هي العوامل المختلفة التي أثرت في ذلك؟

من بداية القرن العشرين حتى ثورة يوليو عام 1952: في بداية القرن العشرين، نرى شكلين رئيسيين للرواية، واحد رواية التسلية والترفيه، والثاني هو الرواية التاريخية. أشهر مؤلف في هذا المجال هو الكاتب المصري اللبناني جورجي زيدان، الذي كتب مجموعة من عشرين رواية في فترات متتالية من التاريخ العربي، وكان التطور بطيئا للرواية الريفية، خاصة خلال العقد الأول من القرن العشرين، ورأينا روايتين لمحمود خيرت "الفتى الريفي" عام 1902م، "الفتاة الريفية" عام 1905م، ورواية لمحمود طاهر حقي "عذراء دانشواى" عام 1906م. ولعل الظروف

الاجتماعية والاقتصادية في ذلك الوقت، وخاصة حالة الفلاحين المنخفضة الذين يعيشون في فقر ويعانون من الاستغلال الشديد، هي التي لمست الكتاب مثل محمود خيرت وسببت في ظهور روايتيه "الفتى الريفي" عام 1902م، و"الفتاة الريفية" عام 1905م. وكذلك كانت بعض الأحداث السياسية المحددة مصدرا لظهور بعض الروايات الأخرى، مثل رواية محمود طاهر حقي "عذراء دنشواى" عام 1906م. هذه الرواية مبنية على قضية دانشواى، حيث اشتبك ضباط بريطانيون مع فلاحين محليين بالقرب من القرية بهذا الإسم.

ظلت تطور الرواية الريفية تعاني من الآلام المتزايدة التي تصيب النموذج عادة، بما في ذلك المشاكل الفنية المتعلقة بالمنشورات ككتاب أو في شكل تسلسلي. كان جمهور القراء محدودين وكانوا يفتقرون إلى الخبرة في هذا النوع الأدبي. إن معظم الروايات التي أنتجت في العشرينات والثلاثينات كانت رومانسية للغاية أو عاطفية، على الرغم من أنه بدأت تظهر كثير من الكتابة الواقعية. الموضوعات الرئيسية كانت الحب، والحياة الريفية، والاختلافات الطبقية، والمعتقدات الشعبية، والتعليم وإيقاظ الطموحات القومية. المؤلفون البارزون في فترة ما بين العشرينات والثلاثينات هم محمد حسين هيكل (زينب، مناظر وأخلاق ريفية، 1914م) طه حسين (الأيام 1929م) ودعاء الكروان (1934م)، وتوفيق الحكيم (يوميات نائب في الأرياف 1937م). أعطت مواهب هؤلاء الكتاب أهمية جديدة للرواية الريفية خلال هذه الفترة.

مشكلة الهوية الوطنية المصرية: كانت التطورات الاجتماعية والسياسية في العقد الثاني من القرن العشرين هى من بين العوامل التي دفعت محمد حسين هيكل إلى

كتابة روايته "زينب، مناظر وأخلاق ريفية" عام 1914م، وهو يدعو فيها إلى تشكيل الهوية الوطنية المصرية والمساواة الاجتماعية.

استغلال الفلاحين المصريين: وجدت مصر نفسها في خضم أزمة اقتصادية وسياسية، خاصة في المناطق الريفية لمصر. وصلت حالة الفلاح إلى حد أدنى من البؤس في الثلاثينات. وأساءت الحكومات المصرية المتوالية لا سيما صدقي، واضطهدت واستغلت الفلاحين إلى حد أقصى، لأنها كانت أسرع طريقة لزيادة العائدات و ملء أكواخ المملكة الفارغة. يقول الكاتب والناقد المصري حسن محسب عن هذه الفترة: "يبدو لنا أن مشكلة الفلاح وصلت إلى قمم مأساوية في ظل الإرهاب الذي تم ممارسته من قبل حكومات محمد محمود وصدقي باشا، عندما استأنفت السلطة السوط وشوهت نتائج الانتخابات، ودمرت اقتصاد الدولة، وكان قد انعكس ذلك كله في الفلاح الذي كان أكثر جوعا وأكثر فقرا من ذي قبل".1

كات هذه الظروف تهيمن على الحياة المصرية في الثلاثينات والأربعينات، حتى الثورة في عام 1952م، وهذا من السهل أن نفهم أن الكتاب المعاصرين أعطوا أهمية كبيرة للرواية الاجتماعية. يمكن لنا أن نرى أمثلة مدهشة عن تأثير هذه الفترة على الإنتاج الأدبي في روايات مثل "يوميات نايب في الأرياف" لتوفيق الحكيم عام 1937م، و"سيد العزبة" لعائشة عبد الرحمن عام 1944م، و"الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوي عام 1954م.

حدثت تغيرات اقتصادية واجتماعية وثقافية في العالم العربي بين الأربعينات والخمسينات. وقد شعر الناس النشاط الشديد والإثارة في الحياة المصرية. كان هناك

1 . محسب، حسن، قضية الفلاح فى الأدب العربي، دار الأقلام، القاهرة، مصر، 1965م، ص: 29.

تدفق قوي للمهاجرين من القرى إلى المدن وحدثت ثورة ناصر في عام 1952م. أفسحت طرق قديمة المجال للحياة وفتحت طرق جديدة عملية تعبر عنها في الرواية، كما هو الحال في أشكال أدبية أخرى. خلال هذه المرحلة، تزايد الاتجاه نحو وصف واقعي للحياة المصرية والممانعة عن تقليد المحتوى الغربي والخطة. تم إنشاء عدد كبير من الدوريات، التي توفر أوسع إمكانيات لنشر الكتابة الجديدة. وأصبح جمهور القراء أكثر مطلعا ومتقبلا للأشكال الجديدة من الأدب، خاصة الرواية والقصة القصيرة.

يتحول أسلوب واقعي للكتابة أحيانًا إلى "الواقعية الاشتراكية" في الواقع تميز هذه المرحلة من الرواية المصرية. الموضوعات المشتركة هي البنية الطبقية لمجتمع القاهرة. والقرية والتغييرات التي تجاوزها، والتحديث، والقضايا المعاصرة الأخرى. الروائيون المهمون في فترة ما بين الأربعينات والخمسينات هم نجيب محفوظ الذي نشر عديدا من الكتب مثلا "القاهرة الجديدة" (1945م) والثلاثية (1957م)، والكاتب البارز آخر هو "عبد الرحمن الشرقاوي" وأهم رواياته "الأرض" (1954م). هذان المؤلفان، اللذان يقفان رأسا وكتفا فوق الآخرين في تلك الفترة، يمثلان تيارين، يكتب محفوظ عن المدينة، بينما يظهر عمل الشرقاوي ارتفاعا في وضع الرواية الريفية.

تأثير ثورة يوليو على الكتاب المصريين: أثرت ثورة يوليو 1952م على كل جانب من جوانب المجتمع المصري. وانعكست التغيرات التي أحدثتها في الأدب ككل، وكذلك في الرواية الريفية. يمكن أيضا العثور على التفاصيل القيمة في رواية "الأرض" لعزت أبو رية، التي نشرت في عام 1980م، والتي تتناول الفترة مباشرة بعد الثورة ومع الإصلاح الزراعي. والعنوان بالطبع إشارة إلى "الأرض" للشرقاوي.

الهجرة الداخلية والخارجية: وكانت الهجرة –الداخلية منها والخارجية– هى من العناصر الهامة للتغيرات التي تحدث في المجتمع المصري، وأدى البؤس في مناطق البلاد إلى موجات من النزوح السكاني. خاصة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، ولكن أيضا من مصر إلى الخليج الفارسي والمملكة العربية السعودية. وبدأت هذه العملية في وقت مبكر من بداية القرن العشرين، ومع مرور الوقت، ساهمت العديد من العوامل في تسارعها.

كانت الهجرة المصرية، سواء الداخلية أو الخارجية انتقائية بطبيعتها، مرتبطة بالتعليم والخدمة العسكرية وغيرها من العوامل المحددة. وهذا لم تؤد إلى تضييق الفجوة بين الدولة والمدينة. بل على العكس، كانت اتسعت الفجوة، لأن الذين بقوا في القرى كانوا هم غير المهرة وغير المتعلمين. فأصيب المجتمع الريفي بكثير من الضرر. ومفهوم رحيل الشباب بأنه ليست هناك وسيلة كافية للقيام بهذا العمل وازداد الفقر نتيجة لذلك. وبالطبع كانت هناك بعض الفوائد مثل تدفق الأموال التي يحولها المهاجرون. وفي نفس الوقت، تأثر المجتمع الحضري سلبا بالازدحام والبطالة والإضافة في الجريمة، بالرغم أنه اكتسب قوة عاملة رخيصة.

مواجهة الريف والمدينة: وكان لهذه العملية المستمرة للهجرة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية تأثير مفحم على الريف. وقامت بجلب العالمين إلى المواجهة: الواحدة القديمة من القرية، والجديدة الأخرى من المدينة. والتأكيد على الفرق الكبير بين الاثنين، وتوسيع الفجوة التي تفصل بينهما. وغالبا ما يتم التعامل مع هذا الموضوع في الروايات الريفية، ويتم التعبير عنه بوضوح في الصراع الداخلي لأبطال الريف المولودين الذين يتمزقون بين طريقتين للمعيشة. وإن الخيار النهائي هو دائما

لصالح المدينة. نحن نرى معالجة حسنة لهذا الصراع في "أيام الإنسان السبعة" لعبد الحكيم قاسم، التي نُشرت عام 1969م.

أدى تحول السكان المتعلمين إلى إيلاء المزيد من الاهتمام لما كان يحدث في الريف، و لحالة الفلاحين، وأصبح المثقفون أكثر مشاركين في أنشطة الفلاحين. وكانت تسمع أصوات في وقت مبكر أحيانا من الثلاثينات تدعو المتعلمين إلى الدفاع عن الفلاح، ولكن الإجابة في ذلك الوقت كانت محدودة. وتقول الكاتبة والناقدة "عائشة عبد الرحمن" : "إن المسؤولين والأثرياء والمتعلمين ذهبوا إلى إهمال الفلاح، وتعاملوا معه بالتحقير، وبالإضافة إلى الإذلال الذي لقيه في الميراث تحت طغيان الحكام وكانقد عانى في الأجيال السابقة."1

كان الأب هنري عيروط، المعلم الذي أسس مدارس في صعيد مصر، يكتب أيضًا في الثلاثينات، وكان هو يقول عن عدم اهتمام المثقفين بمشاكل الفلاحين، واشمئزازهم في اتخاذ موقف نيابة عنهم: "ولدينا هناك مهمة للمتعلمين ويجب أن يسئل، ماذا يفعلون لشعب بلدهم... والحقيقة هي أن هذه المجموعة المتعجرفة، والناس الذين يقفون، والتعليم، والظروف السهلة، أصبحوا يديرون ظهورهم لجماهير أرضهم، وأن يحفظوا لأنفسهم ثمار ذكاءهم، وتعليمهم، ومعرفتهم وثروتهم، يحفظونها للمغامرات السياسية وللأدب ولأوروبا. يمكنك أن تقول هذا الخلاعة، أو عدم الانتظام، أو الافتقار للوطنية كما تريد."2

1 . عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطئ)، سيد العزباء، قصة إمرءة خاطئة، دار المعارف، القاهرة، 1944م، ص: 45.
2 . عيروط، هنري، الفلاحون، ترجمة إلى العربية: محيى الدين اللبان ووليم داؤد مرقوس، مؤسسات الحلبي، القاهرة، ط8، 1968م، ص: 287.

فإن التغير الكبير في موقف المفكرين عما كان يحدث في الريف، والاعتراف بأهمية إيجاد حل لمشاكلها، لم يشعر به إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد ثورة 1952م. يمكن لنا أن نتبع هذا الوعي المتزايد في سلسلة من الدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها الباحثون من جامعتي القاهرة وعين شمس، وكذلك في البحوث الأدبية التي تتناول مكان الفلاح والريف في مختلف أنواع الأدب المصري.

الرواية الريفية بعد ثورة يوليو (في الستينات والسبعينات): ظهرت تطورات مهمة خلال هذه السنوات في شكل وهيكل الرواية السردية في اللغة العربية. ظلت الرواية المصرية مسيطرة، لكن ظهر الكتاب البارزون في بلدان أخرى أيضاً، مثل الطيب صالح السوداني، وحنا مينا السورية، ليلى بعلبكي اللبنانية، وجبرا إبراهيم جبرا الفلسطيني. تمت ثلاثة عوامل مركزية مشتركة لتحفيز التغييرات المدهشة التي حدثت خلال هذا الوقت.

تقبل مثير للرواية الأوروبية والأمريكية: العامل الأول كان تقبلا مثيرا إلى حد كبير للرواية الأوروبية والأمريكية، وكان تأثير كامو، وفولكنر، وولف، وجويس، وبروست ملحوظا بشكل خاص. أثرت معرفة الكتاب المصريين بنظرائهم الأجانب على بناء وتقنية عملهم الخاص بشكل كبير، خاصة في الاستخدام الذي صنعوه من "تيار الوعي".

قراءة عامة أكثر تعقيدا: كان العامل الثاني هو قراءة عامة أكثر تعقيدا، حيث كان بإمكانهم كتابة الروايات التي تلتزم بالمعايير الأكثر تعقيدا: الجمهور الذين دعوا إلى التحسين المستمر في الجودة، خاصة في الأسلوب والتقنية.

الاستعداد والوعي للناشرين ومحرري الدوريات: وكان العامل الثالث هو الاستعداد والوعي الأكبر بكثير للناشرين ومحرري الدوريات الذين نشروا وقاموا بترويج الرواية والأشكال الأدبية الأخرى. كان من رواد الكتاب في هذه الفترة أيضا هم نجيب محفوظ في "اللص والكلاب" (1961م)، وفتحي غانم في "الرجل الذي فقد ظله" (1962م)، ونوال السعداوي في "مذكرات طبيبة" (1965م)، وعبد الحكيم قاسم في "أيام الإنسان السبعة" (1969م).

القمع والاستبداد: تبلور النظام السياسي والاجتماعي الجديد في الستينيات واستقر، ومع ذلك بقيت آثار النظام القديم تهدد من وقت لآخر هذا الاستقرار الظاهر. ينعكس القمع سريعا وقويا بشكل عام مرة أخرى في الأدب. كان قد قتل ممثل الاتحاد الاشتراكي العربي لأسباب سياسية في مايو 1966م، في قرية "كمشيش" في منطقة المنوطية. وأدى هذا الحدث إلى جهود مكثفة من جانب الحكومة لقمع بقايا الإقطاعية في مصر. وهذا القتل شكل خلفية "الفلاح" للشرقاوي الذي نُشر عام 1968م.

تأثير أحداث السبعينات على الرواية الريفية: انعطفت التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في السبعينيات إلى الخارج، مما أثر على مكانة مصر في العالم وبين الدول العربية. وتقوم هذه الأحداث بتوفير خلفية لعدة الروايات الريفية، من أهمها "في الأسبوع سبعة أيام" (1975م)، و"الحرب في بر مصر" (1978م) التي كتبت في سياق حرب أكتوبر بين مصر وإسرائيل، و"يحدث في مصر الآن" (1977م) التي تتناول زيارة رئيس الولايات المتحدة نيكسون إلى مصر كربط لتعليق

القصة. والروايات الثلاثة كلها ليوسف القائد، حيث أن المراجع والأصداء واسعة النطاق، وتظل الشخصيات الرئيسية والأحداث مرتبطة بالريف.

الرواية الريفية من الثمانينات فصاعدا: لا تزال مصر تسيطر على الرواية العربية كما هو الحال في الأشكال الأدبية الأخرى، مثل القصة القصيرة والمسرحية. وبالرغم من ذلك، إن انتشار الرواية إلى بقية العالم الناطق بالعربية هو أمر مدهش. أما الكتاب، فهم المصريون أو غيرهم الذين ولد معظمهم في الأربعينيات والخمسينيات، هم من خريجي الجامعات. وكان العديد منهم يعملون في المكاتب الحكومية والجامعات والمدارس. إنهم يدركون جيدا الأفكار الأدبية والفلسفية الحديثة ويهتمون بشكل خاص بالوجودية، والرومانية الجديدة والواقعية الرائعة. إن تأثير الأدباء مثل كامو، روب غريليت، بريشت وغاسيا ماركيز على فهمهم الفلسفي والفني قوي جدا. أصبحت كتابة المؤلفين المصريين أكثر اقتصاديا، والرومانية الواقعية قد فُقدت. الموضوعات المركزية هى مشاكل وجودية، وعزلة اجتماعية وانتقادات سياسية في هذه الفترة.

تم التأكيد على الميل الذي ظهر في الستينات من التركيز على الفرد كشخص وحيد يواجه الصعوبات وضيق الحياة الحديثة. تجري المواجهة مع المجتمع في المدينة بدلا من ذلك في القرية، على الرغم من عدم استبعاد القرية. يعكس الانتقال في التركيز من المجتمع إلى الفرد واقعيا اجتماعيا وثقافيا جديدا. وهكذا، فإن الواقعية التي تهيمن على أدب الخمسينيات وبداية الستينيات قد تم دفعها جانبا لصالح هذه الاتجاهات الجديدة. تشهد مصر، مثل العالم العربي بشكل عام تغيرات مهمة، على حد سواء سياسية (تراجع العروبة، وانحدار الناصرية)، واقتصادية (التصنيع على

حساب الزراعة، والسياسات مفتوحة الباب)، واجتماعية (التحضر السريع، وتيرة الحياة، والإقصاء الفردي، والقطبية الاجتماعية والدينية والتغريب الحضري المتزامن مع العودة إلى الجذور الإسلامية). ونتيجة لهذه العمليات، تظهر الأدبيات وخاصة الرواية أقل اهتمامات اجتماعية تركيزا على الفرد.

الكتاب البارزون في هذه الفترة هم محمد يوسف القعيد، وإبراهيم عبد المجيد الذي كتب عدة روايات، أشهرها "الصياد واليمامة" عام 1985م. وفي نفس الوقت كان هناك انخفاض في مكانة وأهمية الرواية الريفية. وممثلها الرائد في الوقت الحاضر هو "يوسف القعيد"، الذي نشر عدة من الروايات، وحقيقة أنه بدأ في كتابة المزيد من الكتب مع إعداد المدينة في غضون الثمانينات وهذا يوضح مناوبته في الاهتمام. وقد كتب بعض الكتاب أيضا رواية أو روايتين عن الريف بعد عام 1985م أي في التسعينات والقرن الحادي والعشرين، من أهمم بهاء طاهر في "خالتي صفية والدير" عام 1991م، والدكتور مرعي المدكور في "يوم الزينة" عام 2010م على سبيل المثال.

الفصل الثالث

نبذة عن أهم الروايات الريفية المصرية

يتضح مما سبق أن معظم الكتاب كتبوا رواية واحدة على الأقل عن الفلاح أو عن قريته، ولكن هذا من الصعب تحديد جميع الكتاب الذين كتبوا روايات ريفية فقط. لأننا نجد أن الرواية الريفية لا تشكل مجموعة من الكتاب، ولا نوعا أدبيا، أو نوعا فرعيا من الأدب المصري، بل تشكل مجموعة من الروايات التي تستخدم القرية كوضع وموضوع لها. وقد كتبت في مصر العديد من الروايات على مدار القرن العشرين لها أوضاع ريفية. هنا نذكر أسماء الروايات الريفية مع إلقاء الضوء على أهمها.

فهرس الروايات الريفية المصرية:

- "الفتى الريفي"، و" الفتاة الريفية" لمحمود خيرت المدرس، 1902م.
- "عذراء دانشواي" لمحمود طاهر حقي، 1906م.
- "زينب: مناظر وأخلاق ريفية" لمحمد حسين هيكل، 1914م.
- "إبراهيم الكاتب" لإبراهيم عبد القادر المازنى، 1931م.
- "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم، 1937م.
- "سيد العزباء، قصة إمرأة خاطئة" لعائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، 1944م.
- " القاهرة الجديدة" لنجيب محفوظ، 1945م.

- " أزهار الشوك" لمحمد فريد أبو حديد، 1948م.
- "بعد الغروب" لمحمد عبدالحليم عبدالله، 1949م.
- "أنا الشعب" لمحمد فريد أبو حديد، 1953م.
- "الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوي، 1954م.
- "صح النوم" ليحيى حقي، 1955م.
- " أيام الطفولة" لإبراهيم عبد الحكيم، 1955م.
- "هارب من الأيام" لثروت أباظة، 1957م.
- "قلوب خالية" لعبد الرحمن الشرقاوي، 1957م.
- "أهلاً و سهلاً" لحسين مؤنس، 1958م.
- "الحرام" ليوسف إدريس، 1959م.
- "الساقية، الضحية" لعبد المنعم الصاوي، 1962م.
- " أبو مندور" لمحمد ذكي عبد القادر، 1963م.
- " الجنة العذراء" لمحمد عبدالحليم عبدالله، 1963م.
- "العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح" لويس عوض، 1966م.
- "دم ابن يعقوب" لشوقي عبد الحكيم، 1967م.
- "الحب و الجدار الأسود" لرزق عمار، 1967م.
- " شيء من الخوف" لثروت أباظة، 1967م.

- " الساقية، الرحيل" لعبد المنعم الصاوي، 1967م.
- "ميرا مار" لنجيب محفوظ، 1967م.
- " الفلاح" لعبد الرحمن الشرقاوي، 1968م.
- "الساقية، النصيب" لعبد المنعم الصاوي، 1968م.
- "أيام الإنسان السبعة" لعبد الحكيم قاسم، 1969م.
- "الحداد" لمحمد يوسف القعيد، 1969م.
- " أخبار عزبة المنيسي" لمحمد يوسف القعيد، 1969م.
- " الساقية، التوبة" لعبد المنعم الصاوي، 1970م.
- "الصوت والصدى" لأمين الأيوبي، 1970م.
- "الخوف" لعبد الفتاح الجمل، 1972م.
- "أصوات" لسليمان فياض، 1972م.
- "ضد مجهول" أبو المعاطي أبو النجا، 1974م.
- " أيام الجفاف" لمحمد يوسف القعيد، 1974م.
- " البيات الشتوي" لمحمد يوسف القعيد، 1974م.
- "العشق" لحسن محسب، 1976م.
- "البحث عن بندقية" لعبد الستار خليف، 1978م.
- "الملح" لضياء الشرقاوي، 1980م.

- " المسافرون" لعبد الستار خليف، 1982م.
- " الأبناء الأسير المر"لعبد الستار خليف، 1985م.
- "خالتي صفية والدير" لبهاء طاهر، 1991م.
- "يوم الزينة" للدكتور مرعي المدكور، 2010م.

إن ثلاث روايات من بين هذه الروايات يمكن أن تعتبر روايات رئيسية ونماذج لهذه المجموعة من الرواية الريفية الأخرى، وهي رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل عام 1914م، ورواية" الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوي عام 1954م، ورواية "يحدث في مصر الآن" لمحمد يوسف القعيد عام 1977م. لأن رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل تمثل نكتة بداية للرواية الريفية والفترة الرومانسية فى مصر، ورواية "الأرض" للشرقاوي هي نتاج للواقعية ولا سيما الواقعية الاجتماعية فى فترة عبد الناصر، وأن روايات يوسف القعيد وخاصة روايته "يحدث فى مصر الآن" أيضا مهمة جدا فى تاريخ الرواية العربية الريفية لأنها تحمل مكانة مرموقة فى تطور الرواية الريفية فى مصر فى مرحلة ما بعد نجيب محفوظ.

رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل، عام 1914م:

تعتبر رواية "زينب" بإجماع النقاد أول رواية فنية في تاريخ الأدب العربي، كما يقول يحيى حقي: "إن مكانة قصة زينب لا ترجع فحسب إلى أنها أول القصص في أدبنا الحديث، بل إنها لا تزال إلى اليوم أفضل القصص، في وصف الريف وصفا مستوعبا شاملا".1 ويقول الأستاذ حمدي السكوت: "إن التاريخ الحقيقي للرواية

1 . حقي، يحيى، فجر القصة المصرية مع ست دراسات أخرى من نفس المهام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1987م، ص: 48.

العربية بالمعنى الدقيق للكلمة إنما يبدأ بعام 1913م حين ظهرت رواية "زينب" محمد حسين هيكل".1 وقد كان عنوانها كما كتب ووقع هيكل: "زينب، مناظر وأخلاق ريفية بقلم مصري فلاح"، هذا يشير إلى أهم جوانب الرواية ومضامين نصوصها بشكل عام. فنجد أن الحنين المشبوب إلى الريف المصري هو الذي دفع هيكل إلى كتابة "زينب" لأنه كتبها في الغربة بين باريس وسويسرا، وأهدى هذا العمل إلى مصر وأخته حيث كلمات الإهداء تقول: "إلى مصر، إلى هذه الطبيعة الهادئة المتشابهة اللذيذة، إلى هؤلاء الذين أحببت، وأحب، إلى بلاد بها ولها عشت وأموت".2

الموضوع الأساسي للرواية هو وصف الريف بطبيعته، وعاداته وأخلاقه مع التركيز على موضوع الحب والزواج، وذلك من خلال الحديث عن إحدى العاملات في الفلاحة "زينب"، هي التي يتم تزويجها لحسن، ولكنها لم تقنع إطلاقا بهذا الزواج، فقد أحبت رجلا آخر هو إبراهيم الذي يسافر لأداء الخدمة الوطنية العسكرية. وفي الرواية حديث عن حامد الذي أحب إبنة عمه عزيزة لكنه لم يظفر بها، كما لم يظفر بزينب، فتأزم وضعه واختفى من الحياة العامة، أما زينب، فتمرض بمرض السل وتموت في نهاية الرواية، وقبيل موتها توصي أمها بعدم تزويج أختها غصبا عنهم وتحمل الأبوين مسؤولية ما هي فيه "بدي أموت قريب وكله من تحت إيديكو، فظلت أعيط وأقولك يا أمه ما بديش أجوز تقولي كل الناس أبوهم بيجوزهم على غير كيفهم، وبعدين يصبحوا ويجيزانهم زي العسل. أديني يا جوزي زي العسل ما قلتش حاجة. ولكن أديني حاموت، يا أمه ووصيتك وإخوتي لما يتجوزوا يتجوزوا حد منهم ما تجوزه

1. المرجع السابق، ص: 25.
2. هيكل، محمد حسين، زينب، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة، 1992م، ص: 3.

مش غضب عنهم لحسن دا حرام".1 لايختلف الإثنان في أن رواية "زينب" تتميز باستطراد السرد وقلة الحفاوة بالحوار وإقامة القصة على عمود الحب والدوران حوله في المجتمع المصري في طبقتي الفلاحين والإقطاعيين، وتُعتبر رواية "زينب" أول رواية اجتماعية تشرح حياة الريف المصري وعاداته ومعيشته.

رواية "الأرض" لعبدالرحمن الشرقاوي، عام 1954م:

ولد عبد الرحمن الشرقاوي في 10 نوفمبر عام 1910م بقرية الدلاتون بمحافظة المنوفية، وتوفّي في اليوم والشهر نفسه عام 1987م. بدأ تعليمه في كتاب القرية ثم انتقل إلى المدارس الحكومية حتى تخرّج في كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول عام 1943م. بدأ حياته العملية بالمحاماة لكنه هجرها لأنه أراد أن يصبح كاتبا، فعمل بالصحافة في مجلة الطليعة في البداية، ثم مجلة الفجر وعمل بعد ثورة يوليو عام 1952م في صحيفة الشعب ثم صحيفة الجمهورية ثم شغل منصب رئيس تحرير في صحيفة "روز اليوسف" وعمل بعدها في جريدة "الأهرام" كما تولّى عدداً من المناصب الأخرى منها سكرتير منظّمة التضامن الآسيوي الأفريقي، وأمانة المجلس الأعلى للفنون والآداب.

تبدأ الرواية بقصة لعبة الفرح والتي دبّرتها فتاة تسمّى "وصيفة" مع بنات وأولاد القرية واقترحت فيها "وصيفة" أن تكون هي العروسة في هذه اللعبة ثم اختارت فتاة لدور الداية أمّا العريس فاختارت الراوي، غير أنّ هذه اللعبة لم تتمّ لأنّ الشيخ الشناوي وهو الرجل الديني في القرية دخل فجأة وشتم العروس والعريس وطردهما من المصلّي. ثم تدخل الرواية في مسار آخر وتعرض قصة الفلاحين يناضلون الإقطاع

1. نفس المصدر، ص: 285.

والحكومة من أجل الأرض والماء. اشتعل فتيل الأزمة بين الفلاحين والحكومة بسبب تقصير عدد أيام الريّ. إنّ رجال الهندسة حذّروا الريفيين بأنّ عدد أيام الريّ أصبحت خمسة أيام بدلا من عشرة أيام وهذا ما لا يقبله الريفيون ويتورّطون بسبب ذلك في اشتباكات عنيفة مع رجال الحكومة، وعبد الهادي بطل القرية، أوّل من اشتهر لسانه متحدّيا ومعارضا هذه المبادرةَ من الحكومة.

دخلت القرية في الأزمة بعد هذا القرار الذي أصدرته الحكومة وتضاربت الآراء حول إيجاد حلّ ملائم، واقترح محمد أفندي وهو المدرّس الإلزامي أن يكتب عريضة إلى وزير الأشغال وقال إنّ محمود بك باعتباره نائب الحكومة يستطيع أن يحملها إليه فهو من معارفه وكتب محمد أفندي عريضة وإن اعترض محمد أبو سويلم باعتباره رئيس الخفراء السابق، ثم ذهب به إلى العمدة وهو أستاذ الخداع لكي يقدّمه لمحمود بك ولكن حينما رأي محمود بك العريضة، جنّ جنونه وشتم العمدة وأهل القرية، وقال إنّ العريضة شديدة اللهجة وهو يكتب بنفسه عريضة أخري. كتب محمود بك عريضة أخري بنفسه ولكن لم يشِر فيها إلى تعديل نظام الريّ الزراعي بل جاء فيها موافقة أهل القرية على الطريق الزراعي لأنّ الباشا بدأ يتمّم بناء قصره الكبير ويحتاج إلى دعم الحكومة، فإنّه يريد أن يشقّ الطريق الزراعي من أراضي الفلاحين الذين يرفضون هذه الفكرة.

وأمر العمدة الخفراء أن يذهبوا بالورقة التي عاد بها من عند محمود بك إلى أهل القرية لكي يجمعوا أصابعهم وأختامهم عليها، ووضع جميع أهل القرية أختامهم على العريضة الجديدة إلّا "محمد أبوسويلم" و"محمد أفندي" و"دياب"، وبهذا دخلت القرية في أزمة أخرى وهي الطريق الزراعيّ وسيطرت حالة من الحزن والأسي على

القرية بعد أن عرفوا أنّ العمدة استغلّ سذاجتهم وخدعهم مرة أخري فهم أجمعوا على المقاومة والنضال حتي الرمق الأخير. ورغم إنذار الحكومة وتهديد محمود بک فقد كان الفلاحون قطعوا الجسر ورووا أرضهم ولم تقف الحكومة مكتوفة الأيدي أمامهم بل اعتقلت كثيرا من رجال القرية من بينهم محمد أبو سويلم، وعبدالهادي، ودياب بسبب قطع الجسر، فسيطرت مسحة من الحزن والألم والكآبة على القرية.

ولكن تم الإفراج عن المعتقلين وعادوا إلى القرية إلّا أنّ رجال القرية لم يستسلموا وقرّروا على مواصلة النضال فهم تسلّلوا إلى الترعة وقذفوا الحديد في الماء، وبعد هذا أرسلت الحكومة رجال الهجانة إلى القرية وهم هبطوا بالكرابيج وانهالوا ضربا على الفلاحين وأمروهم بالرجوع إلى الدور وأخذ رجال الزراعة يقومون بحفر الحقل في أراضي القرية خاصّة أرض محمد أبو سويلم، وحينما اعترض محمد أبو سويلم، هوي رئيس الهجانة على وجهه بكفّ وأمر العساكر أن يحبسوه هو ومن معه من الرجال من عبدالهادي، ودياب، وعلواني في غرفة التليفون بدوار العمدة، وتنتهي الرواية بعودة الراوي إلى مصر لتكميل دراساته الثانوية، ونحن لا ندري هل تمّ الإفراج عن المعتقلين أم لا؟ وهل انتهى مشروع الطريق الزراعيّ واستسلم أهل القرية أمام قوّات الحكومة أم لم ينته ولم يستسلم الناس؟

تعرض رواية "الأرض" قصة فلاحي إحدي القرى المصرية يناضلون الإقطاع والحكومة من أجل الأرض والماء، وتحكي لنا الرواية عهد صدقي في مصر وما يعانيه النّاس من القتل، والفقر والنفي بسبب إلغاء الدستور على يد إسماعيل صدقي "وفي تلك الأيام كانت القاهرة لا تهدأ أبدا وكنت أعرف من أحاديث إخوتي الكبار ومن الجرائد التي يحملونها أنّ رجلا اسمه صدقي يحكم مصر بالحديد والنّار بعد أن

ألغي الدستور لحساب الإنجليز وكنت أراه يطلق في القاهرة جنود الإنجليز حمر الوجوه ليحملوا له سلطانه".1 كما نري عبدالهادي بطل القرية يصبّ جام غضبه على حزب الشعب الذي يدافع عنه الباشا وأعوانه في القرية "يا جدع دي الحكومة حكومتهم، والكلمة كلمتهم، دا الباشا في حزب الشعب اللي ماسک البرّ وحارقة بولعة. الله!! خبر إيه يا علواني مش تأخذ بالک".2

تتحدّث رواية "الأرض" عن التمييز الطبقي الذي تعاني منه القري المصرية مثل بقية قري الشرق الأوسط وهذا ما تصوّره "وصيفة" في الرواية قائلة: "فعلواني وشيخ البلد الذي يشغله وحتي العمدة نفسه لا يساوون في البندر شيئا وقد حدّثها زوج أختها أنّه رأي المأمور الذي يهزّ الدنيا يرتجف أمام الحكمدار ورأي الحكمدار يرتجف أمام المدير ورأي المدير يقبّل يد وزير كان في زيارة مدرسة الزراعة بعاصمة الإقليم".3

لقد أثارت "الأرض" إبّان صدورها ضجيجا لصراحة تعبيرها عن المجتمع الجديد المتنامي وإدانتها لمصادر الإحباط والفساد في الماضي والحاضر وساعدت على تكوين تيار جديد في فنّ الرواية العربية هو الواقعي الاشتراكي. إنّ الشرقاوي في "الأرض" يعيش صراعا مؤلما بين ما يشاهده من قسوة الحياة في الريف وما يري أن يبشّر به من ثقة في المستقبل "لكن مع هذا الجوّ المفجع والمؤسف، نري بوارق الأمل، لأنّ التقارب يحدث بين تلميذ "طلعت" وهو من الغرابوة وصبي راغب في تعلّم

1 . الشرقاوي، عبد الرحمن، الأرض، دار الشروق للنشر، القاهرة، مصر، 2017م، ص: 14.
2 . نفس المصدر، ص: 52.
3 . نفس المصدر، ص: 37.

القراءة من أهل القرية وهذا ما نراه في "شجرة البؤس" لطه حسين، و"ميرامار" لنجيب محفوظ، و"الأرض" للشرقاوي.

رواية "يحدث في مصر الآن" ليوسف القعيد، عام 1977م:

ظهرت رواية "يحدث في مصر الآن" عام 1977م. واتخذ القعيد زيارة الرئيس الأمريكي نيكسون لمصر سنة 1974م. هذه الرواية أيضًا تدور حول جريمة قتل ثم ما يتبعها من تحقيقات مثل رواياته الأخرى، غير أن المقتول هنا ليس شخصا وإنما هي وثيقة رسمية. والملامح الريفية في الرواية تتبلور في عدة صور منها: إن مسرح الأحداث الروائي هو قرية من قرى الدلتا، أي بيئة الروائي المحلية الخاصة. ومن القضايا الريفية الصراع والتمايز الطبقي بين الفقراء المصريين المضطهدين، والأغنياء القادرين على استغلال الفرص، خاصة لدى توزيع المعونة الأمريكية وفق هواهم. ومن أبرز الملامح الروائية عند القعيد أنه دائمًا يقدم ضروب التعارض الاجتماعي؛ حيث يضع الأغنياء مقابل الفقراء، والنافذين مقابل البعيدين عن كل نفوذ، والقرية مقابل المدينة، وهكذا... وبالتالي يمكننا الاطلاق على الرواية بأنها وثيقة من وثائق النقد الاجتماعي. والرواية تبحث عن القضايا الاجتماعية في الثمانينيات وبالتحديد قرب 1974م.

رواية "الحرب في برّ مصر" ليوسف القعيد، عام 1975م:

كتبت هذه الرواية عام 1975م، غير أنها لم تصدر إلا في عام 1978م. هذه رواية أخرى للقعيد تبتدأ بمقتل أحد الفلاحين وما يتلوه من تحقيق. وإطار الرواية الزمني يشكل زمن حرب 1973م. وتقوم حبكة الرواية على الاستغلال الطبقي، حيث يقرر على ابن عمدة القرية أن يرسل ابنه إلى الجندية، وهو لايحب ذلك. فقام العمدة

بعملية انتحال شخصية مكانه، حيث يُقنع خفيرًا أن يرسل ابنه إلى الجندية مكان ابن العمدة، ولكن ينفضح الأمر عندما يستشهد ابن الخفير في المعركة ويُعاد جثته إلى القرية! وبعد افتضاح المكيدة يبدأ التحقيق، ولكن قبل وصول المحقق والمفتش إلى نتيجة حاسمة، يُستدعى المحقق للمثول أمام موظف كبيرٍ في القاهرة، وهو يأمر المحقق لقفل القضية. طبعًا حاول الروائي أن يكشف عن السياسات المحلية غير النظيفة التي يمارسها القادرون على استغلال الفرص من أهل القرية، خاصة الأغنياء، وأصحاب السلطة من أهل العمدة، وحاشيته. تدور أحداث الرواية خارج البيئة الريفية غير أن الشخصية الرئيسية يتمثل في شاب قروي، وتجري التحقيقات فيها، ومعظم الشخصيات الروائية تنتمي إلى القرية. والقصة تقدم في أسلوب رمزي، لكن الرمز هنا واضح. يقول بول ستاركي عن هذه الرواية والملامح الريفية:

"ومفادها أنَّ مصري، الفلاح المصري المظلوم والرازح تحت رحمة فئات اجتماعية أخرى، لا يُتَاح له أيما إتاحة أن يقرر مصيره. ومما يعطي لهذا العنصر الرمزي وزناً إضافياً أنَّ ما من شخصية من الشخصيات الأساسية في الرواية تُسمَّى باسمها، بل يُنْظَر إليها كتمثيلٍ لفئاتٍ أخرى من المجتمع المصري أكثر منها شخصياتٍ بحدّ ذاتها"1.

فالفلاح المصري لم يتحرر بعد من الاستبعاد والاستغلال، وهو مظلوم، والقادر النافذ يحكم على الناس كما يشاء، وينفذ أمره حتى ولو على حساب خسارة الآخرين سواء أكانت مادية أم معنوية. ومن الناحية الفنية، تعتبر هذه الرواية من

---

1 . ستاركي، بول، من المقابر إلى ميدان التحرير دراسة في روايات يوسف القعيد (دراسة في أعمال القعيد)، ترجمة إلى العربية: ثائر ديب، منشورة على موقع منتديات ستار تايمز (أرشيف: أدباء وشعراء ومطبوعات)، بتاريخ: 2008/08/11م، بتوقيت: 01:52 صباحا، من خلال الرابط التالي:
(http://www.startimes.com/f.aspx?t=11358671).

أنضج الروايات الفنية للقعيد. فقد حازت الرواية المرتبة الأولى ضمن أفضل مائة رواية عربية، وحصل الروائي على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2008م خاصة بفضل هذه الرواية.

رواية "الأيام" لطه حسين، عام 1929م:

يعتبر الأستاذ طه حسين واحدا من أعلام الثقافة المصرية المعاصرة وذلك نظرا إلى جهوده الجادة في الأدب العربي وبفضل ما ساهم في تأسيسها وإغنائها بتقديم رواياته القيمة التي شكلت علامات متميزة في تاريخ الرواية العربية في مصر، وحظي طه حسين بشهرة واسعة ليس على الصعيدين المصري والعربي فحسب، بل على الصعيد العالمي أيضا فهو يعد من الرواد الروائيين الذين كتبوا أعمالهم باللغة العربية الفصحى ونشر طه حسين الجزء الأول من أيامه عام 1929م، والجزء الثاني1939م، وأديب عام 1935م، ويلتقي العملان في أنهما يقتربان كثيراً من روايات الترجمة الذاتية، وفي أنهما كذلك حاولا رصد حركة الوعي الثقافي التي بدأت في أوائل هذا القرن من خلال تمرد العقليّة الأزهريّة على جمودها المستسلم، وقد حاول العملان تقديم صورة تسجيليّة للمجتمع المصري خاصة في الريف آنذاك في نشاطاته العامة والخاصة.1

قام طه حسين بإخراج كتابه "الأيام" وهو يحس بأنّه يعيش حياة بائسة، يسيطر عليها طابع بارز، هو طابع الحرمان، وكان العامل المباشر الذي جعل من الحرمان اللون البارز الذي يلون حياته يتمثل في جهل بيئته وفقرها، هذه البيئة التي تعيش حياة غيبية لا تعترف بالعلم الحديث، ولا تستطيع أن تمنح الطفل الحنان الذي

1. نفس المرجع ونفس الرابط، ص: 41.

يرطب حياته، ولا الطبيب الذي يعالجه ولا التربية الصالحة التي تشفي جراح نفسه، والتقى في باريس بالسيدة التي منحته بعض العزاء وعوضته عن الحرمان".1

كتاب "الأيام" لا يمثل المحاولة الوحيدة التي ساهم بها الدكتور طه حسين في ميدان الرواية في فترة ما بين الحربين، فقد قدّم لنا المؤلف في نفس الفترة المحاولة الثانية في كتابه "أديب" ليكون حلقة الاتصال التي تربط بين الأيام في جزأيها الأول والثاني، وبين الأيام في جزئها الثالث.2

رواية "القاهرة الجديدة" لنجيب محفوظ، عام 1945م:

هي أول رواية تدور أحداثها في فلك واقعي اجتماعي، كتبها نجيب محفوظ في الفترة مابين 1938–1939م ولكن لم تنشر إلا في سنة 1945م. محجوب عبد الدايم يمثل شخصية رئيسية لهذه الرواية، وهو شاب من أسرة ريفية فقيرة تمت ثقافته في الجامعة وحصل على شهادة الليسانس في الآداب. وأبواه الطيبان الجاهلان قاما بكل وسعهما لتربيته وتنشيئته وتعليمه، إلا أن من أجل جهلهما لم يحسنا تربيته فشبّ الطفل وبلغ 24 سنة من عمره، مع فساد وانتهازية، سريع الانفعال والغضب، يغلب على عواطفه الحقد والبغض، وهو فوق كل ذلك أناني، شهواني وطموح إلى حد الجشع ... ومهما يكن من أمر من فساده الشخصي، هو مثقف، حامل شهادة الليسانس في الآداب، لكنه لايجد وظيفة يرتزق منها رغم جهوده المتتالية، فيقترح صديق له إذا تزوج من سُوِيَة لأحد الوزراء والذي إسمه قاسم بك فهمي، أمكنه أن يصبح سكريترًا له، فيقبل الاقتراح ويعقد قرانه مع "إحسان شحاته" خليلة الوزير،

1. هيكل، أحمد، تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، مصر، 1983م، ص: 305.
2. المرجع نفسه: ص317.

لتمارس هي علاقتها غير الشرعية مع خليلها الوزير بعد الحصول على ستار، يستر علاقتهما الفاحشة، وبعد هذا الزواج الشكلي يجد الوظيفة ويصبح سكريترًا في مكتب الوزير، يأتي الوزير ويضاجع مع زوجته، وهو يعرف كل مايجري فيما بينهما....1

وتعكس هذه الرواية صورة نظام اجتماعي متدهور من أجل الفقر والرشوة، والأثرة، والفساد الخلقي، والبطالة، وتنافس طبقي مرير، لا يستطيع الإنسان مهما كانت ثقافته أن يجد الوظيفة بدون أن يدفع أثمن ما في يده... وهو كرامته وشرفه. والقاهرة الجديدة هي الصورة الأصلية للوضع القائم آنذاك، ويعم هذا الفساد في المدينة المصرية والريف المصري كليهما، ببعض الفوارق، العبثية والسعي وراء المادة على أي حساب من ديدن القروي المصري، في حين الانتهازية والاستغلال من ديدن المدني.

وفي رواية "ميرامار" اختار نجيب محفوظ شخصية ريفية "زهرة"، وهي الرواية الوحيدة التي تضمنت شخصية نسائية ريفية، والتي فرت هاربة إلى المدينة من أبيها الذي يريد تزويجها لعجوز. وهذه الفتاة الريفية تمثل شعلة الأمل الوحيدة في رواية تفض بالإحباط، والانحراف الخلقي، والسياسي، والاجتماعي2.

رواية "الحرام" ليوسف إدريس، عام 1959م:

اهتم يوسف إدريس في رواياته بحياة الفقراء في المدينة والريف؛ ففي روايته "الحرام" (1959م) رسم يوسف إدريس صورة نابضة بالحياة لقرية مصرية تتعرض لهزّات الشكوك والأحقاد التي تتلاشى مع تطبيق قانون الإصلاح الزراعي؛ فيشهد

1 . عطاء الله، التفسير الاشتراكي للأدب العربي القصصي المصري، دراسة تحليلية، مركز الثقافة الدينية والفنية، مهراج غنج، يوبي، الهند، 2016م، ص: 204-205.
2 . عبدالله، محمد حسن، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م، ص: 89.

الفلاحون تغيّرًا في حياتهم اليومية. وفي رواية "العيب" (1962م) يناقش الخطيئة كثمرة لمجتمع المدينة، والأسر الفقيرة على وجه خاص1.

يقول الدكتور أحمد هيكل بأنه "اشتراكي يعالج هموم الطبقات الكادحة".2 ينتقد على الاضطهادات الاجتماعية مهما كان مصدرها؛ الاحتلال، أو الإقطاعية، أو الرأسمالية، أو النظام الطبقي، ويستهدف القضاء على كل أسباب الفقر والتعاسة، ويمجد العاملين، ويسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية، ويرى أن الجماعة ككل هي التي تقوم بالكفاح الحقيقي لأجل هذه العدالة.

وأما روايته "الحرام" (1959م)، يعالج هموم الفلاحين والقرويين إذ اختار الروائي موضوعه من مرحلة تاريخية سوداء من تاريخ مصر، وهو زمن الإقطاعية والنظام الروتيني في مصر. وقصة الرواية حدثت مع "عزيزة " امرأة ترحيلية تعمل في حقل أحد ملاك الأرض لتحصل على زر بطاطا، يشتهيه زوجها المريض، إذ تفاجأ بإبن صاحب الأرض يريد اغتصابها، ولكنها قاومته في المرة الأولى لكنها فشلت في النهاية فاستسلمت لضعفها وعدم التمكن من الهرب أو لسبب آخر مع هذا السبب، هو لرغبتها في الجنس، لأن زوجها كان مريضًا، لم يمارس الجنس معها منذ أيام3 وحملت منه، وجنت، لكنها ألقت جنينها في حقل... ومن سوء حظها يعثر خفير التفتيش، ويجزم أهل التفتيش بأن الخاطئة يجب أن تكون من العاملات الترحيلية، ولكن من خلال المناقشة ساورت الشكوك في نساء أهل التفيش أيضًا، حتى جعل مسيحة أفندي يشك في ابنته وزوجته، إلى أن تبين الواقع، عندما سقطت "عزيزة" في

1 . كامبل، روبرت، أعلام الأدب العربي المعاصر، سير وسير ذاتية، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، لبنان، بيروت، 1996م، ص 84.
2 . القط، عبدالحميد، يوسف إدريس والفن القصصي، دار المعارف، 1980م، ص 131.
3 . السكوت، حمدي، الرواية العربية- ببليوغرافيا ومدخل نقدي، قسم النشر بالجامعة الأمريكية، 2000م، ص84.

الحقل أثناء العمل، وهي مصابة بحمى النفاس، فانكشفت أنها هي أم اللقيط، والتي اعترفت بحادثة الشرف هذا، وماتت بحمى النفس. وعندما انكشفت الحقيقة، تيقن مسيحة أفندي أن ابنته ليست هي أم اللقيط، كافأها بالسماح لها بزيارة زوجة المؤذن، وابنته كانت تذهب للقاء فتى التفتيش لإرواء غلائلها الجنسية. وفي نهاية القصة نجد أن الفتاة هربت معه.

هذه هي خلاصة الرواية ومن أهم دلالاتها من القضايا الريفية أنها تبحث عن:

- الصراع الطبقي؛ طبقة "أهل التفتيش"، وطبقة "العمال الترحيلية" ويستمر الصراع بين الحلال والحرام، وبين الغني والفقير، كما يدور الصراع بين الغرابوة وأهل العزبة.
- وامتهان الطبقة الكادحة واستغلالها.
- والفقر والبؤس هو رأس الفساد الاجتماعي.
- والتناقض الاجتماعي والفوارق الطبقية، فلم يكن فرد الترحيلية يلقي أدنى رعاية طبية، فلو وجد زوج عزيزة علاجًا أوليًا لما أقعده المرض، فلم تعرضت عزيزة بهذه الماسأة.
- الفساد العارم في الطبقة البورجوازية، والحاكمة؛ أنه يدير إبرة الشك نحو نساء العزبة ليثبت فكرته الاشتراكية ضد الطبقة المستغِلة.
- والنقد على ميزان الحلال والحرام؛ والروائي يحطم الميزان القديم؛ والذي يعني أن الجريمة إذا ارتكبها شخص من الطبقات الكبيرة البورجوازية فهي ليست بجريمة،

بل الجريمة هي ما تقترفه الطبقات المطحونة فحسب، وإن كانت الطبقة المضطهدة مضطرة عليها... فالحرام في رأيه هو "القانون الأخلاقي البورجوازي السائد في المجتمع" وإلقاء الجنين لقيطًا ميتًا، أو استسلام المرأة نفسها بعد المقاومة الأولى ليس هو الحرام. كما يقول الدكتور حمدي السكوت:

"أين الحرام إذن في رواية يوسف؟ أهو الظلم الاجتماعي والظروف القاسية التي تدفع بإمرأة مثل عزيزة إلى الخطيئة؟ أم هو القانون الأخلاقي السائد في المجتمع والذي يسمح لأهل التفتيش رجالًا ونساءً أن يمارسوا الرزيلة في الخفاء، ثم يمصمصون شفاهم عجبًا من زلة امرأة مثل عزيزة ؟ أم هو حقًا زلة عزيزة؟!"[1]

طبعًا زلة عزيزة ليست هو "الحرام" بل الحرام الذي قلناه. هذه الرواية أدانة للنظام الاجتماعي حيث لا حقوق أو ضمانات تؤدي للفلاح الأجير، بينما هو عماد هذا المجتمع.

رواية "الأوباش" لخيري الشلبي، عام 1978م:

هذه الرواية التي ظهرت عام 1978م تبحث عن عمال التراحيل. وتجرى أحداثها في قرية في شمالي الدلتا، وزمن السرد يتكون من عام 1950م. وعمال التراحيل هم "الغرابوة" الذين نزلوا إلى القرية بغية العمل، غير أنهم استحقوا ازدراء أهل القرية وضربات عصيهم. وفي الرواية الغرابوة مهانون، محقرون، ويفرحون بالمبيت في إسطبل الوسية، وهو مكان قذر لكنه خير من النوم على قارعة الطريق وفوق الأشجار. ويجري التشابك والشجار بين الغرابوة، وأهل القرية.

1 . المرجع السابق، ص: 84.

وفي الرواية تتجلى مشكلات الريف، فالغرابوة وأهل القرية كلهم ضحايا الفساد الإداري، والحرمان عن كرامة العيش. أهل القرية والغرابوة كلهم يبيتون في الأسطبل، ثم يقع عراك بينهم، وينهزم الغرابوة لأنهم الغرباء، وليس من حق هؤلاء الغرباء أن يرفعوا صوتًا أو عصًا، وينتج هذا الشجار أن يدفعهم أهل القرية إلى مكان آخر قرب منافذ الإسطبل. ثم يحاول الروائي التقريب بينهم1.

1 . عبدالله، محمد حسن، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م ص 89.

الباب الثانـي

القضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية فى روايات الريف المصري

الفصل الأول: نظرة عامة على القضايا الاجتماعية والسياسية الريفية المصرية

الفصل الثاني: القضايا الاجتماعية فى الرواية الريفية المصرية

الفصل الثالث: القضايا السياسية فى الرواية الريفية المصرية

الفصل الأول

نظرة عامة على القضايا الاجتماعية والسياسية الريفية المصرية

قد شهد المجتمع الريفي المصري في القرن العشرين تغييرات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية، وكان المجتمع يواجه بعض المشاكل الرئيسية التي انعكست في الرواية العربية بوضوح، فتعكس الرواية الريفية القضايا المتعلقة بعلم الاجتماع الثقافي في السياق المصري الحديث، إن أزمة الهوية الفردية والاجتماعية تم التعبير عنهما مرارا وتكرارا في الرواية العربية من خلال "الصراع" بين الفرد والمجتمع أو الصراع بين الريف والمدينة. ومن أهم القضايا التي انعكست في الرواية الريفية المصرية، قضية الفلاح ومشاكله وقتاله لحقوقه ضد الرأسمالية الريفية وقمع الدولة، وقضية الأرض، والدفاع عن الوطن، وتحرير البلاد من الاستعمار البريطاني، ومشكلة الهوية الوطنية المصرية والمساواة الاجتماعية، وقمع الحريات، والسجن السياسي بسبب النقد على الإجراءات الخاطئة للدولة، والفساد السياسي والإداري، والعنصرية الاجتماعية، واستغلال الفلاحين وما إلى ذلك. وفى السطور التالية، نركز على المباحث الأساسية للقضايا الاجتماعية والسياسية الريفية فى مصر من مكانة القرية، والأرض، والاتجاهات الأدبية فى مصر والبلدان العربية الأخرى وما إلى ذلك.

مكانة القرية المصرية فى الرواية الريفية: تحتل القرية المصرية مساحة كبيرة في خريطة فن القص والدراما، خاصة ما يرتبط فيها بالفن الروائي، انطلاقا من غلبة

البيئة الاجتماعية الريفية على البنية الأساسية للبيئة المصرية على إطلاقها. وليس أدل على ذلك من أن أول رواية مصرية ناضجة بمعناها الفني الحقيقي كانت عن القرية المصرية بشخوصها النمطية وهمومها الريفية، وهي رواية "زينب" للدكتور محمد حسين هيكل. كما وأن الذي مهد لهذه الرواية الرائدة، روايتان صدرتا عام 1905م للأديب محمود خيرت وهما "الفتى الريفي" و"الفتاة الريفية"، وهما وإن كان يغلب عليهما الطابع الترفيهي الوعظي، إلا إنهما كانتا تعبران عن عاطفة شباب الريف تجاه مشاكل الطبقية وما تجره من مآس وآلام. ولقد كانت القرية المصرية بتضاريسها الاجتماعية، وطموحاتها، واهتماماتها، والواقع المزري التي كانت ترزخ تحت وطأته عبر مساحة زمنية طويلة مصدر ثراء وإغناء لفن القص و الدراما والرواية في الأدب المعاصر فيما بعد. والمتتبع لفن الرواية منذ نشأته في مصر يجد أن القرية المصرية كانت مسرحا لكثير من الأعمال الروائية، أدار من خلالها كثير من الكتاب معظم أعمالهم السردية، متخذين مناخ القرية، وشخوصها، وعاداتها، وطبيعة العلاقات الدائرة فيها، وعناصر التكوين لهذا النوع من القص مسرحا لأعمالهم الروائية، بحيث أضاعت هذه الأعمال واقع الحياة، ووهجت لحظات التأزم، ومواقف الصراعات المتجددة على أديم القرية التي كانت تمثل بالضرورة المكان النموذجى والرمز لهذا النوع من الكتابة الروائية التي تمثلت واقع القرية، والريف المصرى بكل مكوناته، ومنحته حياة روائية أصلت وقائع وواقع ما يعيشه الفلاح المصري على الأرض، وما أعطته هذه الأرض من روح ومعاناة ومكابدة في سبيل المحافظة عليها باعتبارها تشكل جزءا من كيانه وهويته وانتمائه الحقيقي.

ومن أهم الأعمال الروائية التي ظهرت فيها طبيعة القرية، وما تحمله من ركامات السنين الطويلة، ودلالات الواقع الحي "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم، و"دعاء الكروان" لطه حسين، و"بعد الغروب" لمحمد عبد الحليم عبد الله، و"أبو مندور" لمحمد زكي عبد القادر، و"هارب من الأيام"، و"شيئ من الخوف" لثروت أباظة، و"الأرض"، و"الفلاح" لعبد الرحمن الشرقاوي، و"الحرب في بر مصر"، و"يحدث في مصر الآن"، و"البيات الشتوي" ليوسف القعيد، و"الحرام" و"العيب" ليوسف إدريس، و"الرجل والطريق" لسعد مكاوي، و"أيام الإنسان السبعة" لعبد الحكيم قاسم، وغيرهم كثيرون من الكتاب الذين رسموا واقع القرية، وجسدوا مسارح الأحداث فيها، وحددوا بوضوح من خلال منطق الفن لحظات أشبه ما تكون بالفيضان الجارف الذي يكتسح أمامه كل شئ.

فكانت القرية في روايات محمد مستجاب، وضياء الشرقاوى، وحسن محسب، ويحيي الطاهر عبد الله، وخيرى شلبى، وأحمد الشيخ، وزهير الشايب، وأبو المعاطي أبو النجا وغيرهم في النبع الذي انغمس فيه هؤلاء المبدعون، ليصوروا الريف المصري بحدة تناقضاته وقسوة مأسيه، وصعوبة الحياة فيه، وموقع الإنسان المصري على أديمه وموقع الإقطاع والسلطة فوق صدر هذا الإنسان من خلال البيئة الاجتماعية والاقتصادية والتسلط والقمع والقهر الحاصل على مر السنين، وفي كل شبر يسير فيه الإنسان المصري.

مكانة الأرض في الرواية الريفية: تعتبر قضية الأرض من الشواغل الأساسية للرواية العربية، حيث اكتسبت العناية بالفلاح والحياة الريفية مكانة مهمة في الفكر العربي عامة والأدبي على وجه الخصوص بداية من القرن العشرين للسببين؛ أولا بنية

المجتمع العربي الذي يشكل الفلاحون الأغلبية واقع السلم الطبقي فيه، وثانيا انتماء معظم الروائيين العرب إلى أصول ريفية، حيث لجأ الكتاب إلى طرح هذه القضية من زوايا ورؤىً متعددة ومتنوعة، تعكس الروح الريفية المنتشرة في دواخل هؤلاء الكتاب، سواء كانوا ينحدرون من أصول ريفية، أو عاشوا قسطا من حياتهم في الريف، أو الذين خاضوا تفاصيله عبر مرصد مراقبة خارجي.

الاتجاهات الأدبية فى الرواية الريفية المصرية: وعلى الرغم من غلبة الاتجاه الرومانسي على بدايات تلك الأعمال، إن الواقعية سرعان ما وجدت في الريف العربي وحياة أهله ما يغريها بالتوجه إليه1 ومنطلقا للكشف عن علل الواقع العربي وخاصة بعد النكسات التي عاشتها البلاد العربية، والتي دفعت الكتاب العرب إلى إعادة استقراء ذالك الواقع، ومن ثم تحسس مواطن العطب والإهمال التي يعانيها مجتمع الريف خاصة. وتعد الأعمال الروائية الواقعية في هذا المجال "الأكثر نضجا من الناحية الفنية...، والأكثر عددا من الناحية الكمية"2 إذن شكلت الرومانسية نقطة البداية للرواية العربية والسمة الغالبة في مناطق مختلفة من الوطن العربي، وليس في مصر التي تحقق فيها نضج الرواية ممثلا في رواية زينب، حيث برزت ملامح هذا الاتجاه، وتردد معناه في وقت كان الاتجاه السائد في أوروبا هو الواقعية. ولا شك أن الكتاب العرب قد وجدوا في الرومانسية ما يتيح لهم الإفادة منها. فهي المذهب المناسب للمواهب المبتدئة بما تحمله من شعار الحرية والتمرد علي القوالب الثابتة وترفض التصنع في الأسلوب، وتجعل من التجربة الذاتية والتعويل على الوجدان

1. محمد حسن، عبد الله: الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، 1989م ص: 16.
2. المرجع نفسه، ص: 63.

الفردي دليل صدق لا يجحد.1 كما أن الظروف السياسية التي كانت تعيشها البلاد العربية في أوائل القرن العشرين في ظل حركة استعمارية تسعى للسيطرة، وبسط النفوذ قد ساعدت على تبني المذهب الرومانسي الذي يناسب مرحلة النهوض القومي وتداعبها أحلام الثورة وذكريات الماضي المجيد.

إذن استقبل المناخ العربي الرومانسية استقبالا حارا، فقد كانت نتيجة طبيعية لاتحاد تلك العوامل مجتمعة، مما أتاح لها الفرصة كي تملأ اتساع المرحلة، خاصة وأن الاتجاه الرومانسي كان قد صادف هوى في النفوس، وهو ماعبر عن نفسه في مقتبسات المنفلوطي لـ"بول وفرجيني وماجدولين"، وفي ترجمات أحمد حسن الزيات لرواية "جوته" الأم فرتر وبحيرة لا مارتين، وفي تعريب محمد عوض محمد للجزء الأول من فاوست لـ"جوته" في الوقت الذي كان يوسف وهبي وروز اليوسف، وفاطمة رشدي يمثلون أمام الجمهور المتحمس لويس الحادي عشر لكازمير دي لافيني، وسيرانو دي برجراك، والنسر الصغير لـ"ادموند روستان" وغادة الكاميليا لـ"الكسندر ديماس".2

وليس غريبا أن تولد جماعة أبولو في هذه الفترة فتكون من شباب شعراء موهوبين وكهول من الأدباء الساخطين على التقاليد الأدبية، وإذا بها منذ إصدار مجلتها في سبتمبر عام 1932م يتوافد عليها في كل عام رهط من الشعراء الرومانسيين الذين يدينون بهذا المذهب الفني، ويتمردون على شعراء التقليد، وشعراء الفكرة ويلتقون حول مبدأ الحرية ويستهدفون الإعراب عن نوازعهم وخلجات نفوسهم في شعر دافق العاطفة، وبذلك تعد مجلة أبولو متحفا للاتجاه الرومانسي في الشعر،

1. المرجع نفسه، ص: 16.
2. المرجع السابق، ص:17.

مما جعل القلوب والأسماع والآذان تألف كل ماهو وجداني، وعاطفي، وخيالي، وأغلب الظن أن الذين أسهموا في هذه المجلة بشعرهم كانوا يحفلون بقضاياهم الشخصية ويلجؤون إلى صروح الخيال يبنون فيها عوالم سحرية ويحلمون أحلامهم البراقة، وينسجون دنيا غريبة مثالية من الرؤى العجيبة، وقد يجدون ألمهم وعذابهم في الحب، ويودون أن يفنوا في موت مريح تارة، وطورا يلجؤون إلى الطبيعة يبثونها أوجاعهم، ويرون في نخيلها وأكواخها موئلا يحميهم من كل ما يحيط بهم كما كانوا يتصورون. غير أن الإطار العام الذي دار في فلكه شعر هذه الجماعة الرومانسية هو التصوير الحاد لعاطفة الحب والتعبير عن أحاسيس فردية خالصة لا ترتبط ارتباطا وثيقا بالجذور الاجتماعية، وبقضايا الناس في حياتهم اليومية.1

كما أنه نتيجة لظروف المرحلة الحضارية التي مر بها المجتمع العربي في الثلاثينات وما بعدها، برز فن التراجم الذي يترجم فيه الأديب لحياته الخاصة، ويكتب عن نفسه ويسجل هموم ذاته المنفردة، ويفرض على القارئ آلامه ومشاعره ومشكلاته، فضلا عن رغبة الأدباء في الشعور باستقلال الشخصية، والإحساس بالحرية الفردية التي لم تكن تهيئها ظروف المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فاضطروا إلى محاولة تأكيد ذواتهم في أعمال روائية اتخذت من ذوات كتابها محاور أساسية. وهكذا وجدت "الأيام" ثم "أديب" عام 1953م لطه حسين، و"عودة الروح" عام 1933م ثم "يوميات نائب في الأرياف" عام 1937م، و"عصفور من الشرق" عام 1938م لتوفيق الحكيم، و"سارة" عام 1938م لعباس محمود العقاد

1. النساج، سيد حامد، الرومانسية في القصة المصرية القصيرة، مجلة الهلال، السنة 85، مارس 1977م، ص: 7.

المناخ الملائم لكي تتنفس في حرية وانطلاق في ظل هذه المرحلة الرومانسية من تاريخ الأدب العربي الحديث.1

رواية "زينب" نموذجا: كان للأدباء المصريين قصب السبق، فقد تجلت أولى المحاولات الرومانسية التي اتخذت من الريف موضوعا لها، حيث البساطة والفطرة والانطلاق في أحضان الطبيعة والشغف بوصفها كل هذا كان ممثلا في رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل، وقد كان لهذه الرواية تأثيرها على الرواية في البلاد العربية، إضافة إلى دوافع بيئية وثقافية كانت وراء ظهور الملمح الريفي فيها.

وهذا ما سنتطرق إليه مكتفين بنماذج من الروايات العربية والتي تؤكد الصحوة الفكرية والأدبية في البلاد العربية وتداعياتها. يجمع مؤرخو الأدب العربي الحديث على أن الدكتور هيكل هو رائد القصة العربية في مطلع القرن العشرين، وأن رواية "زينب" عام 1914م هي الرواية العربية الأولى المستوفية للمقومات الفنية بمعناها الحديث. ولا نريد هنا أن نخوض في مسألة التأسيس في الرواية العربية، وكيف تم ترسيم هذه الرواية بالرغم من فاعلية بعض الباحثين وحفرياتهم الأدبية والتي أظهرت نصوصا قبل سنة 1914م تاريخ ظهور رواية "زينب".

زينب بطلة القصة فتاة ريفية جميلة، وإن كانت فقيرة، تعمل أجيرة في الحقول، يهيم بها حبا إبراهيم بطل القصة ورئيس العمال لدى محمود وجيه القرية...كما يغرم بها وينال طرفا من متاعها حامد ابن السيد محمود، وإن خصت إبراهيم بحبها الكبير بحكم التقارب الاجتماعي... ويستبد والدا زينب بها ويزوجانها بحسن ابن الشيخ خليل الموسر، رغم أنها لا تفهم للحياة معنى وهي بعيدة عن إبرهيم... وتعيش البطلة

1. المرجع السابق، ص: 8.

القادمة البائسة حياة مشردة بين الزواج والحب... ويزيد حالها تعاسة أن إبراهيم لا يلبث أن يجند لخدمة الجيش المصري في السودان، فتشتد لواجع الهوى وتباريحه بزينب حتى تصاب بمرض فتموت.1

حامد الطالب الفلاح ابن وجيه القرية وسيدها وبطل الرواية الثاني هو الدكتور محمد حسين هيكل ذاته في مطلع شبابه ... وهو يصور نفسه في صدق حين يتحدث عن حامد الذي يستمع منذ نعومة أظافره إلى صوت دائب في قلبه يحدثه عن الحب، ويصور في أبهى صورة جناته الوارفة وطيوره الشادية، ويؤكد أن الحياة بغير الحب حياة ضائعة جدباء.

وليس حامد وأبوه هما الشخصيتان الحقيقيتان في الرواية، بل إن سائر شخصيات الرواية حقيقية أيضا. فزينب بإسمها وحياتها شخصية حقيقية...ولا يزال بعض الأحياء في كفر غنام –قرية الكاتب– يذكرون حياتها ومأساتها كما رواها الكاتب، وإبراهيم رئيس العمال ظل حيا إلى سنوات يعمل لدى أسرة هيكل.2

وأروع ما في رواية "زينب" فتنة الكاتب بالريف المصري وروعة تجليته لمفاتنه ومباهجه في صدق وبساطة واستفاضة. ومن دواعي التقدير لمدى هذه الفتنة اسم الرواية، فقد أسماها "زينب مناظر وأخلاق ريفية" ولم تستطع مفاتن باريس وجنيف أن تنسي الكاتب مباهج الريف المصري بل زادته تعلقا ولقد اكتفي الكاتب بوضع كلمتي "مصري فلاح" عوض اسمه الحقيقي على غلاف الرواية. فيقول: "ولقد دفعني لاختيار هاتين الكلمتين شعور شباب لا يخلو من غرابة وهو هذا الشعور الذي جعلني أقدم كلمة "مصري" حتى لا تكون صفة للفلاح إذا هي أخرت فصارت "فلاح

1. هيكل، محمد حسين، زينب، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة، 1992م، ص: 55.
2. نوفل، سيد، الدكتور هيكل في تاريخ القصة العربية، مجلة الهلال، مارس 1977م، ص: 22.

مصري" ذلك أني إلى ما قبل الحرب كنت أحس كما يحس غيري من المصريين ومن الفلاحين بصفة خاصة بأن أبناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر ينظرون إلينا جماعة المصريين وجماعة الفلاحين بغير ما يجب من الاحترام، فأردت أن استظهر على غلاف الرواية التي قدمتها للجمهور يومئذ، والتي قصصت فيها صورا لمناظر ريف مصر وأخلاق أهله، أن الفلاح المصري يشعر في أعماق نفسه بمكانته، وبما هو أهل له من الاحترام، وأنه لا يأنف أن يجعل المصرية والفلاحة شعارا له يتقدم به للجمهور، يتيه به ويطالب الغير بإجلاله واحترامه".1

الاتجاه الأدبي فى الرواية الريفية السورية: وفي سوريا تعد رواية شكيب الجابري باكورة الأعمال الروائية السورية في الثلاثينات من القرن العشرين. جاء الاهتمام بالريف لدى الروائيين السوريين متأخرا أي في الخمسينات، ولكن في أحضان الاتجاه الواقعي. وقد انصرف هؤلاء الروائيون إلى تناول حياة الريف وما يعانيه الفلاحون في ظل نظام إقطاعي مرابي، وطبيعة قاسية.

من الروايات التي رصدت مكابدة الفلاح السوري رواية "المذنبون" عام 1947م لفارس زرزور. تدور أحداث الرواية في قرية الميرة إحدى قرى الجنوب السوري والتي تقع في منخفض من الأراضي الشديدة الوعورة ذات المرتفعات والأغوار الحجرية البركانية "يعيش سكانها على رغيف جاف، مصنوع من الخليط شعير وحنطة وذرة مجتمعة. وفي فصل الربيع ربما تغير الحال قليلا، فإما أن يغمسوا لقمتهم بالبرغل، أو بما يفيض من خضخضة اللبن الرائب عندما يصنعون منه

1. المرجع نفسه، ص: 22-23.

السمن... الذي يبيعونه ليكتسوا بثمنه.1 ويتجلى موضوع الأرض في هذه الرواية من خلال شخصيته المحورية جدعان عبد الله الفلاح الشاب الذي تركه أبوه صغيرا رفقة أخته وأرض صغيرة ليزرعها و يتمتع بها، غير أن يد الإقطاع امتدت إليها وسلبتها منه، فاضطر إلى هجرة أرضه وقريته إلى المدينة، إلا أن علاقته بأرضه لم تنقطع، فهو دائم التفكير فيها لجمع المال أملا في العودة إليها يوما ما.

الاتجاه الأدبي فى الرواية الريفية العراقية: البدايات الأولى للنتاج الروائي العراقي كانت في العشرينات من القرن العشرين، حيث اهتم الكتاب العراقيون بحياة الريف، وهذا ليس غريبا على بلد ثلاثة أرباع سكانه يعملون بالزراعة، أو في أنشطة ترتبط بها. وكانت الرومانسية هي الغالبة على هذه المحاولات المبكرة، ولعل الظروف التي كان يعيشها العراقيون في ظل الاحتلال البريطاني الذي أحكم قبضته بتشجيع النظام العشائري، ومحاربة رجال الدين هي التي تبرز توجه الكتاب العراقيين الذين صوروا ما آل إليه الريف،2 فأخذت الرومانسية عندهم ملامح التمرد ومشاعر الضياع. وإذا كانت الرواية العراقية لهذه الفترة قد بدا مستوها الفني متواضعا، وبعيدا عن اتقان الصناعة، فإن شكلها الفني –كما يقول الزجاجي– لم يكتمل إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وهذا يعني أن المرحلة الواقعية هي وحدها التي حققت الجانب الهام من جماليات وأصول فن الرواية. تمثل رواية محمود السيد في "سبيل الزواج" عام 1929م البداية الروائية الريفية، تلتها محاولات أخرى كمحاولة ذي النون أيوب في "الدكتور إبراهيم" عام 1939م، ومحمد حسن النمري في "الفرات الأوسط" عام 1931م وعلي الشبيبي في "رنة الكأس" عام 1936م.

1. نبيل، سليمان، الرواية الريفية في سوريا (1967م-1977م)، مجلة الأقلام، عدد 9، السنة 14، بغداد، 1979م، ص:317.
2. عبد الله، محمد حسن: الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م، ص: 20.

كل هذه الروايات تناولت جوانب شتى من حياة الريف، خاصة مسألة الصراع على الأرض وتصدع الوحدة القرابية العشائرية الفلاحية1. ومن الروايات التي مثلت فترة الخمسينات رواية "الثالوث" عام 1953م التي كتبها يحيى عباس، والرواية تحكي قصة سليمان الهارب من القرية بسبب الإقطاع وممارساته. يعمل سليمان فلاحا لدى أحد الإقطاعيين لساعات طويلة مقابل أجر زهيد. رأى سليمان بأم عينيه كيف يعامل هذا الإقطاعي عماله وخاصة صديقه جابر الذي أحرق بيته، وصلم أذنيه وشواها وأجبره على أكلها، مما دفع بسليمان أمام هذه المشاهد المروعة إلى حمل أسرته باتجاه بغداد أي باتجاه المدينة.2 في المدينة يضطر إلى العمل في أشق المهن رفقة ولده. أما ابنته فيجرفها تيار الغواية فيقتلها أخوها ويفر إلى الكويت.

بعد ذلك ظهرت روايات أخرى عن الريف ومشكلاته بترعة رومانسية حتى الثمانينات مثل رواية جاسم الهاشمي أم أيشين عام 1981م كمؤشر لهذه الفترة، وهذا يثبت أن الرواية العراقية لم تخرج عن الاتجاه الذي بدأه الرواة الأوائل، كما أن هذه الروايات أثبتت وفاءها للريف والطابع الرومانسي.

الاتجاه الأدبي فى الرواية الريفية المغربية: وأما الرواية المغاربية، فإنها لم تحد عن الخط العام الذي رسم للرواية في الوطن العربي، وعن الثوابت الواضحة أي البدء بالرومانسية، والتأثر بالرواية العربية في مصر، خاصة رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل على الرغم من تأخر ظهورها الذي يعود الى فترة الخمسينات من القرن العشرين، ولعل رواية أحمد رضا حوحو غادة أم القرى عام 1947م تؤكد هذا التوجه الرومانسي، ذلك أن الرواية تبدو متأثرة برواية هيكل، حيث تتعرض لقضية المرأة

1. المرجع نفسه، ص: 22 .
2. المرجع نفسه، ص:23 .

وحقها في التعلم والحب والحرية، كما أن تأثرها بغادة الكاميليا، وبأسلوب المنفلوطي ليس من قبيل الصدفة. نفس الأمر ينطبق على الكاتب المغربي عبد المجيد بن جلون الذي ألف روايته الطفولة عام 1957م وهي عبارة عن سير ذاتية وهو يقيم بمصر مما جعل التأثر بالطابع الرومانسي في الرواية المصرية يتأكد.1

ومن الروايات المغربية التي اتخذت من الكفاح الوطني ضد الاستعمار الوطني بالريف موضوعا لها رواية "بامو" عام 1974م للروائي أحمد زياد الذي حدد له الإطار المكاني قرية من قرى المغرب والإطار الزماني منتصف الحرب العالمية الثانية. في هذه الرواية حشد الكاتب مجموعة من الأحداث التي تعرضت لها فرنسا أثناء تعرضها للغزو النازي، كما عرضت لأحداث محلية تخص الحركة الوطنية ونضالها، وكذا جهاد محمد الحنصالي.

يختار الكاتب في حديثه عن الكفاح الوطني زوجين يعيشان الفقر، ولكنهما رضيا به وأقنعا نفسيهما بعشية الشطف، والعوز. الزوج باسو يعمل حدادا، يصلح للفلاحين بالقرية أدواتهم الزراعية من مناجل ومحاريث، يعود مساء إلى بيته، حيث زوجته بامو، يداعب أوتار الكمبرى ويجالس أصحابه فيقص عليهم كفاح والده ضد الاستعمار، وعن المعمرين الذين استولوا على الأراضي الزراعية وطردوا أصحابها. فقد كان أبوه ثريا صاحب الأراضي، والآن فقد كل شيئ وأضحى فقيرا وقد وجد في شيخه سي موسى فقيه القرية مرجعا ثقافيا يضعه على خط العمل الوطني، فتزداد زوجته إعجابا به.

1. المرجع السابق، ص: 36-39.

كان للأحداث التي شهدتها مناطق كثيرة في المغرب صدى واسعا لدى مناضلي قرية دويزعت ومنهم باسو، الذي قبضت عليه السلطات مع خلق كثير، وزجبهم في السجن. بامو رمز المغرب تعاني بعد سجن زوجها من أبناء جلدتها، ومن الدخلاء، كما عانى المغرب في تلك الفترة العصبية، إلا أنها تظل صامدة، ولكن ليس لمدة طويلة، حيث تصاب بمرض فتموت. أما زوجها باسو فيهيم بوجهه بعد أن أصبح درويشا، لكن المغرب يحظى بالاستقلال.1

عالج الكاتب أحمد زياد في هذه الرواية معاناة الريف المغربي في ظل الاحتلال الفرنسي وما لاقاه المجتمع من حيف جراء استيلاء المعمرين على أخصب الأراضي وطرد أهلها إلى الأراضي القاحلة. إضافة إلى فرض الضرائب المتنوعة، ولم يتوقف عند هذا الحد بل عمل على إفساد المجتمع وذلك بنشر الرذيلة، وتشجيع تعاطي الخور، وفتح بيوت الدعارة وما إلى ذلك. كما سعى الاستعمار إلى تقسيم البلاد إلى مناطق، وجعل بعضها مناطق أمنية يستعصي الدخول إليها. ومما زاد من معاناة أهل الريف تعرض محاصيلهم الزراعية للجفاف والجراد الزاحف الذي يأتي على الأخضر واليابس وهو في ذلك يتساوى مع المعمرين الذين زحفوا على الأراضي واغتصبوها بقوة الإرهاب تارة، وبسياسة التزوير تارة أخرى.

الاتجاه الأدبي فى الرواية الريفية التونسية: من الروايات التونسية التي اخترناها رواية "التوت المر" لمحمد لعروسي المطوي عام 1972م. تقع أحداث الرواية في إحدى قرى الجنوب التونسي، حيث يلجأ الشيخ مفتاح إليها هاربا من بطش الاستعمار الإيطالي في ليبيا مع ابنته مبروكة التي تحمل هموم أبيها وأختها عائشة

1. المرجع نفسه، ص: 36.

الكسيحة، ولكنها باهرة الوجه، رائعة الشعر، عميقة النظرات فيقع في حبها عبد الله بعد أن رآها تحت التوت تمشط شعرها، فيقرر الزواج بها.

في هذه القرية ينتشر تعاطي "التكروري" أي الحشيش بتشجيع من السلطة الاستعمارية فيحاول عبد الله رفقة بعض شباب القرية محاربة الظاهرة، حيث يقدم أحد هؤلاء الشباب على حرق دكان والده الذي كان يبيع هذه السموم. وفي خضم هذه الأحداث يحاول الكاتب عرض بعض العادات والتقاليد المنتشرة في الريف التونسي من باب الدعوة إلى المحافظة على هذه التقاليد والعادات، وبالتالي إسباغ نكهة الواقعية على الرواية.1

مما تقدم يمكن القول أن بدايات الرومانسية في الرواية العربية ظهرت في قطرين هما مصر والعراق، ثم امتدت إلى بقية الأقطار العربية الأخرى، حيث اتجهت إلى الريف، واهتمت به شعرا ونثرا. وليست رواية زينب2 التي عدت أولى الروايات العربية، واعتبرت ثورة فكرية وأدبية إلا دليلا على ذلك، حيث اتخذت الريف موضوعا لها، وطرحته من خلال أسلوبين؛ أحدهما وصفي سكوني أظهره كإطار، فبدا جامدا معيقا لسير الأحداث القصصية، والثاني ديناميكي حول الريف إلى مكان حيوي، فظهر فاعلا دافعا للأحداث.

وعلى الرغم من ذلك كله، إن رواية "زينب" استطاعت أن تقدم صورة لبعض العلاقات الإنسانية في إطار ريفي تحكمه تقاليد اجتماعية من جهة، وظروف مادية

1. المرجع السابق، ص:51 .
2. العيد، يمي، فن الرواية العربية بين خصوصية التعبير وتميز الخطاب، ط1، دار الآداب، بيروت، 1998م، ص: 68.

قاسية من جهة أخرى، حق لها أن تعد الشارة الأولى لانطلاق عدد من الروايات العربية الرومانسية التي اتجهت نحو الريف، وأقبلت عليه.1

والملاحظ على هؤلاء الروائيين، أنهم يبدؤون تجاربهم الروائية بأعمال هي من صميم الرومانسية في وسط تيار واقعي، أو يقدمون للقراء أعمالا هي بين الرومانسية والواقعية بمعنى أنهم يمزجون بين التيارين، بما اصطلح عليه الواقعية الرومانسية، حيث "الجمع بين الذاتية والموضوعية بين قضايا الفرد والجماعة، بين اليأس والعمل، بين الخاص والعام، بين عالم القدرة والمصادفة والواقع المبرر، بين القضايا العاطفية المقصودة لذاتها والمستخدمة في إطار عام".2

1. سمعان، إنجيل بطرس، دراسات في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص: 76.
2. عبد الله، محمد حسن، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م، ص: 48.

الفصل الثاني

القضايا الاجتماعية فى الرواية الريفية المصرية

كان الريف من أهمّ الموضوعات التي عالجها الكتّاب في آثارهم بما فيه من صفاء، ونقاء، وطبيعة لم تفسدها المدينة المصطنعة وبما فيه من ظلم، وعسف، وحرمان، وتمييز يشوّه وجوهه ويكدّر صفائه. فقلّما نجد شاعرا أو كاتبا لم يكتب عن الريف وما يعانيه القرويون من ظلم، وتعسف، وحرمان أو ما يزين الريف من طبيعة ساحرة، وطيور مغرّدة، وأشجار باسقة خاصة الرومانسيين الذين قد تغنّوا طويلا بالريف ومباهجه، والواقعيين الذين شمّروا عن السواعد وقاموا بالعمل الجادّ والدؤوب من أجل التعبير عن مشاكل الريف والصعوبات التي يواجهها المجتمع الريفي.

إنّ أدب الريف من الموضوعات الهامّة فى آداب جميع الأمم على اختلاف مواقعها "لأنّ الريف هو الأقرب إلى الطبيعة وفي كل العصور لأنّه يحكي لغة الطبيعة والفطرة والفطرة ومن ثم تكون الطبائع الإنسانية فيه بعيدة عن زيف المدينة"1. لا شك أنّ فنّ الرواية قد نشأ في حضن المدينة والمطبعة الأوروبية ولكنه نشأ في مصر في حضن الريف أو القرية ثمّ خرج إلى المدينة حيث يقول محمد حسن عبد الله: "فالفنّ الروائي ابتدع ليعبّر عن المدينة وليس الريف أو القرية وارتباط ازدهاره بنشأة المدن الكبيرة وانتشار التعليم لأنّ الرواية فنّ يقرأ كما ارتبط بحصول المرأة على قدر من الحرّية الاجتماعية وبخاصّة حق العمل وحق الحب".2 إن الرواية

---

1. عبدالله، محمد حسن ، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م، ص: 117.
2. المرجع نفسه، ص: 9.

الريفية فى مصر حققت مكانا هاما في تطوير الأدب المصري. تكمن أهميتها في استخدامها لأدوات فنية شديدة الوضوح لتصوير الواقع الاجتماعي والسياسي في الريف. والمجتمع الريفي فى مصر كان يواجه بعض المشاكل الرئيسية التي انعكست في الرواية العربية بوضوح، ومن أهمها الفلاح ومعركته لنيل حقوقه ضد الرأسمالية، والعنصرية الاجتماعية، واستغلال الفلاحين، ومظاهر القهر الاجتماعي، ومشاكل المرأة الريفية في المجتمع المصري، وأزمة الهوية الفردية والاجتماعية وما إلى ذلك.

الفلاح ومعركته لنيل حقوقه ضد الرأسمالية: تصوّر الرواية الريفية المصرية الفلّاح بريئا فقيرا مستغَلّا، والإقطاعيَّ ظالما مستغِلّا ولعل تصوير جرائم الإقطاع ومعركة الفلاحين لنيل حقوقهم من الإقطاعيين هو الموضوع الأوّل في الرواية المصرية. إن الفلاح في الريف يقضي معظم أوقاته في الأرض لكي يأكل من ثمرة جهده وكدّ جبينه ولكن هيهات أن يتحقّق هدفه ويري ثمرة عمله. لقد تثمر الأرض أشهى ثمرات ولكن هذه الثمرات لاتدخل في بيوت الفلاحين بل ترسل إلى الأسواق لكي يستفيد من بيعها الملّاک ويتلذّذ من تذوّقها أبناء المدينة، أمّا الفلاحون وبنوهم، فتكون ثمرة جهدهم في الأرض حسرة أليمة تذيب قلوبهم وهذا ما يشوّه صورة الريف ويحوّلها إلى مستنق رائحة قذرة كريهة تؤذي كلما يمرّ بها. هذا، ولكن كلّ هذه المظالم التي يستغلّها هولاء الظالمون لا يوجب استسلام الفلاح ولا تخمد إرادته وسعيه في سبيل الحرية والعدالة وهذا ما نراه في رواية "الأرض" للشرقاوي والتي سنتحدّث عنه فيما بعد.

إنّ كلّ هذه المظاهر السلبية هي التي تسوق الكتاب وتدفع الشعراء إلى الكتابة عن الريف وعما يعانيه الريفيون. وهذا لا ينحصر على مصر بل يشمل كل

بلدان العالم الثالث الذي يكون نظام الزراعة فيها إقطاعيا ولذلک نرى الكتاب والشعراء على الرغم من إعجابهم بجمال الريف وخلابة الطبيعة فيه يتألمون من شقاء، وبؤس وعداء يعاني منها الريفيون داعين برفع مستوي الفلاح الصحي والثقافي بالدراسة والتعليم.

شخصية الفلاح فى الرواية العربية الريفية: لقد عني التاريخ بالملوك والاشراف والقادة ولكنه لم يوجه التفاتة صغيرة إلى الفلاح الكادح. وقد رأى بعض العرب في الجاهلية أن الاشتغال بالفلاحة وحرث الأرض عمل لا يليق بكرامة العربي الذي يجب أن يكون دائما أخا نقله وسفر، متأهبا للقتال دائما1. وقد ظل الفلاح على حرمانه من الاهتمام به والالتفات إليه، في حين صور بعض الشعراء الفلاح يتمتع بالرضى والقناعة، واهتموا بجمال الطبيعة وبهائها، لكن صوت الفلاح كان غائبا، ولا نرى صورة بؤسه وشقائه2. وقد صورته بعض الروايات أيضا بصورة الرضى والقناعة لواقعه المرير وحياة الشقاء، التي يعيش في ظلها كما في قرية زينب عام 1914م لمحمد حسين هيكل التي يعيش فيها الفلاحون بلا مشكلة فهم عبيد ورقيق، راضون بمصيرهم وباستغلال صاحب الأرض لهم، ويجدون في الطبيعة عزاء وتعويضا عن كل شيء. فقامت الطبيعة التي تغنى بها هيكل في مشاهد كثيرة بدور خلفية مبهجة لمسرحية حزينة.3 وفي يوميات نائب في الأرياف عام 1937م للكاتب توفيق الحكيم انشغل النائب في تصوير الواقع الذي يعيش فيه الفلاحون، وإظهار صور البؤس والفقر وعجز القرية عن فهم القوانين المتحضرة التي فرضت على أهل القرية4. ولم

1. محسب، حسن، قضية الفلاح في القصة المصرية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971م، ص: 21.
2. حسن، محمد عبد الغني، الفلاح في الأدب العربي، دار القلم، 1965م، ص: 30-38.
3. بدر، عبد المحسن طه، الروائي والأرض، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971م، ص: 56.
4. المصدر السابق، ص: 98.

نسمع صوت الفلاح ونشاهد سلوكه وشخصيته إلا في رواية "الأرض" وقد تمثلت شخصية الفلاح في شخصية عبد الهادي ومحمد أبو سويلم اللذين استطاعا الوقوف بوجه الإقطاعي محمود بك و الباشا في سلبهم لأراضي الفلاحين.

شخصية الفلاح في رواية "الأرض" للشرقاوي: ففي رواية "الأرض" يمثل عبد الهادي شخصية متحررة في تفكيرها تحمل بذور الرفض للأوضاع الاجتماعية السائدة لذلك فهو يرفض تعليل الشيخ الشناوي عندما يعلل أن اللعنة نزلت على القرية بسبب كفرها فانقطع الماء عن القرية حيث يخاطب الشيخ بقوله دهدة يا سيدي ما بلا وجع دماغ بقي.. فلقتنا من الكلام ده.. هو ربنا كان اللي حاش المية عنا.. وإلا المهندز والحكومة هم اللي حاشوها؟ طب ما هي بتجري في أرض الباشا زي الحلاوة.. اطلع كدة لحد المركز وأنت تشوف أرض الباشا على طول السكة بتروي بالراحة.. من غير ما يدور ساقية ولا يشقي بهيمة ولا يشغل وابور المية.1

وقد اهتم الكاتب في بيان سلوك عبد الهادي وشجاعته، فهو رفض أن يعطي ختمة للعمدة لكي يوقع على وثيقة عريضة لا يعرف ماذا كتب بها، كما رفض محمد أبو سويلم. وكذلك شجاعته في السجن في تحمله العذاب والجلد بالسياط2. وقد نعته الكاتب بالشجاعة والتضحية وحب الآخرين، فعلى الرغم من شعوره بأن محمد أفندي العقبة الأولى في طريق زواجه من وصيفة إلا أن ذلك لم يشوه علاقة المودة، وإنما نرى التعاون المشترك بينهما في مكافحة الإقطاع3.

1. الشرقاوي، عبد الرحمن، الأرض، دار الشروق للنشر، القاهرة، مصر، 2017م، ص: 80.
2.المصدر نفسه، ص: 98، 240.
3. المصدر نفسه، ص: 349.

وقد كانت شخصية عبد الهادي حبة متطورة مع نمو الأحداث وتطورها وتتفاعل مع الأحداث، وقد أضاء الكاتب سلوكها وعاداتها وبعض أفكارها الداخلية، إذ استطاع الكاتب أن يوفق في رسمها وتكون أكثر إقناعا وصدقا من شخصية عبد العظيم في رواية الفلاح التي جاءت جاهزة البناء، وحملها الكاتب الكثير من الشعارات الاشتراكية، على الرغم من تعليمها المتوسط وثقافتها المحدودة1.

شخصية الفلاح في رواية "البيات الشتوي": وفي رواية "البيات الشتوي" عام 1974م للكاتب المصري يوسف القعيد نجد شخصية الفلاح قانعة بواقعها الأليم وتحلم باليوم الذي يأتي فيه المنقذ الذي ينقذ قرية السوالم مما تعاني من الظلم والفقر والحاجة كما جاء في كتاب سيدي الغريب2 لذلك عندما يأتي المهندس عصمت ويتحدث لهم عن إنجازات المشروع وما يحمل من تغير صنع كل منهم لنفسه يوتوبيا خاصة به، فحب الدين يقول متحدثا عن حياته وعوني المهندس بالعمل، سأعمل معه، ملاحظة لتشغيل الأنفار، على أن أراقبهم في العمل، صرف الأجور سيكون كل خمسة عشر يوما، أو كل أسبوع، قال إنه سيعطيني أعلى أجر في الناحية، قال إن المعجزة ستحدث هنا3 ولم تكن تلك الأحلام سوى الانسلاخ عن الواقع الأليم الذي تعيش فيه الشخصية. في حين نجد أبا السعود يحلم يوم يطلبني المهندس، سأطلب منه أغلى ثمن، إن النقود في يده مثل حبات الأرز، قيل لي: أن أسهل ما عنده، أن يعطي نقودا، لن اتنازل عن مليم، إن فاصلني، واعتقد إنه لا يعرف الفصال، سأقول له: بين البائع والمشتري يفتح الله4. لقد كانت هذه الأحلام التي تمنتها الشخصيات إنما

1. الشرقاوي، عبد الرحمن، الفلاح، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1968م، ص: 26.
2. القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص: 61، 99.
3. المرجع نفسه، ص: 67.
4. المرجع نفسه، ص: 71.

تكريس لواقع أليم، فجاءت هذه الأحلام لتساعد على التغلب على الشعور بالإحباط والعجز والفشل في الحياة1.

في حين نجد أن ورداني كان يرى أرضه التي سلمها للمهندس هي ليست أرضه، لقد ورثها عن أبيه، إنها أمانة لا بد وأن يسلمها لأبنائه من بعده. أرضه هي ما يشتريه بنفسه، من حر ماله وعرق جبينه. تصور ورداني، إنه بتسليمه الأرض للمهندس، قد خان العائلة وإن عظام أبيه قلقة في قبره، كان يجب أن يدافع عنها، حتى ولو ذهب إلى السجن، فقد قال له والده: من يفرط في أرضه، فقد فرط في عرضه2 لقد شعر ورداني بخيانته لعائلته بتسليمه الأرض، إلا إننا نجده مؤمناً أن أرضه لن تبوح بسرها للغرباء، لذا فهو انسحب من الفلاحين لإحساسه بأنهم تركوه يواجه العمدة والمهندس لوحده مما اضطره أن يسلم لهم الأرض. وقد نجح الروائي في رسم شخصياته وإقناع القارئ بمشاكلها التي تنبع من صميم القرية.

شخصية الفلاح فى رواية "للزمن بقية": لقد صورت الروايات شخصية الفلاح بأنه شهم وكريم، فهو يقف ضد الظلم حينا ويواجه الإقطاع ويتحمل في سبيل ذلك العذاب، وحيناً يرضى بالقضاء والقدر الذي فرضه عليه الإقطاعي الظالم ويستكين إلى ظروف الواقع المريرة. لكن محمد عبد الحليم عبد الله صور الفلاحين في رواية للزمن بقية عام 1968م بأنهم يسيئون معاملة الذين يعاملهم بالطيبة والحسنى، ويحترمون الشخص الذي يضربهم ويحتقرهم ويستلب قوتهم الجسدية وحياتهم3.

1. الدباغ، فخري، السلوك الإنساني: الحقيقة والخيال، كتاب العربي، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي، العراق، 15 يوليو، 1986م، ص: 238.
2. القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص: 152 – 153.
3. وحيد، علاء الدين، للزمن بقية، مجلة آخر ساعة، مصر، 1980م، ص: 28.

العنصرية الاجتماعية واستغلال الفلاحين: من أهم مشاكل المجتمع الريفي التي واجهها فى القرن العشرين مشكلة العنصرية الاجتماعية واستغلال الفلاحين والعمال والطبقة العاملة. ومن الروايات التي صورت هذه القضية رواية "الثائر الأحمر" للروائي على أحمد باكثير حيث صور الظلم السائد فى المجتمع المصري الريفي الذي وقع على بطل الرواية حمدان قرمط وعلى باقي الفلاحين والعمال والحرفيين والذي تسبب فى ثورة القرامطة.

القهر الاجتماعي: ومن الروايات المصرية التي اهتمت بقضية القهر الاجتماعي اهتماما كبيرا رواية "لا أحد ينام في الإسكندرية" للروائي إبراهيم عبد المجيد. ورواية "الطوق والأسورة" للروائي يحي الطاهر عبد الله. ومن الروايات التي صورت جوانب الظلم الاجتماعي الذي تعيشه طبقة مهمشة من طبقات المجتمع الريفي المصري رواية "الحرام" للروائي يوسف إدريس. وذلك من خلال بيان الحرام الذي وقعت فيه بطلة القصة يندرج فى دائرة حرام أكبر يقوم به أهل البلد الفقراء مع عمال التراحيل الذين هم أفقر منهم، فهو الحرام الحقيقي، وذلك قدمت الرواية من خلال إطار فني محكم ولغة شديدة العذوبة.

المرأة الريفية ومشاكلها في المجتمع المصري: تكتسب شخصية المرأة الريفية بعدها الاجتماعي لا من خلال موقعها الطبقي، بل من خلال وضعها الخاص الذي تحياه داخل المجتمع. فهي على العموم تحتل المرتبة الثانية بعد الرجل. فقد كانت المرأة والأرض من مواضيع الصراع التي عرفتها الإنسانية، لذلك ارتبطت صورة الأرض بالمرأة من خلال الزرع والخصوبة والجنس.

ونجد أن المرأة الريفية –أو في الفئات الفقيرة في المدينة– بحكم جهلها وانعدام خبرتها وحريتها وعزلتها عن أفراد المجتمع وتحكم الرجل بمصيرها وخوفها الدائم على مستقبلها.1

فإن عددا من الروايات صورتها مخلوقا ضعيفا، تبحث عن الأمان والاستقرار، فأصبح همها الأول والأخير الحصول على الزوج بشتى الوسائل والطرق.2 لذلك كانت أكثر ميلا لتصديق هذه الخرافات والعمل بها خطبها اثنا عشر شخصا وعدلوا يا سيدي الطالب. لا عوراء ولا مكسورة، ابنتي جميلة كل ذنبها يا سيدي الطالب، أن الأول الذي تقدم إلينا يخطب يدها، عدل عنها وتزوج بجارتها. تتزوج الثالث عشر بحول الله، إن كان بإمكانك أن ترد إليها الحادي عشر فافعل فهو بلا أم ويحوز سكنا بعد.3 وتتجمع مؤشرات الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمرأة الريفية، وتفضيل الذكور وحرمانها من حق اختيار الزوج، والتعليم، وتدعم هذه الأوضاع الأمية والجهل والتراث الشعبي والعادات والتقاليد الاجتماعية والزواج المبكر في الريف والنظرة إلى المرأة من خلال الجنس وإنجاب الأطفال.4 وهذه القضية التي تهتم بها شرائح كثيرة في المجتمع العربي، والتي من أجلها تلجأ المرأة إلى مختلف المعتقدات الخرافية، والوسائل المختلفة.5 ومما يلفت النظر، إن تقاليد المجتمع لا ترى في مثل هذه الممارسات إخلالا بالشرف والكرامة. فليس من المستحسن في البيئة الاجتماعية وبخاصة في الريف، أن ينسب إلى الرجل –ويراه المجتمع– العضو الأقوى فيه

1. بدران، إبراهيم والخماش، سلوى، دراسات في العقلية العربية، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1974م، ص: 298.
2. مصطفى، ساجد مصطفى، الشخصية في الرواية العراقية (1980م-1958م) دراسة نقدية، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 1996م، ص: 332.
3. زرزور، فارس، المذنبون، اتحاد الكتاب العرب، 1974م، ص: 85.
4. العبد، عاطف عدلي، المرأة الريفية، دار المعارف، ط2، 1987م، ص: 92.
5. بدران، إبراهيم والخماش، سلوى، دراسات في العقلية العربية، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1974م، ص: 63.

وحامل لواء الدفاع عنه، وعن تقاليده، أي نقص جسمي لديه، ولأن العرف الاجتماعي يعطي أهمية مبالغ فيها للرجولة بمفهومها الجنسي، لذلك يدفع الكثير من الرجال إلى الإحجام عن المعالجة، مظهرين بكل تعنت كمالهم.1 لذلك تجد المرأة نفسها مضطرة إلى اللجوء إلى سلوكيات تخالف ما يفترض أن تراعيه من قيم وتقاليد مر على زوجاها سنة ولم تنجب بعد، طلبت من زوجها أن يعرضا نفسيهما على طبيب لكن زوجها، اكتفي باصطحابها، هي وأمه وأختيه إلى حمام الصالحين، لكن في مثل هذه الحالات زيارة سيدنا تكون في مقامه يكفي أن تتمدد المرأة إلى جانبه، عارية كما ولدتها أمها لتصبح حبلى، هذه مجربة يا أختي.2 ونجد هذه الصورة في لجوء المرأة إلى البحث عن الأطفال في رواية الخيول عام 1976م، على الرغم من اختلاف البيئة والتباعد المكاني بين الروايتين، فالخيول من سوريا والأخرى من الجزائر.

إن الواقع الاجتماعي للمرأة الذي، يراها ملكية للرجل، وإن أمانها واستقرارها ومستقبلها متعلق برضائه، والذي بدوره تتحكم بنفسيته مجموعة من العقد الاجتماعية والاقتصادية والكثير من المعتقدات الخرافية، كل ذلك يجعلها مغرقة في الإيمان بتلك الخرافات وكلما انخفض مكان المرأة على السلم الطبقي ظهرت هذه المسألة بوضوح لبروزها أيضا عند الرجل.3 تجد في هذه المعتقدات الخرافية حلا لمشكلتها وتبعث على الأمان والأمل في النفس وقد لعب السحر ومحاولة معرفة الغيب دورة عظيمة في تفكير العقلية البدائية، وتفسيرها للظواهر التي يمر بها الإنسان البدائي، لذلك يرى جيمس فريزر بأن الفكر البشري تطور من السحر إلى الدين إلى العلم).4 والواقع أن

1. نفس المرجع، ص: 72.
2. قاسم، عبد الحكيم، أيام الإنسان السبعة، دار الشروق، مصر، 1969م، ص: 78.
3. بدران، إبراهيم والخماش سلوى، دراسات في العقلية العربية، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1974م، ص: 298.
4. النوري، قيس، الحضارة والشخصية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط1 1981م، ص: 53.

الغيب وأعمال السحر المختلفة لا تزال إلى اليوم الحاضر منتشرة، ليس بين الطبقات المسحوقة اجتماعية والمحرومة ماديا وتعاني كبتا نفسيا وعاطفيا، ولكن جزءا من المتعلمين يؤمنون بأعمال السحر أو على الأقل لا يستطيعون إقناع أنفسهم بخرافية تلك الأعمال.1 ذلك أن محاولة الإنسان لمعرفة المستقبل والغيب كانت منذ القدم تشغل حيزا من اهتمام الإنسان، إلى اليوم، وتتصاعد هذه الرغبة لمعرفة المستقبل، لاسيما إذ كان المرء مقبلا على أمر مهم لا يشكل جزءا من حياته اليومية، فالفلاحون في رواية البيات الشتوي التي تتناول قدوم بعثة للبحث عن البترول في قرية السوالم، لكن المشروع يتوقف لأن البترول الموجود غير اقتصادي ووقوف القوى الرجعية ضده، بعد أن عاش أهل القرية حلم التغير الذي يصيب القرية، لذلك فهم لا يعرفون ماذا يفعلون غير اللجوء إلى السحر لمعرفة الغيب قال ورداني، أن في الموضوع شيئا ما، في غير مصلحة أهل البلد كلهم، قال الأحرون، لابد من فتح الكتاب لقراءة الغيب، فلا يمكن السكوت على ما يحدث في بلدهم وتمني بعض الرجال لو تمر على بلدهم في الصباح الباكر الغجرية، تكتشف لهم الأثر.2

ويحاول قاري الطالع إقناع طالب المشورة بصدق ما يتنبأ بالاعتماد على الفراسة والخبرة3. وذلك بإعطاء طالب المشورة ما يرغب أن يسمعه حيث تتحدث الغجرية، عن أيام عصيبة قادمة، وعن مخلص نبي حديد... سيظهر في البر يجمع الشمل، وينشر العدل وسكة السلامة. وسكة الندامة والسفر إلى بعيدة. والعودة من هناك بكل ما يشتهي الإنسان، وزيارة قريبة يقوم بها للبلد أناس طيبون، يغيرون حياة

1. بدران، إبراهيم والخماش، سلوى، دراسات في العقلية العربية، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1974م، ص: 263.
2. القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص: 18.
3. بدران، إبراهيم والخماش، سلوى، دراسات في العقلية العربية، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1974م، ص: 291.

السوالم.1 إن هذا النص مغاير لما يؤمن به الفلاح، إذا لم يتحقق شيئا من نبوءة الغجرية سوى الندم، الذي حصده أهل القرية بعد رحيل المهندس الذي كانوا ينتظرون المعجزة على يديه. لذلك يحاول قاريء الطالع أن يقتنع طالب المشورة بصدق ما يتنبأ به عن طريق استخدام الآيات القرآنية والأدعية في حديثهم أو عن طريق بعض المعلومات الخاصة لطالب المشورة، من حياته الخاصة، أو الأحداث العامة التي تجري في البلاد، كما في رواية "الزلزال" 1974م، من خلال شخصية الريفي الذي طلب من قاريء الطالع قراءة مستقبلية، بعد أن قرر السفر إلى فرنسا فأخبره بأنها خضراء، أمامك خضراء وخلفك خضراء، يقوم بينك وبين حظك ثعبان ذو سبعة رؤوس، وتجري خلفك تابعة يهودية ذات سبعة أرواح. فتح وعلي أنا قطع الرؤوس وحش رجلي التابعة اليهودية السفر الذي تنويه أجله. فستخضر حولك، لا ترحل من مكانك، فستأتيك ورقة حكومية، تفرح قلبك.2 فليس تلك النبوءة إلا استغلالا للأحداث الجارية في الجزائر ورؤية لواقع الحياة فيها بعد صدور قوانين الإصلاح الزراعي وتحديد الملكية الزراعية وتوزيع الأرض على الفلاحين بدليل أن هذه النبوءة تصلح لكل طالب مشورة سواء من الريف أم المدينة.

المرأة الريفية فى رواية "زينب": وقد كانت أول رواية عربية تحمل اسم امرأة ، وهي "زينب" 1914م لمحمد حسين هيكل3 إلا أن شخصية زينب الريفية لم تظهر من خلال بيئتها المحيطة، وإنما ظهرت من خلال ثقافة هيكل فلم تعبر عن صورة المرأة الريفية. وفي رواية يوميات نائب في الأرياف عام 1937م لتوفيق الحكيم نجد أن شخصية ريم الريفية، هي الشخصية النسائية الوحيدة التي ظهرت واهتم الروائي

1. القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص، 32.
2. القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص: 31.
3. سمعان، انجيل بطرس، دراسات في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1978م، ص: 78.

بوصفها حين يقول بدت غادة في السادسة عشرة من عمرها، لم تر عيني منذ وجودي في الريف أجمل منها وجهاً ولا أرشق قداً، وقفت بعتبة الباب في لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس طعمت في موضع الوجه بالعاج1 فقد قدمت شخصية ريم من خلال حديث النائب ولم نشاهدها ونسمع إلا من خلال كلمات الروائي وسرده لمأساتها عندما يجدها قتيلة. وقد رمز بها الروائي إلى ضياع مصر وعظم الأزمة التي تمر بها بسبب الظروف السيئة التي لا يمكن القضاء عليها إلا بمعالجة جديدة للأمور كي يرفع الظلم عن الإنسان والوطن.2

المرأة الريفية في رواية "الأرض": وفي رواية "الأرض" أبرز الشرقاوي صورة المرأة الريفية، فالروائي يصف وصيفة في بداية الرواية، تتحدث مع الراوي عن علاقات الغرام وما تفعل نساء مصر لكن بعد ذلك نراها لا يستطيع أحد أن يكلمها أو يعترض طريقها، وهذا الوصف للشخصية يؤدي إلى التناقض بين الشخصية وأفعالها.3 وتقوم وصفة بدور إيجابي في قيادة هجوم نساء القرية على العمدة الذي يمثل سلطة القهر والسخرية منه ورميه بالحجارة بدأت الفتيات يلقين بما في أيديهن في وجوه الخفراء والتقطت وصيفة مقطف مفعماً بالروث، وألقته بكل حنقها على رأس العمدة. وتلطخ قفاه ووجهه كله وعمامته البيضاء وجبته وأخذته الرجفة وهو يمسح الروث عن عينه.4

ونجد أن الشرقاوي يقع في حيرة وتناقض في تصوير وصيفة فهي بعد وقوعها بوجه العمدة الذي ألقى أباها في السجن. نرى الكاتب يصورها، وهي تجمع محصول

1. الحكيم، توفيق، يوميات نائب في الأرياف، دار الشروق، مصر، 2005م، ص: 19-20.
2. وادي، طه، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، مركز كتب الشرق الأوسط، 1973م، ص: 122.
3. موسى ، فاطمة، في الرواية العربية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص: 198.
4. الشرقاوي، عبد الرحمن، الأرض، دار الشروق، 2008م، ص: 229.

القطن الأخير من أرض أبيها التي سلبت لتصبح طريقا.1 تغني أغنية الحب وهي تعرف بأن الذي لا يملك في القرية أرضاً لا يملك شيئاً على الإطلاق حتى الشرف2 وإن انتزاع الأرض من صاحبها، يصاحبه مأتم حزين، ربما يفوق حزنه مأتم البشر، وقد ظلم الروائي بطلته عندما يجعلها تتزوج من عم كساب على الرغم من أن الرواية كانت تمهد لزواجها من عبد الهادي.

وإذا كان الشرقاوي قد أعطى لوصيفة مساحة تتحرك فيها ونسمع صوتها ونشاهد سلوكها، إلا إنها ظلت حبيسة الأوصاف التي تبين فيها مواطن الجمال والأنوثة، وإن حاول الروائي أن يكشف عن جانب من مشاعرها وأحلامها. أما شخصية خضرة، فتمثل صورة المسحوقين اجتماعياً واقتصادياً في القرية والذين لا يملكون في القرية أرضا لذلك سقطوا أخلاقياً في القرية.3

لذلك تختفي صورة هذه المرأة في رواية الفلاح لتظهر شخصية إنصاف التي تشارك في انتخابات الجمعية التعاونية، وتستطيع مقابلة وزير الزراعة وتشكر له حالة الظلم والتعسف التي مارسها رزق بيه والرجل الغريب القادم من المدينة. لكن الروائي لم يحطها بالاهتمام بالكشف عن مشاعرها وسلوكها إذ توقفت بعد ذلك عن الحركة والتفاعل مع الأحداث ، فجاءت هذه الشخصية جاهزة البناء.

المرأة الريفية في رواية "البيات الشتوي": أما المرأة الوحيدة التي تظهر في رواية "البيات الشتوي"، فهي شخصية سلبية التي ولدت وعاشت في المدينة، لكنها كانت تحمل جذور ريفية، إذ أتت إلى قرية السوالم بعد لقاء حب الدين لتعمل معه في

1. المرجع نفسه، ص: 357-358.
2. المرجع نفسه، ص: 37.
3. المرجع السابق، ص: 46.

مقهى القرية الصغير، وهي كانت تحلم في مغادرة القرية والرجوع إلى المدينة والله لو سعدني زماني لأسكنك يا مصر، وأزرع لي فيكي جنينة ووسط الجنينة قصر.1

وقد كشف الروائي عن مشاعر الشخصية وماضيها وسلوكها. وأحلامها في العودة إلى المدينة لذلك فهي شخصية مدينة تختلف بالعادات والتقاليد عن نساء القرية اللواتي بقين في خلفية الصورة.

المرأة الريفية في رواية "أيام الإنسان السبعة": ويقدم عبد الحكيم قاسم عالم النساء في رواية أيام الإنسان السبعة في يوم الخبز ويصف لنا كل حركة وإيماء تصدر عن النساء، فهناك عدد من الشخصيات النسائية التي يقدمها الروائي في هذا اليوم، فالحاجة شوق يقدمها بقوله مات عنها زوجها، فقامت بمعاش الدار، ورعاية الغيط بهمة الرجال وهي بين عيالها الأب والأم وإذ يزورها الحاج كريم، تخرج إليه طويلة ناهضة الصدر، كأنما لم تلد، ولم ترضع واسعة العيون، سمراء ندبة الوجه ضاحكة، تحكي وينصت الحاج كريم، كلامها مرتب وهادئ2.

وعلى الرغم مما قدم عبد الحكيم قاسم من عالم كامل عن النساء اللواتي لا يغبن عن عالم الرجال، فهن مصدر سنده ومصدر سعادته. لكن لم يشاركن مشاركة إيجابية في أحداث الرواية.

المرأة الريفية فى رواية "الحرام": وتظهر شخصية عزيزة في رواية "الحرام" وهي الأنموذج الممثل لقطاع العمال الزراعيين الذين ظلوا لمدة طويلة يعانون من مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية.3 وقد حقق فيها الروائي الواقعية والصدق الفني والتعاطف

1. القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص: 73.
2. قاسم، عبد الحكيم، أيام الإنسان السبعة، دار الشروق، مصر، 1969م، ص: 60.
3. موسى، شمس الدين، المرأة الأنموذج فى الرواية العربية الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، ص: 16.

مع مأساتها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية التي تدفعها إلى قتلها طفلها خوفا من الفضيحة. فهي وزوجها كانا يعيشان على القبضية من الحاج عبد الرحيم في موسم القطن ويعيشون جميعا عليها بقية العام، يعيشون غصباً ومحايلة وبالجبنة أحيانا، والعيش الحاف والملح في أحيان ولكنهم يعيشون والسلام.1

وإزاء حالة الفقر والحاجة والعوز أخذت عزيزة تتحرك وسط ذلك الواقع، ووفق أقدارها المرسومة، فهي تذكرنا بمأساة أوديب وكيف رسمت له الأقدار حياته لكن الأقدار التي كانت ترسم حياة الأبطال في أوديب جاءت محلها ظروف الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وقوى الظلم وخضوع إرادة للإنسان للإغراءات كل هذه الأمور التي ترسم خطى الإنسان في الحياة.2

وكذلك رسمت الظروف الاجتماعية والاقتصادية حياة عزيزة وحالة الشقاء والحرمان ومرض الزوج وفي نهاية المطاف، لا بد من وقوع المأساة استجمعت نفسها ودفعته، وناضلت ولكنها كانت ترى أن نضالها لا فائدة منه، سكتت وظلت تئن أنين المظلوم الذي لا يخلي نفسه من مسؤولية ظلمه.3

أزمة الهوية الفردية والاجتماعية: إن مشكلة الهوية الفردية والاجتماعية من أهم مشاكل المجتمع الريفي المصري التي يعاني بها فى القرن العشرين، والتي تم التعبير عنها مرارا وتكرارا فى الرواية العربية الحديثة من خلال كلمات "الصراع" بين الفرد والمجتمع، أو "الصراع الوجودي مع المجتمع" أو "الاغتراب الاجتماعي والاغتراب النفسي". يقول الباحث محمد أحمد فؤاد سعيد: "إن الاغتراب كلمة تحمل معانى

1. إدريس، يوسف، الحرام، مكتبة مصر، 1959م، ص: 98-99.
2. بروكس، كلينت، روائع التراجيديا في أدب الغرب، ترجمة د. محمود السمرة، دار الكاتب العربي، ط1، 1965م، ص: 245-287.
3. إدريس، يوسف، الحرام، مكتبة مصر، 1959م، ص: 101.

شديدة الاتساع والتباين حيث يشير مفهوم الاغتراب إلى الحالات التي تتعرض فيها وحدة الشخصية للضعف، والانهيار بتأثير العمليات الثقافية والاجتماعية التي تتم فى داخل المجتمع. ومن هذا المنطلق فإن العقد النفسية، وحالات الاضطراب النفسي، أو التناقضات تشكل صورة من صور الأزمة الاغترابية التي تعتري الشخصية. وهذا يعني فى النهاية أن مفهوم الاغتراب يشير إلى النمو المشوه للشخصية الإنسانية، حيث تفقد الشخصية مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والديمومة."1 تتمحور صور الاغتراب لشخصيات الأعمال الروائية المصرية فى القرن العشرين ولا سيما فى مرحلة الستينات وما بعدها فى جانبين مهمين:

الأول: الاغتراب الاجتماعي وفيه يكون الإنسان غريبا عن بيئته ومجتمعه بفعل ظروف اجمتماعية خارجية عن إرادته، تدفع به للعيش خارج الوطن. وهذا هو المعنى الأعم لمفهوم "الاغتراب".

والثاني: الاغتراب النفسي، وفيه يكون الإنسان غريبا عن نفسه برغم تواجده مع المجتمع. وذلك لإصابته بعدة أمراض نفسية تجعله يعيش فى المكان الذي ولد فيه ولمنه لا يشعر بالانتماء إليه، وقد جاء هذا الشعور نتيجة طبيعية لفقد الشخصية تكيفها مع الآخرين فى المجتمع.

وتبدو ملامح المحور الأول من الاغتراب واضحة فى روايات " قالت ضحى" و"شرق النخيل" للروائي بهاء طاهر، و"الطوق والإسورة" ليحيى الطاهر عبد الله، وتلك الأيام" للروائي فتحي غانم. وتبدو ملامح المحور الثاني من الاغتراب (الاغتراب النفسي) واضحة فى رواية "تلك الرائحة" للروائي صنع الله إبراهيم. بعد دراسة هذه

1 . سعيد، محمد أحمد فؤاد، نقد المجتمع من خلال روايات جيل الستينات، رسالة الدكتوراه، كلية الآداب، جامعة بنها، مصر، 2010م، ص: 24.

الروايات التي تصور مظاهر الاغتراب وأسبابه وآثاره المتباينة، يتضح لنا صور المؤسسات السياسية والاجتماعية، والأنماط الثقافية، والعوامل التاريخية والاقتصادية التي تحكمت فى الإنسان المصري بوجه عام والإنسان المصري الريفي بوجه خاص إبان فترة الستينات ومابعدها، ودفعت به أن يعيش خارج الوطن أو داخله تحت وطأة دوامات القهر والاغتراب منتظرا غدا مشرقا لا يتحقق أبدا.

الفصل الثالث

القضايا السياسية فى الرواية العربية الريفية المصرية

مما لا ريب فيه أن الروايات العربية تعبر عن هموم الأمة وآلامها وأحزانها ومشاكلها وتحمل كثيرا من القضايا الاجتماعية والسياسية من أمثال قضية الاغتراب، وأزمة الكتابة، والنقد، والعدالة الاجتماعية، وقضية المرأة، وقضية الديمقراطية، وأزمة الحرية، وحرب يونيو 1967م وحرب أكتوبر 1973م وآثارهما السلبية والإيجابية على المجتمع. تعد الرواية من أكثر الأنماط الأدبية تعقيدا، واستحضارا للواقع؛ فهي تتخذ من الأنساق الفكرية والأيديولوجية متكأ في تكريس العمل الأدبي، وبذلك تتشكل الرواية من بعدين أساسيين فكري وفني، وقد شكلت الراوية المصرية الريفية منبرا اعتلاه الكتاب لإيصال منتجاتهم الفكرية.

شكلت العلاقة بين التكوينين المدني والريفي مرجعية بحثية لا غنى عنها في فهم الشخصية العربية وتحليل اتجاهاتها ونزعاتها الفكرية والسياسية، واهتم علماء النفس والاجتماع بتفسير انعكاسات تلك العلاقة على السلوك البشري ومن ثم فسروا في ضوئها دلالات الأداء الاجتماعي العام للفعاليات السياسية والاقتصادية والثقافية، وصولاً إلى دراسة آثارها على النخب المجتمعية. وكان الإبداع الأدبي على صلة وثيقة بقضايا التحول والتضاد والاستمرارية بين الريف والمدينة في سياق البحث عن الذات. وشهدت العقود الخمسة الأخيرة من القرن العشرين تناولاً عميقاً لقضايا الريف

والفلاح والزحف المتبادل مع المدينة والتناقضات التي أفرزتها أطوار غير متوازنة من التماس بين تركيبين اجتماعيين مختلفين.

الرواية العربية في مصر كما في كل مكان آخر في العالم العربي سياسية لذلك نجد الأهمية السياسية لفكرة الأرض والفلاح انعكاسها بالضرورة في رواية القرن العشرين كما تعكس رواية القرية موضوعات تتصل بسوسيولوجيا الثقافة في النسق المصري الحديث حيث ترسم مشكلة الهوية الاجتماعية بالمعنى السياسي والفردي معا، وتوصف بصورة متكررة من خلال التصوير المجازي الصدام بين الريف والمدينة كما تعايشه شخصيات فردية أو مجتمعات برمتها.

وبدأ الكتاب والمثقفون في التعبير عن الاهتمام المتزايد بالفلاح في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، فقد كافح المثقفون المنتسبون إلى حركة عرابي لتعبئة الفلاحين ضد النظامين العثماني والبريطاني في مصر، وكجزء من هذه العملية نشأ خطاب للإصلاح الاجتماعي تمحور حول شخصية الفلاح باعتباره ممثلا لشخصية وطنية مفترضة. ولكي يقوم الفلاحون بدورهم كقوة عمل فعالة وحديثة.

قضية الأرض كموضوع رئيسي: وقد برزت الأرض كموضوع رئيسي للصراع في شكل قضاء حيوي للإقامة والتنقل أو المرور وفي شكل موارد أهمها الماء والمرعى والمعادن، والأرض، كفضاء حيوي للإقامة والمرور عرفت دورها كموضوع للصراع في قصة البطولة الخاصة بالغرب الأمريكي وحولها قامت كل الحركة السينمائية

خاصة في شكل أفلام رعاة البقر، وظهرت قضية الصراع على الأرض في القصص العربي وأبرزها أقاصيص بني هلال.1

ومن أشهر الروايات التي تناولت موضوع الأرض وعلاقة الإنسان بها وبملكيتها "الفلاحون" عام 1844م للكاتب الفرنسي بلزاك، و"الأرض" عام 1887م لأميل زولا ورواية "فونتمارا" عام 1930م للكاتب الإيطالي انيا تسيو سيلونة و"الأرض الطيبة" عام 1931م للكاتبة الأمريكية بيرل بك ورواية "أرض الله الصغيرة" عام 1933م للكاتب الأمريكي أرسكين كالدويل ولمواطنة جون شتاينبك رواية "عناقيد الغضب" عام 1939م.

وقد جعلت الرواية العربية قضية الأرض محوراً من المحاور الأساسية التي تدور عليها الأحداث –خاصة– وإن أغلب البلدان العربية تعتمد من حيث الإنتاج على ما تقدمه الأرض، إذ يشكل سكان الريف في المجتمع العربي حوالي 70% من السكان، ولكن هذه النسبة تختلف من بلد إلى آخر. ولهذا رأينا أن الأرض تكتسي بأهمية بالغة عند الروائي الذي يتناول الصراع الاجتماعي والفوارق الطبيعية، التي تبرز بصورة واضحة في الريف. لذلك عدت رواية "الأرض" عام 1954م للأديب المصري عبد الرحمن الشرقاوي أول رواية عربية تصور الفلاح في علاقته بالأرض، لأن الموضوع عند من سبقوا الشرقاوي كان مضحي به من أجل مشكلة الأديب أو فكرته وانتفت من امثل هذه الرؤيا العلاقة الإيجابية والدينامية بين الذات والموضوع وأصبح كل طرف من طرفي العلاقة يقف مفصولا عن الآخر. أحدهما قاض والآخر محكوم عليه إما عند الشرقاوي فثمة علاقة إيجابية وديناميةبين الذات والموضوع،

1. ممو، أحمد، دراسات هيكلية في قصة الصراع، الدار العربية للكتاب، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، ط1، 1984م، ص: 44-45.

وليس ثمة قاض ومحكوم عليه، وليس ثمة دائن ومدان ولكن تعاملاً بين الذات والموضوع لا يفقد أحد طرفي العلاقة ووجوه من أجل الآخر.1

قضية الأرض في رواية "الأرض": تناولت رواية "الأرض" للشرقاوي عام 1954م، الصراع القائم حول الأرض بين القوى الظالمة والإقطاعية وبين الفلاحين في الدفاع عن أرضهم وحقهم في الحياة الكريمة، إذ يصور الشرقاوي قريته ملتحمة بالإطار العام لظروف العصر المعقدة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً.2

فصراع الفلاحين في القرية لا ينحصر في مقاطعة الانتخابات وإعادة الدستور فحسب، بل يدور في واقعهم من أجل إعادة الري بعد أن انقصت الحكومة مدة الري إلى خمسة أيام بعد أن كانت عشرة أيام، وذلك يعني موت الأرض والزرع عطشاً من أجل إحياء أرض الباشا البور وكذلك الوقوف ضد استيلاء الباشا والإقطاعي محمود بك على أرضهم كي يشق طريقة يربط قصره بالقاهرة لذلك وقف الفلاحون بوجه الباشا الذي جاء يسلب الأرض من صغار الفلاحين، إلا أن تمسك الفلاحين بالأرض ليس لأنها مصدر رزقهم فقط وإنما تعد الأرض رمزا للتمسك بالشرف كما جاء على لسان وصيفة الشخصية النسائية الرئيسة، في الرواية حين تقول للراوي بأن الذي لا يملك القرية أرضاً لا يملك شيئاً على الإطلاق حتى الشرف.3 وإذا كانت الأرض تمنح الشرف والكرامة للإنسان، فإنها أيضاً تكون سببا في تماسك الإنسان الذي يبرز جوهره، وتحدده في هذه الرؤية ملكية الأرض، لأن فقدانها يعني فقدان السلطة

1. بدر، عبد المحسن طه، الروائي والأرض، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971م، ص: 134.
2. السيد، شفيع، اتجاهات الرواية المصرية منذ الحرب العاملة الثانية إلى سنة نقدية، دار المعارف، مصر، ط1، 1978م، ص: 173.
3. القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص: 153.

والوصول إلى الانحدار والإلغاء.1 كما حصل مع فووان في رواية "الأرض" 1887م، للكاتب الفرنسي أميل زولا عنما قسم أرضه على أبنائه الثلاثة، ليجد نفسه في نهاية الأمر ينتقل بين أبنائه الثلاثة، ويخضع لجشعهم وسوء معاملتهم، بعد أن فقد السلطة ملكية الأرض ثم ينحدر تدريجيا حتى بقتله أكثر أبنائه قسوة بوتو هو وزوجته أمام عيون أطفالهما.2 في حين تعد ملكية الأرض العنصر المركزي في رواية "عناقيد الغضب" 1939م للكاتب الأمركي جون شتاينبك وتمثل التعارض بين أصحاب الشركات والبنوك الرأسمالية، والفلاحين الذين يملكون الأرض، لهذا قالوا بعد أن استولت الشركة والبنك على أرضهم بسبب الديون بعد أن دمرت المزروعات بسبب العاصفة الترابية التي غطت ولاية أوكلاهوما بأن الأرض أرضنا، نحن قسناها، وحرثناها، نولد عليها، ونقتل ونموت عليها، حتى لو أصبحت أرضاً غير طيبة، فإنها أرضنا، هذا ما يخلق الملكية لا قطعة من الورق مسطر عليها بضعة أرقام.3 وإذا كان هذا الكلام صادراً عن فلاح في غرب أمريكا، فنجد أن رضا في رواية "الجنة العذراء" 1963م للكتاب المصري محمد عبد الحليم عبد الله إذ تتناول الرواية الصراع حول الأرض بين الاخوة حمودة و رضا فيدبر الأول مكيدة لزوجة أبيه أم رضا فتتهم زوراً في شرفها، فيكون ذلك سبباً لطردها هي وابنها من القرية، وعندما يرجع إلى القرية، ويطالب بحقه في الأرض، يقول للمحامي البتانوني بأن الحق الشرعي، ليس في حاجة إلى وثيقة، وبانت قضيتي هنا في الريف.. وهي قضية بلا وثائق.4 لذا فإن فقدان الأرض يعني فقدان الإنسانية والاغتراب والخضوع والذل لقوى الظلم وعالم

1. الشرقاوي، عبد الرحمن، الأرض، دار الشروق للنشر، القاهرة، مصر، 2017م، ص: 208.
2. زولا، أميل، الأرض، ترجمة: رفعت السعيد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص: 19-36.
3. بك، جون شتاين، عناقيد الغضب، ترجمة: سعد زهران، دار المعارف، مصر، ط1، 1971م، ج: 1، ص: 47.
4. عبد الله، محمد عبد الحليم، الجنة العذراء، مكتبة مصر، 1970م، ص: 103، 114-115.

الشركات الرأسمالية كما حصل مع فلاحو عناقيد الغضب.1 ورضا عندما اغترب عن قريته مكرها، ليخضع إلى عالم الذل والحاجة في المدينة.2 لذلك فتعلق الفلاح بالأرض، التي تمنحه الكرامة والصلابة والاستمرارية، فهذا عبد الهاديء في رواية "الأرض" يستمد قوته من هذه الأرض التي يمتلكها حتى لو كان فدان ويعرفها، فهذه الأرض الواسعة التي تمتد إلى جواره لتملؤها. إحساساً بالثبات والرسوخ والشرف... لم يكن يرى شيئا في الليل، ومع ذلك فقد كان يعرفها جيداً، يعرف وجهها وقنواتها وكل مسلك فيها.. ويعرف شكل أعواد الذرة التي بدأت تنبثق من الأرض على مهل.3 ونتيجة هذه العلاقة الوثيقة بين الفلاح وأرضه، نجد أن هجرته للأرض، يصبح قرارا بالغ الصعوبة إن لم يكن امرأة مستحيلا، لأن الإنسان في هذه الحالة أشبه ما يكون بغرس في الأرض، فإذا ما اجتث من جذوره، فلا أحد يضمن حياته، حتى لو غرس في أرض أخرى، لذلك نجد زاير راضي في رواية "الظامئون" عام 1967م للكاتب العراقي عبد الرزاق المطلبي التي تمثل الواقعية الحديثة في الرواية العراقية.4 إذ تتناول الرواية موضوع الجفاف الذي يصيب القرية بسبب انقطاع المطر ورفع قيمة العمل بدل الفرار والهجرة، يقف في وجه من قرر الهجرة وترك الأرض، هذي أرضك.. شهدت مولدك.. رددت سماؤها صرخاتك الأولى.. وترحل منها؟ والله أنا لو أعطوني أي شيء وبه منة من إنسان لرفضته حتى لو مت جوعا هنا نعيش بعزة وكرامة. فأين يريد بنا هامل لن يرحل معه أحد..أبداً5. وقد تأثر المطلبي في صراع أبطاله مع الطبيعة الممثل في حفر البئر وإيمانهم بالأرض، وبأنها ستجود عليهم

1. بك، بيرل، الأرض الطيبة، روايات الهلال، ط1، 1952م، ص: 54-81.
2. عبد الله، محمد عبد الحليم، الجنة العذراء، مكتبة مصر، 1970م، ص: 38، 54.
3. الشرقاوي، عبد الرحمن، الأرض، دار الشروق للنشر، القاهرة، مصر، 2017م، ص: 47.
4. زجاجي، باقر جواد، الرواية العراقية وقضية الريف، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1980م، ص: 179-188، 191-296.
5. المطلبي، عبد الرزاق، الظامئون، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، العراق، 1967م، ص: 118-22.

بالماء، يبطل رواية "أرض الله الصغيرة" عام 1933م للكاتب الأمريكي ارسكين كالدويل وإيمان بطلها بالأرض التي ظل بحفرها خمس عشرة سنة بحثاً عن الذهب، وبأن الأرض في يوم ما ستجود عليه بالذهب ولم يفطن بأن الذهب الذي تمنحه الأرض من خلال خدمة الأرض والعمل فيها.1

قضية الأرض في رواية "البيات الشتوي": إن تعلق الفلاح بالأرض ونظرته بالتبجيل إلى ملكيتها، يجعله يحاول حيازتها، فهو حتى لو هاجر إلى المدينة يحلم بالعودة إلى القرية لشراء الأرض، إذ يعد ذلك مفخرة للعائلة، إما التفريط بالأرض فيعد نكبة تحل بالعائلة وعاراً يلحق بها2. لذلك شعر ورداني في رواية "البيات الشتوي" عام 1974م للكاتب المصري محمد يوسف القعيد التي تمثل الواقعية الجديدة في الرواية العربية3. فتتناول قدوم ابن المدينة إلى القرية لغرض حفر بئر بترول فيها، فيأخذ أهل القرية السوالم بالأحلام وإن حياتهم سوف تتغير في كل النواحي الاقتصادية والاجتماعية بسبب ما يعيشون فيه من فقر وحاجة لكن المشروع يتوقف ويسافر المهندس بعد أن تريك في نفوسهم الأمل بأنه عندما سلم الأرض إلى المهندس عصمت بأنه قد خان العائلة وإن عظام أبيه قلقة في قبره، كان يجب أن يدافع عنها، حتى ولو ذهب إلى السجن. قال ورداني: في صباح الغد، سيذهب إلى الحقل. هناك سيواجه أرضه بمفرده، الأرض أصبحت غريبة عليه، وفي القلب والعين، ينموا إحساس مر بالخيانة4. وعلى الرغم من إحساس ورداني بالخيانة إلا أنه كان يؤمن بأن الأرض لن تبوح لغيره بسرها.

1. كالدويل، ارسكين، أرض الله الصغيرة، ترجمة : منير البعلبكي، دار العلم للملايين، مصر، 1933م، ص: 15.
2. غيث، محمد عاطف، القرية المتغيرة، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1964م: 224.
3. الورقي، سعيد، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1982م، ص: 279.
4. القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، ص: 153.

لذلك فملكية الأرض لا يعادلها كنوز الأرض، فماذا كان يفعل بالكنوز إذا كان لا يملك أرض، وهذا ما قاله أحد الفلاحين في رواية "الأرض" عام 1954م، عندما عرف بأن الحكومة الباشا سوف تأخذ أرض محمد أبو سويلم وحا يعمل ايه بفلوس التعويض؟ واللا يبقى حا يتاجر؟ حا يعمل ايه بالفلوس بعد ما اخدو الأرض؟ حا يشتري أرض ثانية.. ومنين في البلد يبيع أرض1. في حين أصدر الاحتلال العثماني في نظام ملكية الأرض (الطابو) عام 1889م في الأقطار العربية الخاضعة له محاولة لتحسين وضع الفلاح وتملكه للأرض الزراعية ولم يستفد من هذا القانون الا كبار الملاك والإقطاعيين الذين بدأوا يمتلكون الأرض الزراعية ويحرمون مئات الفلاحين في مختلف المناطق من الوطن العربي.2 لذلك وجد الإقطاعيون وكبار الملاكين ذلك ذريعة بأن الأرض ملك لهم ولأجدادهم منذ أيام (آل عثمان) كما برر ذلك الإقطاعي رضوان بك الغريب في رواية "متى يعود المطر" للكاتب السوري أديب نحوي بأن الأرض التي استولى عليها بالخديعة مرة وإغراق الفلاح بالديون مرة أخرى له وإن هذه الأرض ملك آبائه وأجداده منذ أيام العثمانيين، لقد أعطاهم إياها السلطان فكيف يرى الله هذه الحكومة الجديدة تأخذها منه ويرسل إليكم المطر3.

قانون الإصلاح الزراعي ورواية "الأرض" للشرقاوي: وعندما قامت الثورات العربية وحررت الفلاح العربي من الظلم والقهر، فأصدرت قوانين الإصلاح الزراعي الذي يقضي بتوزيع الأراضي الزراعية، التي صادرها الإقطاعيون وكبار الملاكين من الفلاحين والمعدمين وتحديد ملكية الأرض الزراعية، ففي مصر وهي أول الأقطار العربية التي أصدرت هذه القوانين، نص قانون الإصلاح الزراعي رقم (178) لسنة

1. نفس المصدر، ص: 53.
2. خيري، زكي، المسألة الزراعية، مطبعة الشعب، بغداد، 1974م، ص: 25.
3. نحوي، أديب، متى يعود المطر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1960م، ص: 29.

1952م على أن يكون الحد الأعلى للملكية الزراعية عشرين فدان إلا أن الحاجة الملحة ظهرت بعد ذلك بإنقاص هذا الحد إلى عشرة فدادين بموجب القانون رقم 27 لسنة 1961م. أما الحد الأعلى للملكية الزراعية في العراق حسب قانون الإصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958، أن يكون ألف دونم في الأراضي المروية، وألفي دونم للأراضي التي تسقي ديما. وجدير بالذكر أن قانون الإصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958م لم يكن قانونا متكاملا، إذ أعطى للإقطاعي حق الاختيار والتعويض لذلك دخل الفلاح في صراع مع الإقطاعي وبعض البرجوازيين المتطلعين إلى الثراء بكل وسيلة فاتخذت من المراكز الإدارية والسلطة غطاء لتمرير مشاريع الإقطاعي، ولتضمن مصالحها، فقانون الإصلاح الزراعي الذي أقر مبدأ التعويض والاختيار، نجد أن مبالغ التعويض التي ألزم الفلاحين بدفعها خلال عشرين سنة ضخمة ومبالغ فيها إذ قدر مجموع ما سيبلغه مقدار التعويض مئة وخمس وعشرين مليون دينار أي أن ما يدفع شهرياً للإقطاعي الواحد ستة آلاف دينار. أما حق اختيار الإقطاعي للأرض فنجده اختار الأرض التي تطل منافذها على الماء، وبذلك حرم الفلاحين من الوصول إلى منافذ الماء أو وضع المكائن في أرضه، وهذا ما نجده في رواية "الأشجار والريح" 1971م للكاتب عبد الرزاق المطلبي التي تتناول الصراع بين الفلاحين الذين يريدون وضع الآلة، فيستطيعون زراعة أرضهم فيتخلصون إلى الأبد من استغلال الإقطاعي عناد الذي أغرقهم بالديون نتيجة استخدام الماكنة التابعة له، وبسبب ذلك لم يجدوا قوت يومهم ثم رفض عناد نصب ماكنة الفلاحين في أرضه، مدعياً بأنها تصيب أرضه بالضرر، إلا أن الفلاحين لم يستسلموا لهذا الادّعاء إذ يقول سعيد: هو يريدنا أن نزرع أرضه.. ونحن نريد أن نزرع أرضنا.. قال المدير،

وإذا اتفق معكم.. هل توافقون؟ قال عباس: وماذا تتفق معه؟ هي أرضنا ونريد أن نزرعها بأنفسنا.. قال المدير: وتنصبون ماكنتكم في أرضه؟.. عباس وأين نضعها والشاطيء كله ملك له.. والله استاذ احنة نريدها منك.. أنتم أعطيتمونا هذه الأرض السبخاء والأرض تريد ماء. لكن الإقطاعي عناد حاول أن يقف بوجه هذا المشروع الذي يحلم به الفلاحون كي يتخلصوا من الاستغلال الاقتصادي للإقطاعي عناد المحتمي بالقانون الجديد، في اختياره الأرض المطلة على النهر. لكن الفلاحين نصبو ماكنتهم الإروائية عنوة، بغية توصيل الماء لأرضهم العطشي، وقد جسد الفلاح سعيد عن تصميم الفلاحين في الدفاع عن مشروعهم كلهم يقولون: ندافع عنها حتى لو صارت الحكومة معك وحاربتنا. أي يا عناد. وقد قام الإقطاعيون وكبار الملاك في محاولة لضغط على الحكومة لإيقاف تنفيذ قوانين الإصلاح الزراعي عن طريق تخريب الإنتاج كإيقاف المضخات والآلات الزراعية عن العمل، والامتناع عن إعطاء الفلاحين قروض مالية والامتناع عن التعاقد معهم لزراعة الأرض. وإذا كان الفلاح قبل قوانين الإصلاح الزراعي يعرف الإقطاعي، والقوى الظالمة، فإنه بعد ذلك القوانين ضاع عليه الأمر، لأن الذين ارتدوا رداء الشرعية والثورية وتسللوا إلى المراكز القيادية، وراحوا يمارسون أساليبهم في الاحتيال على القوانين، والتنكيل بمن يتصدى لهم من الفلاحين البسطاء إذ لمسوا منهم رفضا لتصرفاتهم أو إدانة لها[1].

وهذا ما تصوره رواية عبد الرحمن الشرقاوي الفلاح عام 1968م، التي تتناول الصراع بين رزق بيه الذي يفكر بعقلية طبقته الإقطاعية التي قضت عليها قوانين الإصلاح الزراعي، إذ رشح نفسه أمينا للجنة الاتحاد التعاوني، فأخذ يستغل آلات

1. ينظر: اتجاهات الرواية المصرية: 179.

الجمعية التعاونية الزراعية في أرضه بالمجان، بعد أن توطدت علاقته مع مشرف الإصلاح الزراعي، إذ مكنه الأخير من عشرين فدان من أجود أراضي الإصلاح، فضلا عن أرض الفلاح الفقير سالم فأثار هذا التصرف لجنة الاتحاد الاشتراكي في القرية، وعلى رأسها الفلاح عبد العظيم ومدير مدرسة القرية، عبد المقصود أفندي وعندما قرروا عقد اجتماع لمحاسبة رزق بيه قال الأخير لهم خلاص.. ما فيش اجتماع للجنة الاتحاد.. أنا الأمين. أنا قررت وقف الاجتماعات.. واللي عاوز يجتمع يتحمل هو مسؤولية عمل اجتماع غير قانوني. الاجتماعات موقوفة وخلاص. ولأن علاقة القمع والظلم تحتاج باستمرار إلى تغذية نرجسية الظالم وتضخيم (الانا) حتى لا يتهددها بروز الحس الإنساني والتعاطف النابع من التكافؤ بين (الانا) والآخر، فكان استمرار العنف والظلم والتعسف، واستمرار التبخيس الذي يصيب إنسانية الإنسان المسحوق اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. نجد ذلك التسلط عند رزق بيه الذي يصلب الفلاح الفقير سالم لأنه طالب بحقه في الأرض، ولم يكتف رزق بيه بذلك بل يأتِ بإسماعيل الذي يدعي أن الحكومة قد أرسلته، وبقدوم إسماعيل إلى القرية يسترجع أهلها ذكريات الرعب والخوف والسيطرة والسلطة الغاشمة عندما يقول لهم إزاي تعملوا اجتماع رغم إرادة رئيس الجمعية التعاونية وأمين لجنة الاتحاد الاشتراكي.. دي عيب فوضوية دي فوضى.. ده يعتبر تحدي لتنظيمات الدولة1. ولا يغيب من تاريخ مصر في الستينات مدى ما لحق بالاتحاد الاشتراكي من تورم واختلط فيه العضو الصحيح بالمريض، وانطمست فيه الحدود الفاصلة بين الحق والباطل، وتحول إلى مجرد براعة تحت ألفاظ جديدة2. فالمحامي برعي الذي يمثل

1. الشرقاوي، عبد الرحمن، الفلاح، دار الشروق، مصر، 2005م، ص: 103.
2. ينظر: اتجاهات الرواية المصرية: 184-185، في الرواية العربية المعاصرة: 202.

الجنة الاتحاد الاشتراكي في (المركز) والذي كان يجب أن يدافع عن حقوق المظلومين، نراه يقف إلى جانب رزق بيه ويحول الفلاحين إلى الجهة المعادية ويعيد بغير وعي منه ما سبق أن قاله، عندما يسأله الراوي عن مصير الفلاحين المعتقلين أي فلاح او أي عامل يثير مناقشات تعطل العمل يعتبر مخرب، قطعا أي فلاح يثير الجو ضد المالك لمجرد أنه مالك فهو يعتبر ضد الميثاق. ده (رزق بيه) رجل له مكانته يا سعادة البيه.. دول ناس ضد الاشتراكية.. ودول شيوعيين.. ضد الميثاق. لكن أنا حبيت أنورك. هذا فلاح رجعي وشيوعي وعميل إقطاعي وضد الاشتراكية1. وتحويل كل شخص يبدي المعارضة على الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية إلى الطرف المعادي أي اليسار، نجدها في رواية عناقيد الغضب 1939م، هذه العادة الأمريكية في تحويل كل شخص إلى غير أمريكي عندما يبدي المهاجرون بعض المعارضة على الظروف الاقتصادية والاجتماعية لسنا أجانب، إننا أمريكييون من سبعة أجيال، وقبل ذلك إنجليز أو ألمان، كان أحد أجدادنا في الثورة، وكثيرون من أسلافنا اشتركوا في الحرب الأهلية في هذا الجانب أو ذاك، نحن أمريكيون.

ولذلك فلا عجيب أن يتحول الجهاز الأمني الحكومي في يد هؤلاء (رزق بيه) و(برعي) أداة قمع وتسلط وسيف على رقاب أهل القرية عبد العظيم وعبد المقصود وسالم فيساقون إلى سجن المركز. ويصبح إسماعيل الذي جاء به رزق على أنه يمثل الحكومة بالقرية مرة أخرى يقبل من المدينة رجل غريب. غريب الثوب والتصرفات واللسان والهيئة، يلقى أوامر قاطعة، ويحمل إلى القرية ذلك الخوف من المجهول

1. الفلاح، ص: 190.

الذي كانت قد نسيته القرية. مرة أخرى تستقبل رجل المدينة بالشك1. وإذا انتهى الأمر في رواية الأرض 1954م، إلى ضياع جهود الفلاحين بعد أن خرجوا من السجن إذ عبد الطريق وعليهم أن يتكيفوا مع الواقع الجديد. فإن الفلاحين في رواية "الفلاح" 1968م، بعد أن تم الأفراج عنهم، أحيط بمن دبرتهم الوقيعة، وإن ظل الصراع قائمة بين هؤلاء المستغلين والفلاح.

وكان قانون الإصلاح الزراعي رقم 161 لسنة 1961م كخطوة أولى لحل جزء من مشاكل العمل الزراعي في الريف السوري، عند قيام الوحدة بين (مصر وسوريا)، حيث تم تحديد الملكية الزراعية بموجب هذا القانون، بأن لا تزيد على ثمانين هكتاراً في الأرض المروية، ولا تزيد عن ثلاث مئة هكتار في الأرض التي تسقى ديماً (بعلية)2. وقد سمحت هذه القوانين للملاك والإقطاعيين الذين يملكون أكثر من حدود الملكية المشار إليها بالتنازل لكل من الأزواج والأولاد عن مساحة من الأرض على أن لا تتجاوز حدود الملكية الزراعية التي تم تحديدها3. لذلك حاول عدد من الإقطاعيين وكبار الملاكين تسجيل أراضيهم باسماء الفلاحين والضغط عليهم فيما بعد إلا رجاعها. كما فعل بو الأرواح في رواية "الزلزال" 1974م للكاتب الجزائري الطاهر وطار والتي تتناول تفكك الطبقة الإقطاعية وعجزها عن مواجهة الحاضر بكل ما يحمل من ريح التغير، إذ أخذ بو الأرواح يبحث عن أقاربه، الذين أخذ أرضهم بالسرقة حيناً وبالخديعة حيناً آخر، جئت أقطع الطريق بين الحكومة وبين أرضي بتسجيلها على أقاربي، شرط أن لا يحوزها أو ينالوا ثمارها إلا بعد أن أموت.

1. الفلاح بالفلاح: 104.
2. ينظر: المجتمع الريفي العربي والاصلاح الزراعي : 107.
3. ينظر: المصدر السابق: 107.

الفساد السياسي والإداري واستغلال المناصب: يدور مفهوم الفساد السياسي حول سوء استخدام السلطة أو النفوذ العام بهدف الانحراف، وذلك لتحقيق المصالح الخاصة أو الذاتية، بطريقة غير شرعية، ودون وجه حق. إن الفساد السياسي نشأ فى السنوات ما قبل ثورة يوليو 1952م، وتجدد فى سنوات الستينات، ثم امتد واستفحل شأنه فى عقدي السبعينات والثمانينات. فلم يبق في المجتمع المصري كثير من القيم الديمقراطية، واحترام الحقوق والحريات والمساواة للمواطنين، "وكما أنه على المستوى الاجتماعي، لم يوفر الحد الأدنى من القيم الاجتماعية فزادت كثرة الاعتداءات على أموال الدولة، واستغلال النفوذ، وشيوع قضايا الرشوة المحسوبية، وزيادة العمولات لتسهيل الخدمات العامة، وازداد المناخ العام سوءا وتمردا"1.

فصور الكتاب هذا الواقع المهين من خلال خطاباتهم الروائية المتوالية، وتتجلى مظاهر الفساد السياسي والإداري واستغلال المناصب بوضوح فى روايتي: " قالت ضحى" لبهاء طاهر، و"بيت الياسمين" لإبراهيم عبد المجيد.

قمع الحريات والاستبداد السياسي: إن قمع الحريات، والاستبداد السياسي، ووأد الفكر وإجهاض حق المشاركة والنقد، وانتزاع الأمان، وسيطرة الخوف، والقهر والتضييق كان من أكبر مشاكل مصر فى مرحلة الستينات وما بعدها التي يعاني بها المجتمع المصري الريفي والمدني كلاهما. فأصبح محور القمع والاستبداد السياسي من أهم المكونات الأساسية في الخطاب الروائي المصري. فجاءت الكثير من الروايات تتحدث عن غياب الممارسة الديموقراطية، وتندد بعدم احترام الرأي الآخر والاعتراف

---

[1] Vincent, Andrew, Modern Political Ideologies, Cambridge, Massachusetts, Black Well . Publishers INC, 2nd Edition, 1995, P: 22 .

به. ومن الروايات التي اهتمت بقضية قمع الحريات والاستبداد السياسي اهتماما كبيرا رواية "تلك الرائحة" لصنع الله إبراهيم. جاءت هذه الرواية لترسم ما أصاب الإنسان المصري البسيط في فترة الستينات من قمع وقهر واستبداد سياسي وكبت للحريات، فأجادت في تصوير التناقض بين روعة إنجازات ثورة 1952م وبشاعة التعذيب في السجون وقمع للحريات، والتناقض بين المعلن والمتحقق في مجال السياسة. فالرواية في مجملها تطرح أكثر من سؤال على لسان بطلها: "لماذا تحارب الدولة كل من يخالفها الرأي؟ أين الشعار الديموقراطي والحرية المسلوبة.....؟"[1]

فاتضح مما سبق أن السياسة أصبحت محورا فكريا في الرواية الريفية في مصر، مهما تنوعت مواضيعها، وتعددت أبعادها الاجتماعية والواقعية، وجنحت إلى الحداثة الشكلية والتنويع الفني. فإن الرواية الريفية المصرية تعبر عن الأطروحة السياسية إما بطريقة مباشرة وإما بطريقة غير مباشرة. لذلك نقول إن السياسة حاضرة في كل الخطابات والفنون والأجناس الأدبية. وتتمظهر بجلاء ووضوح في فن الرواية التي تعكس نثرية الواقع وصراع الذات مع الموضوع والصراع الطبقي والسياسي والتفاؤت الاجتماعي وتناحر العقائد والإيديولوجيات والتركيز على الرهان السياسي من خلال نقد الواقع السائد واستشراف الممكن السياسي.

[1]. إبراهيم، صنع الله، مقدمة رواية تلك الرائحة وقصص أخرى، دار الهدى للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 2003، ص: 14.

الباب الثالث

يوسف القعيد وكتاباته حول الريف المصري

الفصل الأول: موضوعات ريفية في كتابات يوسف القعيد

الفصل الثاني: تجليات الريف في كتابات يوسف القعيد القصصية

الفصل الثالث: تجليات الريف في كتابات يوسف القعيد الروائية

الفصل الأول

موضوعات ريفية في كتابات يوسف القعيد

ترك يوسف القعيد مؤلفات عديدة في شتى المجالات الأدبية والعلمية، والاجتماعية والسياسية. واهتم في معظم كتاباته بالمحيط القروي، إنه خلف وراءه تراثا ضخما ومن هذه الكتابات ما يلي:

بلد المحبوب، وشكاوي المصري الفصيح، وطرح البحر، وفي الأسبوع سبعة أيام، وقطار الصعيد، ولبن العصفور، ومرافعة البلبل في القفص، ومن أوراق النيل، ومن يخاف كامب ديفيد، ومفاكهة الخلان في رحلة اليابان، ومحمد حسين هيكل يتذكر عبدالناصر، والمثقفون والثقافة، والكتاب الأحمر، ورحلاتي في خريف، والحلم السوفيتي، ومن يذكر مصر الأخرى، ووجع البعاد، وأربع وعشرون ساعة فقط، وأخبار عزبة المنيسي، وأصوات الصمت، والبكاء المستحيل، والبيات الشتوي، والحداد، والحرب في بر مصر، والفلاحون يصعدون إلى السماء، وكتاب إطلال النهار، وأيام الجفاف، ويحدث في مصر الآن، والقلوب البيضاء، ونجيب محفوظ إن حكى...ثرثرة محفوظية على النيل، وقسمة الغرباء، والضحك لم يعد ممكنا والأعمال الأخرى العديدة.

إن الانتماءات الاجتماعية والطبقية باتت من الأسباب الرئيسة لتجلي الريف المصري في كتاباته الأدبية وغير الأدبية. فلابدّ من الإلمام بخلفية القعيد الريفية التي دفعته إلى اهتمام الريف في كتاباته عن الفلاحين.

وقد أجرى الكاتب علي عبد الفتاح حوارا مع يوسف القعيد، والذي أدلى تصريحات عن انتماءاته الاجتماعية الريفية مما نتجت الإشارات إلى الأسباب المؤدية إلى الكتابة عن الريف ولأجل قضايا الفلاحين. ويستفاد من حواره أنه بالرغم من انتمائه إلى الطبقة الوسطى التي استفادت من انفتاح السادات رغم رفضها له، إلا أنه لم يصبح بعد جزءا من البرجوازية العربية المستغلة، فهو قريب جدا بحكم نشأته من الطبقات الفقيرة في القرية المصرية، وأسرته لا تمتلك أرضًا على الإطلاق، حيث كان والده يعمل في أرض مستأجرة. وفي المدينة عاش قريبا جدا من الطبقات الكادحة، حتى في روايته "شكاوي المصري الفصيح" التي تدور أحداثها في المدينة اتخذ سكان القصور من بين الفقراء، وإنه لم يعرف حياة القصور، ولم يقترب من حياة الأغنياء. يرى يوسف القعيد أنه فلاح وابن قرية أصلا، ويكتب عن الفلاحين. ويرى أنه فرق بين أن يكون فلاحا ويكتب عن الفلاحين وهو بينهم، وبين أن يخرج عن زهرة الفلاحين ويكتب عنهم، حيث أنه ابن القرية المصرية لكنه يكتب عن نيابة عن الفلاحين، ولكن على الرغم من ذلك لا يستطيع أن يتنكر لكونه ابن للقرية، حيث انتمائه للفقراء المصريين ومسئوليته هي التعبير عنهم. يقول: "إنني تحولت من فلاح يكتب أدب فلاحين إلى مثقف يكتب عن الفلاحين"1.

وهذا الهاجس والهم الريفي والانتماء الاجتماعي أدى إلى التعبير عن الريف المصري وأهل الريف، مما يتجلى الريف من خلال كتاباته القصصية والروائية، كما ستأتي الدراسة في الفصول القادمة.

1 . عبد الفتاح، علي، مع يوسف القعيد، جريدة القبس الكويتية، الكويت، 8 نوفمبر، 1984م، ص: 3.

وقد سبقت الإشارة إلى أن العديد من الكتاب العرب وعلى رأسهم المصريين تناولوا الريف في كتاباتهم، وتحدثوا عن الريف ومظاهره، وعلى رأس هؤلاء الكتاب محمد حسين هيكل في "زينب"، وطه حسين في "دعاء الكروان"، ومحمد عبد الحليم عبد اللهك في "لقيطة"، و"بعد الغروب"، و"شجرة اللبلاب"، وثروت دسوقي أباظة في "هارب من الأيام" و"قصر على النيل"، وتوفيق الحكيم في "يوميات نائب في الأرياف"، و"نجيب محفوظ" في "ميرامار"، وعبدالرحمن الشرقاوي في "الأرض"، و"قلوب خالية" و"الفلاح".

ومن الأمور المهمة أن الريف يحتل مكانة بارزة لدى الكتاب المصريين أكثر بكثير من الكتاب الآخرين، ويكفي لهذه المكانة أن الأدب الروائي نشأ في مصر في حضن الريف أو القرية ثم خرج إلى المدينة، في حين نشأ هذا الفن في أوروبا في حضن المدينة والمطبعة الأوروبية1.

تصور الكتابات المصرية الريف بما فيه الفلاح على رأسهم، والذي يبدو بريئا فقيرًا، مستغَلا، والإقطاعي ظالما مستغِلا، كما يعتبر تصوير جرائم الإقطاع، ومعركة الفلاحين لنيل حقوقهم من الإقطاعيين من الموضوعات الرئيسية في الكتابات ذات الطابع الاشتراكي، سواء كانت هذه الكتابات أدبية أو غير أدبية. والأرض والصراع حول الأرض، ولأجل لقيمات العيش بين الشرائح الريفية أيضا وجدت مكانة مرموقة في الكتابات الريفية. ومعظم الكتابات تدور حول الفلاح والأرض؛ والفلاح يقضي جلّ أوقاته في الأرض لكي يأكل من ثمرة جهده وكدّ جبينه، غير أنه مساعيه يذهب سدىً وإن تثمر الأرض أشهى ثمرات لكن الثمرات لا تدخل في بيوت الفلاحين بل

1. ناظميان، رضا، أدب الريف في رواية "الأرض" للشرقاوي، و"كليدر" لدولت آبادي، مجلة إضاءات نقدية (فصلية محكمة)، إيران، السنة الخامسة، العدد التاسع عشر، أبريل 2015م ص: 89.

ترسل إلى الأسواق لكي يستفيد من بيعها الملّاك ويتلذذ من تذوقها أبناء المدينة! في حين تصبح ثمرة جهود الفلاحين حسرة أليمة تذيب قلوبهم، وبه تتشوه صورة الريف وتتحول إلى مستنقع يفوح منه رائحة قذرة كريهة تؤذي كل ما يمرّ بها، غير أن هذه المظالم تخلق جوا من المقاومة، ويخوض الفلاح وأهل القرية ساعيين في سبيل الحرية والعدالة1.

يقول رضا ناظميان عن أهمية موضوع الريف في الكتابات العربية:

"كان الريف من أهمّ الموضوعات التي رددها الكتاب في آثارهم بما فيه من صفاء ونقاء، ودبيعة لم تفسدها المدينة المصطنعة وبما فيه من ظلم، وعسف، وحرمان، وتمييز يشوّه وجوهه ويكدّر صفائه. فقلّما نجد شاعراً أو كاتبا لم يكتب عن الريف وما يعانيه القرويون من ظلم وتعسف وحرمان أو ما يزين الريف من طبيعة ساحرة وطيور مغرّدة وأشجار باسقة خاصة الرومانسيين الذين قد تغنّوا طويلا بالريف ومباهجه، والواقعيين الذين شمروا عن السواعد وقاموا بالعمل الجاد والدؤوب من أجل التعبير عن مشاكل الريف والصعوبات التي يواجهها الفلاحون الذين يقضون معظم وقتهم في المزارع مقابل أجر زهيد لا يسدّ جوعهم ولا يملأ بطنهم"2.

كما سبقت الإشارة إلى أن القعيد من رواد الأدب العربي القصصي في مصر، والذي عُرف باهتمامه بالتعبير عن المحيط القروي المصري وما يتعلق من قضايا وأمور، وبرزت تجليات الريف المصري في كتاباته بشتى أشكاله وصوره. إنه يعتبر لسانا ناطقا بالريف المصري من بين الأدباء المصريين في مرحلة ما بعد نجيب

1 - نفس المرجع، ص: 90.
2 - المرجع السابق، ص: 85.

محفوظ، وحازت روايته "الحرب في برّ مصر" على المرتبة الرابعة ضمن أفضل مائة رواية عربية1.

ومن موضوعات الريف في كتابات الأدباء المصريين بوجه عام وفي كتابات القعيد بوجه خاص هي ما يلي:

موضوع الأرض: يعتبر موضوع الأرض من الشواغل الأساسية لكتابات القعيد، حيث اكتست العناية بالفلاح والحياة الريفية مكانة بارزة في الفكر العربي عامة، والأدبي على وجه خاص، والسبب يعود إلى ثلاثة أمور:

أولا: بنية المجتمع المصري الذي يشكل الفلاحون الأغلبية الساحقة وقاع السلم الطبقي فيه.

ثانيا: وانتماء القعيد إلى أصول ريفية.

ثالثا: بات الريف هو المكان الأنسب للكشف عن أمراض المجتمع وعلله؛ فعلاقات أهله البسيطة، وحياتهم الخالية من التعقيد تسهل تتبع المشكلات الطارئة على حياتهم، والقضايا المعكرة لمزاجهم والحائلة دون سعادتهم وهنائهم، وبالتالي تسهل فضح المستغل، ومعرفة مدى ظلمه وإيذائه للضعيف المستغل؛ في حين يصعب الكشف عن المساوئ الاجتماعية في المجتمع المدني، والذي يشكو من الحساسية الاجتماعية والنفسية المفرطة، والكشف عن الفضائح لا تخلو من المآزق القانونية وما إلى ذلك، ومن ثم اختار الكتاب العرب بشكل عام الفضاء الريفي لسرح الخواطر وعرض الحقائق

1 - من ملاحظات الزوار على موقع غود ريدس على كتب يوسف القعيد، حيث بلغ عدد المتابعين لأعمال القعيد على ذالك الموقع نحو 280 متابع، يمكن الإطلاع على تلك الملاحظات من خلال الرابط التالي:
(https://www.goodreads.com/book/show/18626099)، تاريخ الزيارة: 03/26/ 2019م، بتوقيت الهند: 06:13 مساء.

على مسرح القرى والأرياف. فقد حاول القعيد التعبير عن هذا المجتمع الريفي بحكم الاطلاع على دواخله وشئونه من زوايا ورؤى متعددة ومتنوعة حيث تعكس الروح الريفية المنتشرة في داخل الكاتب.

الأرض بالنسبة للفلاح شيء مهم للغاية، ومن ثم خاض الروائي في مسألة الصراع على الأرض، وشخصيات رواياته وقصصه تدور حول الأرض، وتسعى لأجل الحصول على خيراتها، والإقطاعي الذي يبدو في صورة حية بارزة في كل كتاباته خاصة الروائية والقصصية، وهو يهيمن على الأرض، ومصادر الدخل القومي في الريف.

موضوع معاناة الريف: عالج القعيد في كتاباته معاناة الريف في ظل الإقطاعية والنظام البوليسي وما لاقاه المجتمع من حيف جراء استيلاء المعمرين والإقطاعيين على أخصب الأراضي وطرد أهلها إلى الأراضي القاحلة الجدباء، إضافة إلى فرض الضرائب الباهظة المتنوعة، كما عمل المستعمرين على إفساد المجتمع بنشر الرذائل وتشجيع تعاطي المخدرات، وفتح بيوت الدعارة مما زاد الطين بلة أن محاصيل الريف تعرضت للجفاف والعاهات، والتي أدت إلى مزيد من معاناة أهل الريف.

موضوع المرأة الريفية: تحتل المرأة مكانة بارزة في المجتمع الريفي الذي يتحدث عنه الكتاب المصريون أو الذي تحدث عنه القعيد، وتوحي القراءات العابرة لكتابات القعيد أن المرأة المصرية الريفية تبدو كوجود إنساني له ثقله ودوره وعلاقاته وأسبابه الاجتماعية المرتبطة بحركة المجتمع وتطوره، والمرأة في كتابات القعيد وليدة المجتمع القروي؛ لبيئته وعوامله الاقتصادية، والاجتماعية تأثيرات ومن هنا برزت المرأة الريفية كشخصية بارزة بسمات كلية متميزة من حيث الوعي والملامح والسلوك. والمرأة في كتابات القعيد تشكو

من المعاناة والقسوة وتطبع حياة المرأة عليها؛ فقد حاول القعيد إبراز معاناة المرأة الريفية ومشكلاتها العائلية، كما سعى إلى إظهار جمالها على حدود فهم الجمال لدى الريفيين. كما حاول الكشف عن ملامح متنوعة لصورة المرأة الريفية؛ فلم يتعاملوا معها منفصلة في وجودها عن المجتمع، بل حالة إنسانية مرافقة للرجل ولقانونه، وقانون المجتمع وخضوعها للمجتمع الرجالي.

والمرأة الريفية تطلب الراحة، لأنها تؤدي عدة أدوار في الحياة الريفية، غير أن هذه الأعمال والأدوار لا يعترف بها أحد، فأصبحت المرأة مخلوقا من الدرجة الثانية أو الثالثة لا كيان ولا قيمة له1.

موضوع الكتلات الريفية: التزم القعيد في كتاباته القصصية والروائية بوجه خاص بالتعبير عن هموم الفرد والجماعة، والفئات الاجتماعية المتنوعة، فالكتلات الريفية الجماعية حاضرة في كتاباته فعلًا وسلوكاً إنسانيًا، إذ حاول تقديم صورة مجسدة لحقيقة كائنها الإنساني. وصورة الجماعة تبدو في كتابات القعيد كإحدى السمات البارزة؛ فالناس يتقابلون يوميا، متحابين، متعاونين ومتآزرين غير أنهم في الوقت نفسه يراقبون بعضهم ويتحاسدون ويتباغضون، يعني أن المحاسن والمثالب الاجتماعية تبدو بشكل متوازي في كتاباته.

موضوع المعتقدات الريفية: يُعرف المجتمع الإنساني بمعتقداته وتقاليده وأعرافه، وعاداته سواء كان مدنيا أو ريفيا؛ فالمجتمع الريفي تتميز بالمعتقدات الشعبية والخرافات السائدة في الوسط الريفي التي تسيطر على حركة الفعل الإنساني. ومن خلال المناسبات والأعياد والاحتفالات ظهرت المعتقدات الشعبية في كتابات القعيد.

1 - العبد، عاطف عدلي، المرأة الريفية، دار العارف، القاهرة، سلسلة إقرأ (484)، الطبعة الثانية، 1987م، ص: 2، و46.

موضوع الظلم والقهر والاستغلال: إن الظلم الاجتماعي والقهر والاستبداد الذي يشهده الريف في الحياة اليومية من قبل السلطات القمعية والإقطاعية المستبدة من الموضوعات البارزة لكتابات القعيد، وفي أغلب الأحيان يتسبب هذا الظلم والقهر والاستغلال صراعا بين القوى المتصارعة سواء كانت قوى الخير أو الشر، إذ نرى هذا الظلم يؤدي إلى الانفجار في وجه الظالم والإقطاعي.

موضوع المقاومة: "المقاومة" من الموضوعات المهمة للكتابات القصصية والروائية عند القعيد، يحاول الروائي في كتاباته إيقاظ الهمم لأجل الكفاح عن الحقوق والوطن والقضايا الشعبية، وتبزر المقاومة من المقومات الرئيسية في الأعمال الروائية، وبسبب هذه المقاومة التي قدمها القعيد والكتاب الآخرون قامت الثورات العربية وحررت الفلاح العربي من الظلم والقهر، فتم إصدار قوانين الإصلاح الزراعي لتوزيع الأراضي الزراعية توزيعا عادلًا، والتي صادرها الإقطاعيون وكبار الملاك من الفلاحين والمعدمين. وسبق أن صدر قانون الإصلاح الزراعي رقم (178) لعام 1952م والذي ينص على أن يكون الحد الأعلى للملكية الزراعية عشرين فدانا تم تم تعديل في هذا الحد، وأصبح الحد الأعلى عشرة فدادين بموجب القانون رقم 27 لعام 1961م1.

موضوع الصراع الاجتماعي: إن قصة الصراع قديمة جدا في التاريخ البشري، فكانت قصة قابيل وهابيل من أول الصراعات التي حفظته لنا الشرائع السماوية، بجانب أنواع الصراع الأخرى نحو صراع آدم مع الشيطان. إن مفاد الصراع يرجع إلى ثنائية الفكر الإنساني تبرز من خلال الخير والشر. والصراع الاجتماعي في الكتابات الريفية وعلى

1 - رمضان، عبد العظيم، صراع الطبقات في مصر(1837م-1952م)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1978م، ص: 205، والهلالي، عبد الرزاق، المجتمع الريفي العربي والإصلاح الزراعي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ص 54، و 77-88.

رأسها القصصية والروائية تتمثل في الصراع بين الفلاحين المهمشين والإقطاع، وكبار الملاك، والأجهزة الحكومية القمعية. والصراع الاجتماعي في الكتابات الريفية يتخذ موقف الصراع ضد الإقطاع ومغتصب الأرض، وموقفًا من العادات، والطقوس، والتقاليد والمعتقدات الدينية1. وبالإضافة إلى ذلك نجد الأرض من موضوعات الصراع التي عرفها الإنسان منذ القدم؛ فكان الصراع القائم حولها يظهر النوايا الحقيقية، ويكشف عن المعدن وجوهر الإنسان الحقيقي، ومدى ارتباطه بالأرض2، وقد سبقت الإشارة إلى موضوع الأرض في بداية الفصل. والصراع الريفي يكاد يتواجد في معظم الكتابات العربية إلى أن تقول الباحثة هاجر محمود3:

"ولا يكاد قطر من أقطار الوطن العربي من التعرض لتجربة الصراع بين البدو والفلاحين"4، وقد أشارت العديد من الروايات لهذا الصراع بين البدو والفلاحين5.

موضوع الهجرة إلى المدن: الهجرة من الريف إلى المدينة من الظواهر الاجتماعية الكبرى وقد عرفتها المجتمعات الإنسانية منذ غابر العصور. وتناولت الكتابات الريفية موضوع الهجرة من الريف إلى المدينة، وبيان عوامل الطرد من الريف وعوامل الجذب إلى المدينة وأما يوسف القعيد فقد أسلفنا الذكر إلى أنه ابن القرية الذي هاجر إلى المدينة، وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعل القعيد يعالج موضوع الهجرة من الريف إلى المدينة في كتاباته العامة، والقصصية والروائية. إن الهجرة نتجت عن رغبة القرويين في

---

1 - المساري، هاجر محمود علي معلا، الشخصية الريفية في رواية الأرض في الأدب العربي الحديث (دراسة فكرية وفنية)، رسالة ماجستير قدمتها الطالبة إلى مجلس كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 2002م، ص: 58.

2 - نفس المصدر، ص: 62-63.

3 - نفس المصدر، ص: 62-63.

4 - حمدان، جمال، شخصية مصر: دراسة عبقرية المكان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1980م، ص: 345.

5 . على سبيل المثال: رواية الأرض ص 310، ورواية ملح الأرض، ص 180، ورواية المذنبون، ص 135، ورواية ريح الجنوب، ص 98.

الحصول على الموارد البشرية لمستوى المعيشة الأفضل يعني هذا أن العامل الاقتصادي الذي دفع الفلاح إلى الهجرة من الريف إلى المدينة، ومع تنامي رؤوس الأموال، وتطور الصناعة والانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية بدأت الجفوة، وتسبتت في زيادة مأساة الفلاحين وصغار الملاكين1، والمردود الاقتصادي المنخفض والبطالة التي يعيشها الفلاح لعدة شهور أيضا يؤدي إلى الهجرة، والرغبة في الحصول على التعليم العالي أيضا تسببت في هجرة الأرياف إلى المدن، بالإضافة إلى فرض الضرائب الباهظة من قبل المستعمرين أو السلطات القمعية أدت إلى ترك الأرض واللجوء إلى المدينة للعمل كأجير حتى يستطيع الفلاح أن يقيم أود حياته وعائلته، وحياة القرويين العاملين هناك مليئة بالصعوبات إذ نرى العديد من الشخصيات الريفية التي هجرت أرضها معذبة، قلقة ضعيفة، والضياع مصيرها في عالم المدينة المدهول والغريب عليها بكل ما تحمله من المعتقدات والعادات، والتقاليد، والنظرة للحياة، غير أنه لا يعني أن كل هجرة من الريف إلى المدينة تتسبب الشقاوة والتعاسة في الحياة للريفيين، وخير دليل عليه هو يوسف القعيد نفسه، الذي غادر القرية، وساعده الحظ في الحصول على العيش الكريم والسمعة الطيبة في الأوساط العلمية والأدبية والسياسية.

موضوع الهجرة إلى الريف: من خصائص كتابات القعيد أنه تحدث عن الهجرة من المدينة إلى الريف، حيث هاجرت بعض الشخصيات القصصية إلى الريف لأجل نشر الوعي والإحساس بحياة الفلاحين، والتفاعل مع المجتمع القروي، اللهم إلا أن وقوف القوى الرجعية والإقطاعية حلّ عائقا دون ما يطمح إليه المهندس.

1 - غولدمان، لوسيان، وآخرون، البينونة التكوينية والنقد الأدبي، ترجمة إلى العربية: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1984م، ص: 152.

موضوع الفلاح الريفي: الفلاح في الأدب العربي يحتل موضعا متميزا، وهو يشتغل بالفلاحة وحرث الأرض ويتمتع بالرض والقناعة، وأراضيها تتمتع بجمال الطبيعة وبهائها، غير أن صوت الفلاح كان غائبا؛ فلا نجد صورة بؤسه وشقائه في الأدب العربي القديم1، نعم إن صوته تجلى أول مرة في الأدب الروائي العربي في مصر من خلال رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل، بشكل ضئيل، غير أنه استمر يتقوى، وانشغل النائب في رواية "يوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم عام 1937م" في تصوير الواقع الذي يعيش فيه الفلاحون، وتم إظهار صور البؤس والفقر، وعجز القرية عن فهم القوانين المتحضرة التي فرضت على أهل القرية2.

وأما القعيد فقد قام برفع صوت الفلاح بين الأوساط العلمية والسياسية والاقتصادية، وحاول لفت انتباه المهتمين بالقضايا الريفية. ففي روايته "البيات الشتوي" نجد شخصية الفلاح قانعة بواقعها الأليم والفلاح يحلم باليوم الذي يأتي فيه المنقذ الذي ينقذ القرية مما تعاني من الظلم والفقر وتسد حاجاتهم.

1 - عبد الغني، محمد، الفلاح في الأدب العربي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي للتأليف والنشر، المكتبة الثقافية، الطبعة الأولى، 1965م، ص: 7-11، ومحسب، حسن، قضية الفلاح في القصة المصرية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، المكتبة الثقافية (256) الطبعة الأولى، 1971م، ص 21.

2 - بدر، عبد المحسن طه، الروائي والأرض، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1979م، ص: 56.

الفصل الثاني

تجليات الريف في كتابات يوسف القعيد القصصية

برز الريف في كتابات القعيد من نواحٍ شتى؛ اجتماعية كانت أو سياسية أو اقتصادية. ويغلب عليه الطابع الفني والهاجس الإصلاحي في كل كتاباته. فقد ساهم القعيد في الحياة الثقافية المصرية وكتاباته عن الريف المصري يتميز بإخلاصه للفقراء والمهمشين، والهم الإصلاحي وتعبر عن الواقع المعيشي. تقول الشاعرة عزة رياض بأن "الأديب يوسف القعيد ابن القرية وكل رواياته لم تستطع أن تفارق القرية"1.

ويوسف القعيد من كتاب جيل مرحلة ما بعد نجيب محفوظ في مصر، والذي ظهر في سياق نسكة حزيران 1967م، وجاءت كتابات هذا الجيل القصصية بمنظور جديد للكتابة وللعالم، وبوعي أدبي متمرد على الأشكال القديمة، فبنى هذا الجيل شكله الأدبي الخاص، وبوعي اجتماعي سياسي جديد حرك السواكن وأعاد أسئلة قلق الواقع السياسي والاجتماعي إلى أن تطرح، وواقع كتاباتهم القصصية عبارة عن مرارة الحياة وحقائقها القاسية، ومن كتاب هذا الجيل مع القعيد كل جمال الغيطاني في مجموعته القصصية الأولى "من أوراق شاب عاش منذ ألف عام"، وإبراهيم أصلان

1 - الدماصي، رغدة، ندوة حول حياة وأعمال يوسف القعيد، صحيفة الأهرام، مصر، السنة 140، العدد: 47182، فبراير 2016م، ص: 9.

وصنع الله إبراهيم. يعبر الكاتب محمد عز الدين التازي بهذا الرعيل بكتاب الموجة الجديد، ثم يقول عن قيمة كتاباتهم:

"تلك الرائحة، وكتاب آخرين كثيرين، انضووا تحت لواء واحد هو ما سمي وقتها بكتاب الموجة الجديد، وبالطبع فإن الضجة النقدية التي صاحبت أعمال هؤلاء وغيرهم، ليست هي التي صنعت مصائرهم الأدبية، فقد نحتوا في صخر الكتابة، وكتبوا بعرق جبينهم نصوصا تلو الأخرى حتى انداحت الموجة وتغير الزمان الذي جعلها تندفع فاندفع كتابها برصيدهم الثقافي والسياسي والمعرفي والجمالي كل منهم يحفر في مجراه"1.

وبرز القعيد ككاتب وروائي وقاص متميز، غير أنه ككاتب اشتهر في الصحافة والرواية أكثر من شهرته في مجال القصة، و"من يخاف كامب ديفيد" و"طرح البحر"، والضحك لم يعد ممكنا"، و"قصص من بلاد الفقراء"، و"أقدم لكم اليوم قصة"، و"حكايات من الزمن الجريح" من أعماله القصصية الشهيرة، وجلّ أعماله القصصية تبدو مخلصة لقريته "الضهرية" وما حولها من أرياف وعزبات، وعلى حدّ تعبير الدكتور التازي "يرضع لبان الكتابة من لبانها، ويستوحي الواقع من تفاصيل الحياة اليومية فيها، ومن شخصيات نمطية يحضر فيها "العمدة" بسطوته وجبروته، و"الفلاح الغلبان" بطيبته ودفاعه عن حقه في الوجود، وشخصيات أخرى مرافقة..... ويستطرد التازي قائلا إن هذه الشخصيات "تنتمي بالحميمية نفسها إلى فضاء الريف المصري، وخاصة في إلى "الضهرية"، والتي هي موطن القعيد، الذي تعلن نصوصه ولاءه له، لا حيث تقديس الموطن والمكان، ولكن من حيث هو مصدر إيحاء للتجربة

1 - التازي، محمد عز الدين، روائيون وتجارب قراءات في أعمال إبراهيم عبد المجيد، أحمد إبراهيم الفقيه، إلياس خوري تركي الحمد، سلوى بكر، واسيني الأعرج، يوسف القعيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 2018م، ص: 151.

الإبداعية، بما تسير فيه التجربة من محاولة لفهم عالم أوسع من عالم البلدة، هو عالم بأسرها، والتحولات التي عرفتها مصر، من التأميم وانطلاق حركات الاشتراكية بأخطائها وإيجابياتها، وإلى هبوب رياح الانفتاح والازدهار وارتجاج المجتمع المصري بأجمعه تجاه تحول إن لم يكن قد أخذ الأرواح فقد أخذ من أخلاق الناس ما كان أصيلًا وكريمًا وما جعلهم يعيشون على العفاف، والكفاف ليتجولوا إلى مزايدين في زمن طغت فيه المزايدات على كل القيم"1.

وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على الريف المصري تجلى في قصص القعيد من نواحٍ شتى، والريف تبدو متأثرة من الحركات الإصلاحية والسياسية، ولأبناء القرية المصرية في حركات الإصلاحية الاجتماعية والسياسية أيادي بيضاء ورائدة. وإن تجلت مظاهر الريف في كتابات القعيد الروائية غير أنه مولع بالتعبير عن القرية ومعروف بتوصيل الفكرة الريفية إلى الأوساط العلمية ومن ثم باتت شخصيته كهمزة وصل تربط القرية المصرية بالمدينة المتحضرة المصرية، وهاجس التعبير الفكري القروي يتجلى في كل الأعمال حتى في كتاباته غير الأدبية. وهنا على سبيل النموذج نشير إلى بعض أعماله القصصية:

"من يخاف كامب ديفيد" من كتابات القعيد القصصية، في هذه القصة حقق القعيد بنجاح واضح ما كان يصبو إليه من زمن وهو تضمين الرأي السياسي جسم العلم الفني، وتحويل التوعية السياسية إلى العمل الفني المقبول إلى جوار تقبله كرأي سياسي. تعتبر "اتفاقية كامب ديفيد" معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل التي وقعت عام 1979م أول خرق للموقف العربي الرافض للتعامل مع دولة إسرائيل، والتي تعهد

1 . المرجع السابق، ص: 152.

بموجبها الطرفان الموقعان بإنهاء حالة الحرب وإقامة علاقات ودية بينهما تمهيدا لتسوية النزاع فيما بين البلدين، كما انسحبت إسرائيل من سيناء التي احتلتها عام 1967م1. وقد عالج القاص القعيد هذه الاتفاقية بشكل فني، يتخلل فيها الريف المصري كمكان إما للحدث أو من حيث الشخصيات القاصة أو المعنية بها في الحدث.

قصة طرح البحر: تتحدث هذه القصة عن الفلاح المصري و أحواله في انهزاماته وانكساراته و في انتصاراته وأفراحه في دقائق حياته الصغيرة والدقيقة ومفرداته التي صاغت أسلوب تفكيره حمل على عاتقه وهمّ تطوير الريف المصري وتقدم سكانه من خلال رصده الدائم لكل صغيرة وكبيرة يمر بها الفلاح في بيته وفي أرضه وفي علاقاته بجيرانه وفي رؤيته لمستقبله فهي قصة لا تعبر عن الواقع الاجتماعي الخارجي وحده ولا تعبر عن العالم النفسي فحسب بل إنها تعبر عنهما معا في صدامهما وتداخلهما وتفاعلهما وأسلوب وظفه القعيد في صناعة القصة غاية في الابتكار في مزجه المألوف

---

1 . هذه اتفاقية أدت إلى تغيير سياسي جذري، وقد تشتمل على تسع مواد، وكل مادة تحتوي على بنود، وقد جاء التصريح التالي في تمهيدها:

"إن حكومتي جمهورية مصر العربية ودولة إسرائيل، اقتناعا منهما بالضرورة الماسة لإقامة سلام عادل وشامل ودائم في الشرق الأوسط وفقًا لقراري مجلس الأمن 242 و338، إذ يؤكدان الطرفان من جديد التزامهما "بإطار السلام في الشرق الأوسط المتفق عليه في كامب ديفد" المؤرخ يوم 17 سبتمبر 1978م، وإذ يلاحظان أن الإطار المشار إليه أعلاه إنما قصد به أن يكون أساسا للسلام ليس بين مصر وإسرائيل فحسب، بل أيضًا بين إسرائيل وأي من جيرانها العرب – كل في ما يخصه – ممن يكون على استعداد للتفاوض من أجل السلام معها على هذا الأساس. ورغبة من قبل الطرفين في إنهاء حالة الحرب بينهما وإقامة سلام تستطيع فيه كل دولة في المنطقة أن تعيش في أمن، واقتناعا منهما بأن عقد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل يعتبر خطوة هامة في طريق السلام الشامل في المنطقة والتوصل إلى تسويةٍ للنزاع العربي الإسرائيلي بكافة نواحيه.

وإذ تدعوان الأطراف العربية الأخرى في النزاع إلى الاشتراك في عملية السلام مع إسرائيل على أساس مبادئ إطار السلام المشار إليها آنفا واسترشادا بها، وإذ ترغبان أيضا في إنماء العلاقات الودية والتعاون بينهما وفقا لميثاق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي التي تحكم العلاقات الدولية في وقت السلم.." (وزارة الخارجية المصرية، معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل واتفاق الحكم الذاتي في الضفة والقطاع، القاهرة، 1979م، ص 43-47.) هذا النص منشور على موقع الجزيرة الثقافية، من خلال الرابط التالي:

https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/721d4de2-308a-4e80-a73f-0d840c89944d

تاريخ الزيارة: 30/ 03/ 2019م، بتوقيت الهند: 08:28 صباحا.

والعامي بالرفيع من القول وهذا يدل على براعته الفذة في مجال توظيف الريف المصري ومحيطه القروي.

قصص من بلاد الفقراء: هذه مجموعة قصصية تعد من البدايات الباكرة ليوسف القعيد وقصص من أحدث ما أبدعه القاص، و باب المدينة قصة مكتوبة سنة 1982ورغم بعد المسافة الزمنية الا انها تعد قصصا عن بلاد الفقراء. و تتحدث هذه القصص بأكبر قدر ممكن من الصدق. ومن خلال أكبر مساحة من الحب عمن يسكنون ريف مصر وتتحدث عن الريف والفقراء 1.

الضحك لم يعد ممكنا: هذه المجموعة القصصية تحكي عن حياة مشجونة بالآلام، ومليئة بالأحزان، وتسود الأحزان مصر كلها خريفها وربيعها، مدنها وأريافها. وقد علق أحد المتفاعلين مع هذه المجموعة بعد قراءة متأنية للمجموعة قائلا:

"هذه من أولى المجموعات القصصية التي قرأتها واحببتها كثيرا وتأثرت بموضوعاتها عجبني أوي هذا النوع من القصص شعرت أن الكتابة بالوجع هي النوع اللي ها الاقي نفسي فيه ككاتب قصة قصيرة وجع نفسي وشخصي موصول بحب الوطن ولا ينفصل عن الوجع العام والهم الوطني والقومي مزج بين العام والخاص في وشيوع الاتهام والإخفاقات الجماعية والهزائم والانكسارات والتنازلات المتتالية والتضحيات التي تتم دون مقابل مسيرة من الحياة والكفاح والغربة والتماهي في شخص المحبوب وتراب الوطن والمحصلة صفر اليدين أدين للأستاذ يوسف القعيد بالفضل لأنه أول من حببني في فن القصة القصيرة من هذا النوع"2.

---

1 - القعيد، يوسف، قصص من بلاد الفقراء، دار الهلال للطباعة، مصر، الطبعة الأولى، مايو 1983م.
2 . يرجع إلى موقع غود ريدس، من خلال الرابط التالي:

والقراءات المتأنية لهذه القصص والأخرى تشير إلى أن القاص احتفظ لنفسه بنكهة ريفية؛ فمن جهة ظل القاص القعيد مخلصا لبلدته الضهرية. وجعل لقصصه القصيرة مدارًا فضائيًا تتحرك فيه ولا تخرج عنه إلا في أعمال قليلة جدا، و"الريف المصري" يمثل هذا المدار، فشخصيات قصصه تدور حول ذاك المدار، والصراع يجري بين الفلاحين وقوى الخير وقوى الشر المتمثلة في العمدة، والخفير، والضابط، وكل أجهزة الدولة الأخرى.

ويبلغ العدد الكلي لقصص القعيد نحو ست وثلاثين قصة قصيرة يتضمنها المجلدان الأول والثاني من أعماله الكاملة1. وتحمل قصصه هاجس نقد المجتمع ونقد السلطة، ويفضح عيوب المجتمع ويندد ضمنيا بمأساة أفراده ووقوعهم ضحية التحولات التي يعرفها بلدهم، والتي لم يساهموا في صنعها، أو استشيروا في ذلك. وقد حاول القعيد في كتاباته القصصية إبراز تجليات الريفية على المستويين الاجتماعي والسياسي، وتبدو هذه التجليات على الأفراد في المجتمع وعلى أنماط حياتهم وأخلاقياتهم. ويدور أغلب الأحداث في الفضاء الريفي، وعلى رأسها القرية الضهرية، حيث نجد فيها شخصيات تقليدية نمطية كلها تحيل على مسألتين؛ الشرف والثأر، وهما تعتبران من المسألتان الأثيرتان في الريف المصري.

(https://www.goodreads.com/book/show/8123316)، تاريخ الزيارة: 30/ مارس 2019م، بتوقيت الهند: 10:36 صباحا.

1 - التازي، محمد عزالدين، روائيون وتجارب قراءات في أعمال إبراهيم عبدالمجيد، أحمد إبراهيم الفقيه، إلياس خوري تركي الحمد، سلوى بكر، واسيني الأعرج، يوسف القعيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 2018م، ص: 151.

الفصل الثالث

تجليات الريف في كتابات يوسف القعيد الروائية

تجلى الريف في كتابات القعيد الروائية بشتى أشكاله، وصوره وما يتعلق بالقرى والأرياف المصرية وشؤونها، وما تجري من أحداث في محيطها الداخلي والخارجي. ومن هذه التجليات ما يلي:

علاقة الفلاح بالأرض: "الأرض" من مقومات الأدب الريفي، والتي تكاد تتواجد في كل من الروايات الريفية. وقد تناول القعيد موضوع الأرض وأشار إلى تعلق الفلاح بالأرض وتبجيله لملكية الأرض في نظرته. وهذه الظاهرة يجعل الريفي يحاول حيازتها مهما كان حسابه، حتى لو هاجر الريفي إلى المدينة يحلم بالعودة إلى القرية لشراء الأرض، إذ يعتبر ذلك مفخرة للعائلة، والتفريط بالأرض يُعتبر نكبة بالعائلة وعارًا يلحق بها. كما يشعر بهذا العار إحدى الشخصيات الروائية "ورداني" في رواية "البيات الشتوي" ليوسف القعيد التي أخرجها عام 1974م، عندما قدم مهندس من المدينة إلى القرية لغرض حفر بئر بترول، وبدأ أهل القرية "السوالم" يحلمون بالرخاء المادي وبأنه سوف تتغير حياتهم من شتى النواحي الاقتصادية والاجتماعية بسبب ما يعيشون من فقر وحاجه اللهم إلا أن المشروع يتوقف ويغادر المهندس بعد أن بعث الأمل في القرويين، وعندما قام ورداني بتسليم الأرض إلى المهندس عصمت النجعاوي لعملية الحفر اتهم بأنه قد "خان العائلة وإن عظام أبيه قلقة في قبره، كان يجب أن يدافع عنها، حتى ولو ذهب إلى السجن. قال ورداني: في صباح الغد، سيذهب إلى الحقل، وهناك سيواجه أرضه بمفرده،

الأرض أصبحت غريبة عليه، وفي القلب والعين ينمو إحساس مُرّ بالخيانة"1، غير أن الإحساس بالخيانة في داخل ورداني تبقى قداسة الأرض عنده إذ بالرغم من إحساسه بالخيانة يؤمن بأن الأرض لن تبوح بسرها لغيره2.

وعلى هذه الشاكلة نرى الأرض عنده حريئة بالقداسة والاحترام، وملكية الأرض عنده لا يعادلها كنوز الأرض، فماذا كان يفعل بالكنوز إذا كان لا يملك أرض، والكنز الحقيقي هو الأرض الذي لا يعادلها كنز في الوجود تحت أديم السماء.

الهجرة : الهجرة في روايات القعيد من الموضوعات الرئيسية؛ فقد هاجر القعيد من القرية إلى المدينة واحتل هناك مكانة علمية وسياسية وتعرف على المدينة والوعي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ومن ثم عالج القعيد الهجرة من الريف وأسبابها، وأثراتها في حياة الريفيين... وبجانب آخر تحدث القعيد عن الهجرة من المدينة إلى الريف لنقل خيرات المدينة من الوعي والتفاعل مع المجتمع الريفي؛ فقد نجد في رواياته شخصيات انتقلت من المدينة إلى الريف للعمل فيه ونشر الوعي والإحساس بحياة هؤلاء الفلاحين، والذي تمثل شخصية عصمت النجعاوي في رواية "البيات الشتوي" (1974م)، وقد جاء عصمت النجعاوي إلى القرية بسبب العمل، وله جذور ريفية إذ نزح إلى المدينة للحصول على التعليم العالي ومن ثم توطن فها، لذا لم يختر العودة إلى الريف طوعا، وإنما العمل وممارسة المهنة فرضت عليه العودة؛ وهذا المهاجر ذي الجذور الريفي العائد من المدينة إلى الريف إنما يمثل جيل ما بعد الثورة وقوانين الإصلاح الزراعي. وعصمت أصبح مهندسا بعد الحصول على التعليم العالي في مجال البترول، وأقام

---

[1] - القعيد، يوسف،البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م. ص 153.

2 - نفس المصدر، نفس الصفحة.

المهندس علاقات طيبة مع أهل القرية وتفاعل معهم وأيقظ فيهم نور الأمل، لذلك أخذ أهل قرية "السوالم" يحلمون بمستقبل زاهر جديد، بعد أن سمعوا بشارة حول المشروع ونجاحه الذي يجلب الخير لهم، فتراءت لهم الأمال، كما جاء على لسان إحدى شخصيات الرواية:

"في المرتب كل أول شهر، المسكن النظيف، التأمين الصحي، الشوارع في صدورهم تصور لها، الشوارع المفاءة، المقاهي المزدحمة، النقود الكثيرة في الأيدي"1. وقد عرف أهل القرية أن مشروع بئر البترول مرفأ الأمان.

المعتقدات والخرافات: المجتمع الريفي يبدو أكثر متمسكا بالمعتقدات الدينية، غير أنه بسبب الجهل وعدم المعرفة الصحيحة تفشت في الريفين والقرويين أنواع من الخرافات. كما نرى في رواية "البيات الشتوي" أن الريف المصري يواجه الفقر والتعاسة بسبب قلة الأرض الزراعية وفرصة العمل، وللتخلص من هذا المأزق حاول بعض الناس تدشين مشروع بئر البترول الذي يضمن للريفيين فرصة العمل وجلب الرفاهية غير أن المشروع لم تكد تكتمل بسبب بعض العراقيل من قبل القوى الرجعية والإقطاعية. وبجانب آخر نجد بعض الشخصيات الروائية يكتبون الشكاوي لأولياء الله ليساعدهم على هذه الحياة القاسية2. وتشير بعض الدراسات إلى أن شدة الإحساس بالقلق والتوجس والريبة من المستقبل تجعل الفلاح يؤمن بالغيبيات أكثر مما يؤمن بقدرته3، وكذلك يدفع الاستغلال والاضطهاد الاقتصادي والسياسي والاجتماعي بالأفراد للبحث عن حلول لمشاكلهم بشتى

---

1 - نفس المصدر، ص: 47.
2 - نفس المصدر، ص: 30-31.
3 - سويف، مصطفى، الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، 1970م، ص: 313.

الوسائل، لأن المجتمع الذي لا يتيح لأفراده أن يواجهوا مشاكلهم بشكل صريح فيلجأون إلى الخرافة1.

والمجتمع الريفي الخرافي في قرية السوالم يتميز من يملكون ولا يعملون، ويعاني فيه من يعملون ولا يملكون، ومن ثم سادت فيه هذه الأفكار في ذاك المجتمع، وتدل على هذه الأفكار على اليأس من الكفاح والاعتماد الخط، اتكالاً على القدر؛ فترك أهل القرية "السوالم" العمل في الحقول وتدشين نظام الري بانتظار المعجزة، وعندما حلت القوى الرجعية دون سبيل انجاز المشروع فهرعوا إلى الأحلام وانتظار المعجزة التي تنبأ بها سيدي الغريب في كتابه عن قرية السوالم بأن يأتي إلى القرية في آخر أيامها مخلص يجمع شمل القرية وينشر العدل وريف الظلم2. هذا حلم محض، غير أن القعيد أشار إلى ما يفيد أن المهندس جاء مبشرا بهذا العدل وإتاحة الظلم.

الاضطهاد والشقاء في الحياة: إن ريف القعيد يواجه شتى أنواع من الاضطهادات والشقاء في الحياة بسبب الضيق المالي وقلة موارد الحياة البشرية، والجدب، وعدم صلاحية الأراضي للزراعة بسبب قلة المياه، وعدم الاعتناء الحكومي بالرفاهية، وعمدة القرية هو الحاكم المطلق بالنسبة لهم، يحكم عليهم بسياط الظلم والقهر.

وإن أقصى ما يحلم به أي واحد من أهل قرية السوالم هو "أن يكون حسابه في الجمعية التعاونية في آخر العام وأن يبقى من ثمن المحصول ما يكسوا به الأولاد أو أن يمتد دور المياه يوما واحدا، أو أن ينجح ابنه الذي يتعلم في مدرسة المركز أو أن

1 - بدران، إبراهيم، والخماس، سلوى، دراسات في العقلية العربية (الخرافة)، دار الحقيقة، بيروت، الطبعة الأولى، 1974م، ص 60-61.
2 - القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص: 61، 99

تلد جاموسته عجلين في بطن واحد"1. ومن يحلم بحدٍ أقصى هكذا لا يرتقي إلى مستوى معيشة أفضل، ويكون مضطهدا وشقيا في حياته.

وأهل قرية "البيات الشتوي" لا يعرفون عن العدل والانصاف ولم يتذوقوا مذاق الحياة الجديدة التي تعرف عليها أحد أبناءها المهاجر إلى المدينة، والذي عاد ليريهم تباشير الحياة السعيدة. لكن السياسة المحلية التي تخصع لسلطة العمدة والقوى الرجعية التي تؤمن بالوهم والخرافة، والتي أدت إلى إيقاف المشروع، وترك أهل القرية على حالهم، غير أن المهندس استطاع بعث الأمل فيهم.

الربط بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية: واهتم القعيد بتصوير الريف العربي حيث تنعكس فيه نكسة حزيران لعام 1967م من خلالها، وحاول أن يتلمس الأسباب في التخلف والعوامل الطبقية وراء هذا التخلف، ويتخلخل البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية، لذلك فهو دائما يربط بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية، ويبدو ذلك من خلال اختيار بداية أحداث رواياته الأولى بعد صدور القرارات الاشتراكية وقوانين الإصلاح الزراعي وتحديد ملكية الأرض، فكأنه أراد أن يقول إن القرارات الثورية لن تغير من واقع الأمر شيئا فأعوام الثورة، وسنوات من تطبيق تلك القرات، غير أن القرية تعيش وكأنها خارج التاريخ2، كما جاء على لسان حب الدين أحد شخصيات الرواية "البيات الشتوي" حين يقول لبعض أهل القرية كانوا "زي الغرقان، لقينا قشة، قشاية صغيرة، قطعنا بأيدينا وأسنانا كل واحد فينا حته صغيرة وقال لنفسه، خلاص الأشياء بقت معدن (غير أننا) اكتشفنا فجأة أن اللي في أيدينا مش قشة ولا حاجة وما

1 - القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص 16-17، و 139.
2 - النساج، سيد حامد، بانوراما الرواية العربية الحديثة، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1980م، ص: 81، والقعيد، يوسف، الحداد، دار الكتب العربي، سلسلة كتابات معاصرة، الطبعة الأولى، 1969م، وأخبار المنيسي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الطبعة الأولى، 1971م.

فيش حد فينا مصدق، نسينا أن احنا غرقانين، وبعد كده قعدنا نتظر معجزة تحصل"1، وبما أن القعيد هو ناشط سياسي ومتفاعل جدا بالهم الوطني، ومن ثم يربط بين القضية الوطنية والقرية المصرية ولم يرحل المهندس عصمت من القرية إلى المدينة إلا أنه ترك الأمل في الريفيين.

الصراع الريفي بين قوى الخير وقوى الشر: الصراع يجري في الريف المصري بين قوى الخير، وقوى الشر؛ والصراع في روايات يوسف القعيد خاصة في "البيات الشتوي" يتمثل بين الأمل واليأس، بين حاملي نور الرجاء للمستقبل القريب الزاهر وبين القوى الرجعية. وعلى سبيل المثال برز الصراع في رواية "البيات الشتوي"، عندما خافت القوى الرجعية من تعرض مصالحها الفردية إلى ريح التغير، وعرفوا أنه سيؤدي إلى الاعتراف بحقوق الآخرين. ومن ثم أحس بضرورة مقاومة خطر التغير، والذي يحمل لواءه المهندس عصمت لأن عمدة القرية يرى أن مجرد وجود المهندس في قرية "السوالم" يشكل خطرا يهدد كل الأمور، والتي يريدها تصرفها في مملكته فمنذ اليوم الأول لم يشعر العمدة "إلا شعورا واحدًا أن هذا الشاب الغريب يجب مقاومته لقد أدرك العمدة بينه وبين نفسه دونما كلمات بهزيمته، أمام ذلك الشيء الذي لا يعرف له اسما ولا حتى شكلا محددا"2، ومن هنا بدأ الصراع بين القوى الرجعية وبين المهندس، والقوى الرجعية رأت أن المشروع جريمة لا يمكن السكوت عليها، لتقف مع العمدة في محاربة ريح التغير على القرية3 وأما نسبة التغلب على الصراع فهي تختلف برواية وأخرى، وفي رواية "البيات الشتوي" نجحت القوى الرجعية في مرادها في إيقاف المشروع "المشروع حا يؤجل بصفة نهائية" وذهب بئر البترول الذي كان من المتوقع أن يجلب الرفاهية في الحياة، ومع نهاية

1 - القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م، ص: 146.
2 - نفس المصدر، ص: 21، 24.
3 . نفس المصدر، ص: 21 25، 43، 63، 129.

المشروع انتهت أحلام أهل السوالم، غير أن المهندس نجح في بث نور الأمل وتوسيع نطاق أفكار الريفيين وتغيير منحى الرؤى والآفاق الفكرية وغادر المهندس للمدينة بعد أن ترك رواءه الأمل في الغد.

سذاجة الحياة الريفية: الحياة في الريف تبدو في غاية من السذاجة، إذ نجد أغلب الشخصيات قانعة بواقعها الأليم وتحلم باليوم الذي يأتي الرخاء. كما نجد في رواية "البيات الشتوي" على سبيل المثال حيث يعيش أهل قرية السوالم قانعين بواقعهم وينتظرون بلهفة غلابة يومًا يأتي المنقذ حسب تنبؤات سيدي الغريب، ومن ثم عندما يأتي المهندس ويتحدث أمامهم عن إنجازات المشروع وما يحمل المشروع من تغير صنع كل منهم لنفسه يوتوبيا خاصة، ليخرجهم من مآزقهم النفسية أولا ثم من مآزقهم المادية ثانيا، فيتحدث "حب الدين" عن حياته بكل سذاجة مع وعوني المهندس بخصوص العمل في المشروع في تشغيل الأنفار، وسيكون صرف الأجور كل خمسة عشر يومًا أو كل أسبوع، وقال إنه سيعطيني أعلى أجر في الناحية، ويعتبر هذا المشروع معجزة، ويقول "إن المعجزة ستحدث هنا"[1]، فلا خفاء في هذا الحوار أن السذاجة تسود عليه، في حين تؤدي السذاجة إلى أن يحلم أبو السعود "يوم يطلبني المهندس، سأطلب منه أغلى ثمن، إن النقود في يده مثل حبات الأرز، قيل لي: أن أسهل ما عنده، أن يعطي نقودًا، لن أتنازل عن مليم، إن فاصلني، واعتقد أنه لا يعرف الفصال، سأقول له: بين البائع والمشتري يفتح الله"[2]... هذه الأحلام الساذجة جاءت لتساعده على التغلب على الشعور بالإحباط والعجز والفشل في الحياة... والفلاح الآخر "ورداني" يرى قداسة الأرض بسذاجته، إذ يرى أنه بتسليم الأرض للحفر سيكون خائنا مع العائلة، وإن عظام أبيه قلقة

1 - نفس المصدر، ص 67.
2 - نفس المصدر، ص 71.

في قبره من أجله كان يجب أن يدافع عنه حتى ولو ذهب إلى السجن، غير أن الأمل للمستقبل الزاهر القريب يشجعه ليسلم الأرض ويقف ضد الظلم حينًا ويواجه الإقطاعي ويتحمل في سبيل ذلك العذاب، وحينًا يرضى بالقضاء والقدر الذي فرضه عليه الإقطاعي المستغل ويستكين إلى ظروف الواقع المريرة والقاسية.

المرأة الريفية: المرأة الريفية في روايات القعيد تبدو كالرجال الريفيين غير أنها أقل شأنا. وعندما ندرس رواية "البيات الشتوي" على سبيل النموذج نجد فيها شخصية امرأة ذات جذور ريفية بالرغم من أنها ولدت وعاشت في المدينة، وهي شخصية "سلسبيلة"، قد أتت إلى قرية السوالم بعد لقاءها "حب الدين" لتعمل معه في مقهى القرية الصغيرة، وهي كانت تحلم في مغادرة القرية والرجوع إلى المدينة. تقول "والله لو سعدني زماني لأسكنك يا مصر، وأزرع لي فيكي جنينة ووسط الجنينة قصر"1، وهذه المرأة تختلف بالعادات والتقاليد عن نساء القرية اللواتي بقين في خلفية الصورة، كما تجلت بعض الصور لأسرة سلسبيلة من خلال طرح مشاعرها وحياتها الماضية.

وبعد العرض المؤجز للتجليات الريفية في الكتابات الروائية لدى القعيد من خلال رواياته البارزة "البيات الشتوي" نشير إلى التجليات الريفية في رواياته الأخرى لا على سبيل الحصر والاستيعاب وإنما على سبيل المثال والنموذج.

رواية "قسمة الغرماء": هذه الرواية تتميز بإشكالية الطائفية التي تسيطر على الخط الأساسي في العمل الروائي. ويروي الحدث أن تقسيم الوطن الواحد بين مسلمين ومسيحين يشكل خطرا داهما وعائقا دون حركة المجتمع نحو التقدم والازدهار. وقد وظف القعيد في معالجة هذا الموضوع كل التقنيات الروائية الحديث.

---

1 - نفس المصدر، ص 73.

رواية "يحدث في مصر الآن": هذه رواية ساخرة سياسية، تدور في الفضاء الريفي وتتحدث عن زيارة الرئيس الأمريكي المطرود بسبب الخيانة إلى قرية مصرية، وتتمركز الأحداث حول التحضير للزيارة واستقبال الرئيس، ويتحدث القعيد واقع المواطن الريفي واستهتار الأجهزة الأمنية بعقله، وبجانب أصل القصة تتخلخل بين ثناياها أحداث أخرى نحو قصة جريمة قبل الزيارة بفترة ويحاول رجال الشرطة إخفائها. وتبدأ الرواية بحادثة اعتداء العامل الزراعي على الطبيب، إذ يتصل رئيس مجلس القرية الضهرية تلفونيا بمعاون نقطة بوليس التوفيقية مباشرة.. أبلغه باعتداء عامل زراعي على طبيب الوحدة وسبه علنا في مقر عمله الرسمي أثناء تأديته لمهام وظيفته أمام شهود والسبب قيام العامل الزراعي بعملية تزوير ثابتة عليه"1 .

الحادثة بسيطة للغاية غير أن الروائي الحاذق استطاع الخوض في غمار الأحداث الخارجية المرتبطة بزيارة الرئيس الأمريكي لمصر، للتوصل إلى الاستغلال والاضطهادات. ومن خلال الرواية استطاع الروائي إبراز التجليات الريفية العديدة، منها:

الريف المحتكر: تمثلت جريمة العامل الزراعي "دبيش" (الذي قتل الطبيب) في حصوله على المعونة، عن طريق غير شرعي، إذ كانت المعونة مخصصة للحوامل فقط، ولم تكن زوجة دبيش حاملا، غير أنه قام بتركيب بطن صناعية لها من الخرق القماش القديم، بعد أن ربطها بحبل، وحصل على المعونة، ولكن انكشف أمره، وقام بإفضاح الأمر. ولكن الروائي يرى أن الأثرياء كانوا يحصلون على المعونات عن طريق غير شرعي، وانفضح أمر العامل الزراعي لأنه كان من المعدمين، والذي لم

1 - القعيد، يوسف ، يحدث في مصر الآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2002م، ص: 19.

يكن يحدث للأغنياء الذين قاموا بابتكار حكاية البطن الصناعية التي تعلمها منهم العامل الزراعي، وقاموا عن طريق خادماتهم بالحصول على المعون بشكل وصل لدى بعض العائلات إلى عشر مرات1. كما تتجلى هذه التجليات في الحوار الذي دار بين صدفة والمؤلف، حيث تقول صدفة:

"الأغنياء أخذوا المعونة من غير حبل.

والأغنياء أخذوها ليه؟ همه محتاجين؟

البحر يحب الزيادة.

وليه اتمكستوا انتو؟

هوه الضفر يطلع من اللحم. مين يمسك مين؟ حد يقدر البغل في الإبريق.

مين اللي يقدر يقف في وش الدكتور والعمدة والناظر والأغنياء؟ ده لسه ما نزلش من بطن أمه"2.

في هذا الاقتباس نرى كل ما يدور في القرى والأرياف من سيطرة الأثرياء وذوي النفوذ والسلطات المحلية في الاحتكار بمصادر الدخل والقوت، وكيف الضعيف يقع فريستهم، طبعا انكشفت الفضيحة، لا لأنهم فعل فعلة غير شرعية، بل لأنها كان من شريحة المجتمع المهمشة.

الريف المحتاج والفقير: ومن خلال توزيع المعونة المادية في هذه الرواية نجد أن الغرض الحقيقي وراء هذه المعونة التي تم تقديمها من قبل الأمريكيين إنما كان

1 - عبد العظيم، صلاح سليمان، سوسولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، 1998م، ص 97.

2 - القعيد، يوسف، رواية يحدث في مصر الآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص 98.

بسبب الغرض الأمريكي في بسط نفوذه في مصر، وبدأوا بها من الأرياف، لأن الريف والسلطة المحلية قلما تعثر على هذه الدسائس والمكائد. وتبدأ الرواية فعلاً بيوم الجمعة 7 يونيو عام 1974م حينما تصل معونة الولايات المتحدة الأمريكية إلى القرية، وكلف طبيب الوحدة من قبل رئيس مجلس القرية بتوزيع المعونة. وفي هذه المعونة نجد الريف المصري محتاجا يستغيث ويقبل المعونات الخارجية. يقول الروائي في خصوص هذه المعونة "في مساء يوم الجمعة السابع من يونيو 1974م، وردت إلى مجلس القرية كميات من الدقيق، والسمن، واللبن الجاف من معونة الولايات المتحدة الأمريكية للشعوب المتخلفة أو الفقيرة ... كانت هناك تعليمات شفوية من الموظف المرافق للسيارة، تطلب تفهيم كل من تصرف له هذه المعونة بأنها هدية شخصية من الشعب الأمريكي الصديق. قرر إرسالها رجل السلام العالمي نيكسون. قال لي المؤظف: أن تفسيره لسبب الاستعجال هو زيارة نيكسون لمصر"1.

فالمعونة دائما تقدم من قبل الأثرياء للفقراء والشعوب الفقيرة، ولم تنزل بالساحة الريفية إلا باعتبار الريف فقيرة تحتاج إلى المعونات الدولية.

الريف ساحة التحولات: وقد حاول الروائي من خلال هذه الرواية رصد التحولات الجديدة الطارئة على مصر في فترة ما بعد حرب أكتوبر وما بعد زيارة الرئيس الأمريكي لمصر، وذلك من خلال المقابلات المستمرة بين عالِمَيْ كبار الملاك وذوي النفوذ من ناحية، والعمال الأجراء والفلاحين الفقراء والمعدمين من ناحية أخرى2. الريف يبدو مسرحا للتحول السياسي يفيء الغرض السياسي في توطيد العلاقات

1 - القعيد، يوسف، رواية يحدث في مصر الآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص: 33.
2 - عبد العظيم، صلاح سليمان، سوسولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، 1998م، ص: 98.

الأمريكية والمصرية، إذ المعونة – كما سبق وصفها – لا تقدم بشكلها المادي خالية من أية أغراض، لكنها تحمل في ثناياها بث أيديولوجيا يتخللها ليصل إلى متلقي هذه المعونة كالسرطان، بحيث يعي كل من يحصل عليها أنها من الشعب الأمريكي الصديق، في محاولة من أجهزة النظام الإعلامي – في ذلك الوقت – لفرض النموذج الأمريكي على مصر بخاصة وعلى المنطقة العربية بعامة1.

الريف المأوى: برز الريف المصري كجزء رئيسي للسياسة المصرية الخارجية، إذ يعتبر الزمن الروائي فترة التحولات في العلاقات الخارجية في تاريخ مصر، وزيارة الرئيس الأمريكي تشمل الريف المصري، وفي دلالة هامة لهذه العلاقات. والرئيس الأمريكي كان ذلك الوقت مطاردا في بلده من أبناء شعبه والأجهزة السياسية المختلفة، بتهمة الرشوة ومخالفة اللوائح والقوانين الوطنية، وهو ما عرف في ذلك الوقت الموسوم بـ فضيحة ووترجيب، وفي الوقت الذي لم تتسابق فيه أية دولة من دول العالم لاستقبال الرئيس الأمريكي، سارعت مصر الرسمية لاستقباله، وكأن التحولات الجديدة في مصر زمن الزيارة تعكس طبيعة المكان – الريف المصري – بوصفها موضعا يأوي إليه المطاريد2. فيه إشارة إلى أن العلاقة الأمريكية ومصرية لم تكن مرغوبة لدى المصريين، إذ بدأت برئيس مطرود ومتهم بتهمة الرشوة ومخالفة اللوائح والقوانين. ولعل السبب يعود إلى أن مصر آنذاك لم تعود بالصداقة الأمريكية، إذ كانت قبل ذاك الوقت في عهد الرئيس المصري السابق جمال عبد الناصر مرتبطة بالاتحاد السوفيتي، ولأول مرة في عهد الرئيس أنور سادات بدأت قبلة الخارجية تتوجه تلقاء أمريكا، ومن ثم لم تكن فاتحة العلاقات الودية معززة في البداية، ولم تبرز حتى

1 - نفس المرجع، ص: 85.
2 - نفس المرجع، ص 83.

ذلك الوقت أمريكا كقوة عسكرية واقتصادية تفوق الدول السوفيتية، والفكرة الاشتراكية لم تزل تهيمن على الأفكار والنظريات المتداولة، والرأسمالية كانت في مستهل التطور.

الريف ذو الفئات الاجتماعية: كل مجتمع يتكون من فئات يجري الصراع فيها، إذ نجد في رواية معظم الروايات يجري الصراع في معسكرات؛ معسكر الأغنياء وذوي النفوذ من جانب ومعسكر الفقراء والمعدمين من جانب آخر. وفي الرواية نجد أن معسكر الأغنياء يشتمل على ملاك الأراضي الزراعية من الإقطاعيين السابقين، والذين يندرجون تحت شريحة الرأسمالية الزراعية إبان فترة الانفتاح الاقتصادي، بالإضافة إلى ذوي النفوذ في القرية الذين تتيح لهم وظائفهم ومواقعهم في المؤسسات القروية تحقيق المكاسب المادية بشكليها المشروع وغير المشروع، بالإضافة إلى ما تكفله لهم هذه الوظائف من فرض سلطاتهم على المواطنين المتعاملين مع هذه المؤسسات، وتندرج هذه الشريحة تحت فئة البورجوازية البيروقراطية1، ويمثل هذه الفئة الشخصيات التالية:

رئيس مجلس القرية: هو يشرف على المدرسة، والمستشفى، والمركز الاجتماعي، كما جاء في الرواية "في الإسكندرية كان رئيس مجلس القرية يجلس في أحد أماكن العشق، والمحبة مع خطيبته... راح يحدثها عن حالة الجو، وعن عمله رئيسا لعشرين ألفا من الفلاحين. وسلطاته ومستقبله، في ذروة الحماس عاتبها بحرارة لأنها لم تفكر في زيارة مملكته الجميلة، لم ترد عليه، وردت حكاية العامل الزراعي الذي حاول الاعتداء على طبيب الوحدة. أفاض في شرح الإجراءات الرهيبة التي اتخذها قبل

1 - نفس المرجع، ص 87.

حضوره"1. يحس الرئيس الشعور بالسيطرة على الفلاحين ويشوبه إحساس بالتعالي تجاه العامة من الريفيين.

طبيب الوحدة الصحية: يتميز بالتحايز بين الريفين والوافدين من المدينة إلى الريف، مع أنهم في أحسن حالة من الريفيين، غير أنه يشكو بابتعاثهم إلى القرى والأرياف، يقول "إننا نتعلم ونحصل على شهاداتنا العالية، ثم نرمى في هذا الواقع الكئيب، حيث نبدد زهرة شابنا"2.

معاون نقطة التوفيقية3: وهو الضابط والذي يمثل السلطة القمعية، ويعتمد على القهر الفيزيقي، ويساعده على عمله الشنيع السلطات التي تكفلها له وظيفته وهيبته الشرطية، ويعمل على تغييب الدبيش ويقنع عمدة القرية بأن عملية قتل و إخفاء الدبيش سهلة جداً. فهي شخصية سلبية.

إن هولاء الشخوص ينتمون إلى الفئة البورجوازية البيروقراطية، ليسوا من أبناء القرية، بل من الوافدين عليها، تم تعيينهم في شتى أنحاء الريف المصري حسب تخصصاتهم ووظائفهم، وأنهم يمثلون مركزًا للقوة من خلال وظائفهم التي تكفل لهم النفوذ في القرية.

وبجانب آخر هناك معسكر آخر؛ معسكر الفقراء والمعدمين يضم فئتين:

فئة العاملين في المصالح والمؤسسات الحكومية في القرية: ومن هؤلاء ساعي مجلس القرية، وسائق سيارة الإسعاف، وتومرجي الوحدة الصحية، والعسكري

1 - القعيد، يوسف، يحدث في مصر الآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص 21.
2 . القعيد، يوسف، يحدث في مصر الآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص 90.
3 - ضابط برتبة نقيب.

النوبتجي في النقطة، وتومرجي الاستقبال في المستشفى، وكاتب التحقيق، تأتي رتبتهم في أسفل السلم الوظيفي، وهم محدودي الدخل من حيث المكاسب.

فئة العمال الأجراء، والفلاحين الفقراء والمعدمين: لم يذكر الروائي أشخاص كثيرين من هذه الفئة، وإنما أورد شخصية "الدبيش عرايس" ذاك العامل الزراعي القتيل، والذي يحدور الحدث الروائي حوله من البداية إلى النهاية. وكأنه ينوب عن شريحة العمال الأجراء الذين لا يملكون من الحياة سوى قوة عملهم في أراضي الأغنياء، وذوي الملكيات الكبيرة، ولا يحصلون على ما تقيم أود حياتهم إلا بشق الأنفس. كما أورد الروائي بعض زملاء الدبيش من أمثال الغلبان، وعبدالله، ومصطفى، والسويسي وغيرهم الذين يواجهون قلة الدخل وصعوبة المعاش في سبيل الارتزاق.

إن حياة هذه الفئة في غاية من الصعوبة، ومن خلال الشخصية المتمثلة لهذه الفئة "الدبيش" وزوجته "صدفة" تدرج الروائي في رفع الستار عن ظلام الحياة حول هذه الفئة؛ فدبيش هذا، لم يذهب إلى المدرسة، ولم يحقق أي من أحلامه، حياته قاسية، كان والده خفيرا في ماكينة الطحين، وأمه تبيع الترمس خارج الماكينة قبل زواجها من خفير الماكينة الوافد من خارج القرية، وولد بهما الدبيش؛ فهو لا يمتلك شبرًا واحدًا من الأرض[1]. وأما حالة زوجة الدبيش فهي أسوأ منه، إذ هي من عائلة عاشت كعمال تراحيل. وحالته الصحية متدهورة جدًا، كما جاء في تقرير الطبيب "أقرب إلى فقر الدم والضعف العام، وفقدان الشهية، وهي أعراض حالة سوء التغذية"[2].

1 - القعيد، يوسف، رواية يحدث في مصر الآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص 101-102.
2 - نفس المصدر، ص: 45.

وقد أجاد الروائي في تصوير هذه المرأة والذي يشير إلى حالة العائلة المزرعية، كما يقول: "امرأة هزيل، الجلد مشدود على العظم، العروق ليست منفتخة ولا زرقاء اللون، على كتفها طفل رضيع، يمسك بها من اليمين طفل، ومن اليسار طفلة، سواد جلبابها باهت، ويبدو من شديدي الطفلتين أنه على وشك أن يتمزق إلى ألف قطعة، من ثقوبه أطلت علينا أجزاء من جسمها وملابسها الداخلية التي لم تكن زاهية اللون، الوجه شاحب، ليس شحوب الخائفين، بقدر ما هو شحوب الذين ماتوا منذ زمن بعيد وينتظرون الدور في الدفن... سألتها عن الأطفال الثلاثة قالت أنهم أولاد الدبيش"1.

وقد ركز الروائي على الطبقة المهمشة والفقيرة في معظم رواياته الريفية؛ فلا تختلف طبيعة الشخصيات المهمشة في رواية "الحرب في برّ مصر" لا تختلف عن رواية "يحدث في مصر الآن"؛ حيث توجد عائلة "مصري" الفقيرة مقابل العمدة الغني. وأيضًا نجدها في نفس الحالة المهانة في ثلاثية "شكاوي المصري الفصيح" إذ يعرض المؤلف لأحدى العائلات الفقيرة التي تسكن القبور حيث تطردهم العائلة صاحبة المقبرة بحكم قضائي من المحكمة، فيلجأ رب العائلة الفقيرة لحيلة تثير السخرية وتبعث السخرية وتبعث على الرثا للحال الذي وصلته مصر في السبعينيات، حيث يعرض أولاده للبيع في ميدان التحرير... هكذا استطاع الروائي تصوير هذه الفئة شكل فني دقيق.

الريف المستغَلّ: يبدو من السرديات الروائية لدى القعيد أن القوى المستغلة اتخذ الريف مكانا ملائما للاستغلال، والانتهاز بالفرص. وقد سخروا لهذا الغرض وظائفهم

1 - نفس المصدر، ص: 90-91.

ومناصبهم كأداة للاستغلال، وبالإضافة إلى ذلك استخدموا كتاب الله والجوانب الدينية في تكريس الواقع لصالحهم. يقول صالح سليمان عبد العظيم "ويستخدم أفراد هذا المعسكر1، الدين بوصفه آلية تساعد على تكريس التفاوتات الطبقية بينهم وبين أفراد المعسكر الآخر من الفقراء والمعدمين، وذلك من خلال الاستعانة بالآيات القرآنية التي تثبت الأوضاع وتؤكد على أن الله هو موزع الأرزاق، وأن الفقراء مصيرهم الجنة في الآخرة عوضا عن الدنيا الفانية"2. كما جاء في الرواية في قول الإقطاعي في شهادته للضابط حول العامل الزراعي "الحكاية تتلخص في كلمة واحدة: الطمع الفقراء طماعين اللي ما يملكش بينظر للي في أيد الآخرين، كأنه حق له، مع أن المال زائل ويجب على الفقراء أنهم يتحلوا بالصبر والقناعة والعمل الصالح. علشان يضمنوا الآخرة بكل ما فيها. إن من ينظر لما بيد أخيه في الدين والوطن والإنسانية. هو نهاية النهايات بالنسبة للكل. هل الموت بيفرق بين من يملك كل شيء، ومن يملك أي شيء، اللي ما يملكش بيكون أخف يوم القيامة"3. كما تحول الدين إلى سلاح متسلط على المنبوذين ومعسكر الفقراء والمعدمين في قول الطبيب الذي يشير إلى وضع الريف في مصر "الحكومة حكومة والشعب شعب، العشرين ألف اللي هنا، شعارهم معروف. قال الله تعالى في كتابه الكريم. وهو أصدق القائلين "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" واحنا أولى الأمر اللي قصدهم. طبعا مش حا أكلمك عن الشعور الديني في الريف"4. هذا يدل على هيمنة التأثير الديني على عقلية الفلاحين، واستغلاله من قبل ذوي النفوذ لمصالحهم الشخصية.

---

1 - أراد به معسكر الأغنياء وذوي النفوذ والسلطات.

2 - عبد العظيم، صالح سليمان، سوسولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، 1998م، ص 114.

3 - القعيد، يوسف، رواية يحدث في مصر الآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص 74.

4 - نفس المصدر، ص: 129.

الريف ساحة الفساد الإداري، واستغلال المناصب: يمثل الريف المصري ساحة الفساد الإداري واستغلال الفرص لترقية إلى المناصب العليا والمكاسب المتزايدة، حيث نجد لدى الشخصيات ذات الفئة العلية وذوي النفوذ في القرية من الأثرياء، ورئيس مجلس القرية، والطبيب، والضابط رغبة جارفة في الارتقاء لمناصب أعلى؛ فقد وصلت طموحات الضابط إلى أن يكون مديرا للأمن العام، وطموحات الطبيب أن يكون وزيراً للصحة وطموحات رئيس مجلس القرية أن يكون محافظا للإسكندرية، كلهم يريدون تحقيق المكاسب والارتقاء بالمناصب العليا ولو على حساب الآخرين. والفساد الإداري واستغلال المناصب تتجلى في طريقة تحديد المستحقين للمعونة الأمريكية؛ يطرح رئيس مجلس القرية تساؤلا في هذا الخصوص "من الذي يستحق المعونة من أهل البلد؟ ثم يجيب قائلا: اتسعت الإجابة لدرجة أنني اكتشفت أن العشرين ألف وهم كل سكان البلد يستحقون المعونة. كان السؤال الثاني، من الذي يشرف على التوزيع؟"[1]. وفي التساؤلين نجد استغلالاً للمناصب، وتمثيلا للفساد الإداري؛ رئيس مجلس القرية يتخذ قرارات بشكل فردي يتماشي مع مصالحه فقط، حتى إن الفساد الإداري الهائل والاندفاع الحادّ لمطوحاته دفعا الروائي التدخل والتعقيب على ما قاله الرئيس، وأفضح كذبه وافتراءه. وبالإضافة إلى فساد الرئيس اعترى الفساد مؤسسات القرية؛ فصندوق تنمية المجتمع المحلي بديلا عن توجيه ميزانيته لخدمة الريف، حيث الحارات الضيقة والبيوت الفقيرة والفلاحين المعدمين، فإنه يوجه مخصصاته لاستقبال موكب الرئيس الأمريكي نيكسون يوم زيارته. والشخصية الثانية التي تمثل الفساد الإداري ويستغل المناصب لصالحه هو الطبيب. إنه حاول انتهاز الفرص للاستغلال خلال توزيع المعونة. ولم يتحمل مسئولية التوزيع

1 - نفس المصدر، ص 33-34.

إلا تمهيدًا لفتح عيادة خاصة به في القرية، وبالتالي لم يقم بأداء واجباته بشفافية وأمانة. كما جاء في الرواية: "لم يقل الطبيب أنه ما أن انتهى مع رئيس القرية إلى القرار بالصرف للحوامل فقط حتى قام بإجراء آلاف التعديلات بالحذف والشطب وزيادة الأسماء، والبيانات والتواريخ في سجل الحوامل. كان يمكن أن يستمر العمل طويلا غير أن الصفحة التي تآكلت من كثرة المسح والكشط بمشارط كسر الحقن، فاجأتهم بأن قطعت من منتصفها عند محاولة إصلاح القطع اتسع كثيرًا مما اضطر الدكتور لإنشاء دفتر جديد.. لم يدون في الدفتر إلا أسماء العائلات التي تكشف كشفا خصوصيا في المنزل وتعتمد على الأطباء في الولادة بديلا عن الداية القديمة"1. ويقوم الطبيب بمنح المعونة العائلات الغنية دون الفقيرة منها، كما حصلت مع عائلة الدبيش، وبالتالي قام باحتفاظ جزء من المعونة لحسابه الخاص. والنموذج الثالث للفساد الإداري والاهتراء والفساد يتمثل في صورة الضابط الذي يعمل على تغييب العامل الزراعي وقتله، وعندما يسأل رئيس مجلس القرية بخصوص مصير الدبيش وتغييبه، لو فتح أولاده أفواههم أمام السلطة الكبرى؟ فقال بعد أن غرق في الضحك "أنها نكتة، أن قليلا من الدقيق الفاخر الذي وفره الدكتور من التوزيع، كافية لإغلاق فم البلد كلها، نحن في الريف ولسنا في القاهرة"2. وفي هذا الاقتابس نرى أن القوى المستغلة اتخذ الريف مسرحا للاستغلال وانتهازًا للفرص، كما يدل عليه السطر الأخير من الاقتباس المذكور إذ يقول الضابط "نحن في الريف ولسنا في القاهرة"، يعني هذا أن الريف فريسة سهلة بالنسبة للمستغلين.

1 - نفس المصدر، ص 40.
2 - نفس المصدر، ص 128.

الريف القاسي: إن الحياة في الريف تبدو في غاية من القسوة، والشقاء، إذ يعامل القوى الظالمة بالقهر، بدءا من أشكال القهر المعنوي الذي يحتوي على الإخافة والتهديد، وأشعار الفقراء بالضآلة وبث الرعب في أنفسهم، بميكانزم القهر كبت كل أشكال بالنسبة للفقراء والعسف المتواصل من جانب رؤسائهم، وهيمنة بنية التخلف الاجتماعي والفقر من جانب آخر. وبالإضافة إلى ذلك يزداد الريف قساوة بسبب الفساد الإداري العارم، وسوء استغلال السلطلة، والذي قد يؤدي إلى القتل وتعاسة الفقراء وحرمانهم عن المعونات، وأجور العمل.

وعلى هذا النحو تجلى الريف في كتابات القعيد القصصية والروائية، وبما أن القعيد برع في الفن الروائي، جاء التركيز على تجليات الريف في كتاباته الروائية، وبالإضافة إلى ذلك أنه كتب روايات عديدة، لا يمكننا التقصي عن تجليات الريف، في جميع رواياته اكتفينا على روايتي "البيات الشتوي" و "يحدث في مصر الآن" حتى نتمكن من دراسة مستفيضة لصورة الريف المصري في روايات القعيد على سبيل النموذج لا على سبيل الحصر. ومن خلال الدراسات المركزة تجلت شتى مظاهر الريف في الرواية.

الباب الرابع

دراسة مقارنة بين يوسف القعيد وبعض الروائيين الآخرين في معالجة قضية الريف المصري

الفصل الأول: ملامح القضايا الريفية المصرية في روايات يوسف القعيد

الفصل الثاني: ملامح القضايا الريفية المصرية لدى الروائيين الآخرين

الفصل الثالث: أوجه التشابه والاختلاف بين يوسف القعيد والروائيين الآخرين في معالجة القضايا الريفية المصرية

الفصل الأول

ملامح القضايا الريفية في روايات يوسف القعيد

الرواية الريفية العربية لها تاريخ عريق ممتد في جذور أدب العالم العربي، وهي حدث تاريخي بدائي في تاريخ الرواية الرواية العربية على وجه عام وفي تاريخ الرواية العربية المصرية على وجه خاص، إذ باتت الريفية الركيزة الأساسية في أولى الروايات العربية المصرية "زينب" لمحمد حسين هيكل، ويرجع الفضل إلى رواية "زينب" بكونها أول رواية اجتماعية تشرح حياة الريف المصري وعاداته ومعيشته، وأما القصة فتدور حول حب شاب متعلم لفتاة فلاحة. واتفق معظم النقاد على أن الرواية الفنية العربية هي رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل، التي ظهرت عام 1914م، وظلت الأرياف محطة للأفكار ومصدرة للقصص حتى نهاية العقود الأخيرة من القرن المنصرم1، وبه لقيت القرى والأرياف المصرية بشكل خاص، والعربية بشكل عام حيزا واسعا في صفحات الروايات، إلى أن بدأ المهاجرة من القرى والأرياف إلى المدن للعمل والارتزاق في الشركات، والموانئ والمطارات، واحتكرت المدن على الموارد البشرية وجلست عليها جاثمة فحرمت القرى والأرياف من مصادر الأقوات لتقيم أبناؤها أود حياتهم، وبه شهد العالم ومصر على رأسها أزمة مهاجرة العقل الأرضي أو ما نسميه بالإنجليزية بـ(Brain–drain) فبدأت القرى والأرياف تفقد حيويتها ومصدرها للإبداع، والذي أثار القلق لدى النقاد والكتاب الروائيين. كما يقول الروائي المصري يوسف أبو رية:

1 . أي القرن العشرين، منذ بداية الروايات العربية في مستهل ذاك القرن.

"الرواية الريفية تاريخ عريق ممتد، وحين صار الموروث الريفي مهددًا بالانقارض بما جدَّ فيه، والفلاح أصبح مهاجرًا من أرضه لتضيق به الموانئ والمطارات.. فهل تستطيع القرى أن تخلق إبداعًا مغايرًا يتوافق وعيها الجديد، أم ستظل متشبثة بتراثها"[1]. وقد أعرب الروائي عن قلقه في ندوة العجيلي للرواية العربية في دورتها الثانية في مدينة الرقة، وأنه قال إنه لايمكن له الانفصال عن الريف، خاصة فيما يخص بالإبداع، واتخاذه كمصدر للقصة، وانتقاء شخصياتها من المكان الريفي. ومن هذه النقطة المهمة للغاية نتوصل إلى نتيجة أن الريف له أهمية بالغة في الأدب الروائي، ومن ثم خاض العديدون من الروائيين العرب وعلى رأسهم المصريين في تجربة الإبداع الروائي في الجو الريفي، وعلى رأس هؤلاء يوسف القعيد، بل من قد ينخرط بعضهم في الفئة الروائية الرائدة. وعلى هذا الأساس نحاول الإطلاع على الرؤى الريفية لدى الروائيين المصريين حتى يتسنى لنا المقارنة بينهم وبين الروائي يوسف القعيد، غير أنه قد يكون من نافلة القول بل من مستوجباته أن نقوم بتحديد ملامح الفكر الريفي لدى يوسف القعيد، حتى تكون الموازنة جلية، وقائمة على الأسس العلمية النموذجية.

1 . أحمد، خليل، الروائي المصري يوسف أبورية الحائز على جائزة نجيب محفوظ لعام 2006م لا أستطيع الانفصال عن الريف (تقرير صحفي أدبي)، بتأريخ: 06/04/ 2007م، تم نشر التقرير على موقع تشرين بتاريخ: 03/ 12/ 2015م، من خلال الرابط التالي:
(http://tishreen.news.sy/tishreen/public/read/111705 1/3)

(ألف) ملامح القضايا الريفية العامة في روايات يوسف القعيد: اشتهر الكاتب يوسف القعيد بفضل رواياته العديدة التي تصل نحو إلى عشرين رواية من أهمها "الحداد"، و"أخبار عزبة المنيسي"، و"أيام الجفاف"، و"البيات الشتوي"، و"يحدث في مصر الآن"، و"الحرب في برّ مصر"، و"شكاوي المصري الفصيح"، و"في الأسبوع سبعة أيام"، و"وجع البعاد"، و"أربع وعشرون ساعة فقط" وغيرها. وتوحي دراسات عابرة لرواياته إلى أنها عكست فيها ارتباطًا عميقًا بالواقع الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي للفلاحين البسطاء، والمهمشين، والتزامًا نبيلًا بقضاياهم ومشكلاتهم، وقد أجاد في هذا التصوير الرائع بفضل لغته الشاعرة المترعة بالشجن، وأسلوبه الرشيق الأخّاذ ومثير للدهشة1.

قبل البحث عن ملامح ريفية في روايات يوسف القعيد يجدر بنا أن نقدم نقطتين بارزتين من حياته الفكرية:

النقطة الأولى: (همّه الفكري الأدبي) حاول القعيد تقديم صياغة فنية جديدة للواقع المصري وقضاياه، إيمانًا منه بأنّ من وظيفة الأديب أن يجعل من إبداعاته وسيلة للتغيير والتحديث. وخطرت بباله هذه الخاطرة نتيجة الظروف التي عاش بها في الستينيات، والسبعينيات في الريف المصري، حيث شهد جمهورية مصر تحولات الثورة في عام 1962م تحت قيادة جمال عبد الناصر كمحاولة للنهضة الحديثة، ثم محاولة الرئيس التالي أنور السادات للانفتاح الرأسمالي، وبسبب هذه البواعث الداعية إلى التغيير الجذري. ومن هنا تميز همه الفكري بسمات خاصة. وتقول الباحثة سمية الشوابكة مشيرة إلى همّه الفكري الأدبي: "ولهذا تطرح أعماله الأدبية: الروائية والقصصية على اختلافها نوعًا من الهمّ الاجتماعي ذا وجه سياسي يتمثل في نبذ التبعية الرأسمالية، ورفض

1 . الكافوري، السعداوي، يوسف القعيد في حوار "ما بعد السبعين": لا أكتب أدبًا سياسيًا، جريدة أخبار الأدب، القاهرة، مصر،12 مارس 2014م، ص: 29.

التحالف مع العدو، وتخفيف حدة الفروق الطبقية بين أبناء المجتمع الواحد، والتعبير فنيًا عن أثر التغيرات البنائية والسياسات الاقتصادية، وأنساق القيم الاجتماعية في الظروف المعيشية"1.

النقطة الثانية: (خلفيته الريفية) إن خلفية القعيد الفلاحية والريفية، والتي تحولت إلى دافع قوي لتناول الريف والجو الريفي في معظم أعماله الروائية وقصصية. فقد وُلد القعيد في عام 1944م لأسرة فلاحية من منطقة الدلتا المصرية، من قرية "الظهرية" التابعة لمحافظة البحيرة. وأنه تلقّى تعليمه داخل بلاده، وقلما زار البلدان الأخرى، وعمل في القوات المسلحة المصرية إضافة إلى عمله في مجال التدريس، والعمل في مجالات الأدب والصحافة، مما زاد تأثره من بيئته الريفية، ثم انعكس من خلال أعماله الروائية والقصصية. يقول بول ستاركي "والحال أنَّ خلفية القعيد الفلاحية، وما انخرط فيه من نشاطات متعددة، ينعكس جميعاً في هذه أو تلك من رواياته وقصصه القصيرة التي تُرْجِمَ عددٌ منها إلى اللغات الغربية"2. ومن خلال العثور على خلفية الروائي نتمكن من تحديد العناصر الريفية في رواياته بشكل عام. منها ما يلي:

القرية وبيئتها: باتت القرية من الركائز الأساسية في رواياته. إنه اتخذ قريته الضهرية نموذجًا للقرية المصرية العادية، وهي تتواجد على طول رواياته. يقول القعيد:

"لقد عرفت القرية وحياة الفلاح، لأنني عشت في القرية، ورغم أنني أرغمت علي الحياة في المدينة (القاهرة تحديدًا) منذ ديسمبر 1965م وحتى الآن، فما زلت

---

1 . الشوابكة، سمية، الميتاقص تجريبًا روائيًا – قراءة في أعمال الروائي المصري يوسف القعيد: "الحرب في برّ مصر"، و"يحدث في مصر الآن"، و ثلاثية "شكاوي المصري الفصيح"، دراسة منشورة "مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، الملجد 27 (3)، 2013م، ص: 7.

2 . بول ستاركي، من المقابر إلى ميدان التحرير دراسة في روايات يوسف القعيد (دراسة في أعمال القعيد)، ترجمة إلى العربية: ثائر ديب، منشورة على موقع منتديات ستار تايمز (أرشيف: أدباء وشعراء ومطبوعات)، بتأريخ: 2008/08/11م، بتوقيت: 01:52 صباحا، من خلال الرابط: (http://www.startimes.com/f.aspx?t=11358671).

مؤمنًا بأن القري خلقها الله، وأن المدن بناها البشر، وأن الإنسان لا يمكن أن يغادر مدينة طفولته مهما ابتعد عنها وغادرها إلى العديد من المدن الكبيرة. لقد عشت في المدينة مغتربًا عنها، لم أستطع أن أكون جزءًا منها أبدًا، حملت غربتي علي كتفي وعشت في المدينة مرغمًا"1. وفي هذا الاقتباس نرى الاحتفاء الكبير بالقرية، يتمثل في إيمانه بأن القرى من خلق الله تعالى، والمدن من بناء الإنسان، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أن القرى والأرياف تتميز بالأصالة لا في الوجود فحسب، بل في طقوسها، وتقاليدها، وحضاراتها، ومناظرها.

وإنه جسد في أول روايته "الحداد" قريته. وإنهم لم يكن وحيدًا في تجسيد القرية في أولى أعماله الروائية، إذ وجدنا روائيا آخر، وهو من عمالقة الأدب الروائي المصري، نجيب محفوظ، أيضا كتب أول نصه الروائي عن القرية باسم "أحلام القرية"، غير أنه لم ينشرها، لأنه لم يكن راضيًا عنه بعد الانتهاء من كتابته. وقد كشف عن هذا السر الروائي نجيب محفوظ نفسه في لقاء مع القعيد، عندما قدّم القعيد روايته الأولى لنجيب محفوظ. كما يقول "عندما قدمت رواية (الحداد) وهي روايتي الأولي في مايو 1969م إلى نجيب محفوظ قال لي يومها: هل تعرف أنّ أول نص روائي لي كان عن القرية؟!" ففاجأه كما يضيف القعيد قائلا: "كانت مفاجأة، قلل منها أن الرجل لم يبق معه من هذه الرواية سوى عنوانها الذي مازال على جدار الذاكرة (أحلام القرية) أما النص نفسه فقد فُقد منه. فالرجل لا يحتفظ في بيته بأوراق

1 . الكافوري، السعداوي، يوسف القعيد في حوار "ما بعد السبعين": لا أكتب أدبًا سياسيًا، جريدة أخبار الأدب، القاهرة، مصر،12 مارس 2014م، ص: 30.

أو كتب كثيرة. وهو لم ينشر النص لأنه لم يكن راضيًا عنه بعد الانتهاء من كتابته"[1].

الفلاح والزراعة: ومن إحدى معالم روايات القعيد الريفية تتمثل في تناول جزئيات وتفاصيل الحياة اليومية عند الفلاح، خاصة الفلاح المصري. في طفولته كان والده تاجرًا صغيرًا، وعاش القعيد حياة القرية غير أنه لم يعش تلك السنوات الأولى حياة الحقل بكل تفاصيلها، بل مر بتجربة الفلاحة والزراعة عندما تحول والده من التجارة إلى الزراعة في الخمسينيات. وهذه التجربة الزراعية جعلته متحايزًا للفلاحين الكادحين الذين كانوا يعملون شبه العاملين في أراضيهم ليكتسبوا بضاعة مزجاة تكفي لسد رمق حياتهم بغاية من الصعب. وفي حواره مع السعداوي الكافوري يقول القعيد: "ولأننا لم نكن نمتلك أرضًا زراعية. فقد مارس الزراعة ولكن من خلال نظام المزارعة. وهو الحل –ربما الوحيد– الذي يلجأ إليه مَن يريد ممارسة الزراعة ولا يمتلك أرضًا زراعية. وهو نظام ظالم وجائر. مالك الأرض هو المستفيد، والمستأجر هو المظلوم علي طول الخط. بعدي عن الحقل في سنوات عمري الأولي، جعل رواياتي عن الريف – كما لاحظ ذلك مصطفى بيومي في كتابه: "الفلاح والسلطة في أدب يوسف القعيد" أقول جعل هذه الروايات تخلو من مشاكل مياه الري وتوزيعها وما يمكن أن يجري بسبب ذلك، ولقد اكتشفت أن مياه الري كانت هي موضوع رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوي. لقد عرفت القرية وحياة الفلاح، لأنني عشت في القرية"[2]. فيبدو من هذا أنه بعد مروره بتجربة الزراعة كسبت رواياته بطابع الزراعة، والتحايز لطبقة الفلاحين، يذود عن كيانهم، ويعمل لأجل رفع مستوى معيشتهم، وأنه عرف قيمة الأرض في

1 . نفس المصدر، ص: 31.
2 . الكافوري، السعداوي، يوسف القعيد في حوار "ما بعد السبعين": لا أكتب أدبًا سياسيًا، جريدة أخبار الأدب، القاهرة، مصر،12 مارس 2014م، ص: 34.

حياة الفلاحين، كما طالع نتاج الأدباء الآخرين فيما يخص بالفلاح، والأرض، مثل الشرقاوي، ويوسف إدريس، ونجيب محفوظ، وطه حسين والآخرين.

الأرض: نالت "الأرض" قسطًا كبيرًا في الروايات العربية بشكل عام، وفي الروايات الريفية بشكل خاص؛ القروي والفلاح دائما يرتبط بأرضه، وأغلب الصراع يجري لأجل الأرض، والمأساة الكبرى في الروايات والقصص الريفية تتمثل في النظام الإقطاعي الجائر، والأرض سبب لقضايا عديدة تتواجد في العديد من الروايات الريفية، حتى تحمل بعض الروايات هذه الكلمة إما بصراحة مثل "الأرض" للشرقاوي، أو بمدلولاته مثل "الفلاح"، وما شابهتها من الكلمات.

السياسة: السياسة تعد من المحاور الرئيسية في مشروع القعيد الروائي، وقد تجلت هذه الظاهرة في صراع الفلاح مع السلطة، وقد عالج الناقد مصطفى بيومي في كتابه "الفلاح والسلطة في أدب يوسف القعيد". إنه في رواياته الثلاثة: "يحدث في مصر الآن"، و"الحرب في بر مصر"، و"ثلاثية شكاوي المصري الفصيح" على وجه خاص تصدى عن القضايا السياسية سواء تتعلق بالريف المصري أو المدينة المصرية. اللهم إلا أنه حاول الجمع بين رؤيته السياسية والقيمة الفنية للرواية. كما يقول القعيد بخصوص القضية السياسية في روايته "يحدث في مصر الآن": "عندما كنت أكتب رواية "يحدث في مصر الآن"، كنت أتساءل عما يمكن أن يبقى بعد سنوات طويلة من الحدث الجوهري الذي تدور حوله الرواية. إنني أحكي في هذه الرواية عن موكب الرئيس الأمريكي نيكسون، فماذا يمكن أن يبقى من هذا الحدث بعد سنوات؟! إن مثل هذه الأحداث ربّما يكون لها رنين صاخب وقت حدوثها، وقد لا يبقى منها شيء بعد تقدم الزمن، لذلك لابد أن تتم كتابة الرواية علي أساس كونها رواية فقط، يجب أن

تأتي شرعيتها من هذا الاعتبار، أيًا ما كان موضوعها وقضيتها، فهي رواية قبل أي اعتبار آخر.."[1].

هنا نرى يوسف القعيد أنه يحاول أن يعطي النص شرعيته من شكله الفني قبل كل شيء، ويورد قصة السياسة للحكي فحسب، لأن القضية السياسية قد تنعدم مع مر الزمان، فلا حاجة للتركيز عليها على حساب القيمة الفنية، وقد تبقى مثارا للجدل في المستقبل ويؤدي إلى نزاعات اجتماعية وسياسية أخرى، غير أن الصحافة أو مادة التأريخ هما مسئولتان عن تسجيلها ومتابعتها، والروائي قبل الموضوع والتحايز به يكتب روايته معتبرًا أنه روائي قبل كل شيء.

الغربة: الغربة والحنين في أغلب الأحوال يتشكل في صورة المهاجرة من الوطن الأم إلى البلدان الأخرى، حيث يشعر الإنسان المهاجر بالحنين، وفي هذا المعنى هي شائعة في عدة روايات عربية، خاصة فيما كتبت في المنفى. ولكن الشيء الجديد الذي نجده في روايات يوسف القعيد، فهو يتحدث عن غربة في وطنه الأم، والاغتراب في بلاده. وكما سبق الذكر أن العيشة الحقيقية إنما في القرى لا في المدن، وبالرغم من أنه أرغم على الحياة في المدينة وبالتحديد في مدينة القاهرة منذ ديسمبر عام 1965م، أنه يرى الأفضلية في الخلق للقرى، مؤمنا بأن القرى خلقها الله، وأما المدينة فقد بناها الإنسان، وأبى الله أن ينفرد بالكمال ولم يبرإ الإنسان من النقصان. إنه يقول "لقد عشت في المدينة مغتربًا عنها، لم أستطع أن أكون جزءًا

1 . نفس المصدر، ص: 36.

منها أبدًا، حملت غربتي على كتفي وعشت في المدينة مرغمًا"1. فالغربة من أهم ملامح رواياته.

وهاجس الغربة ودلالاتها تتنوع، إنه عالج أنواعا من الغربة، والسبب يعود إلى ظاهرة الهجرة لأجل اكتساب القوت. ومن أنواع الغربة هجرة الفلاح التقليدي حقله للعمل إلى المدينة، وهجرته إلى الدول العربية الشقيقة، أو هجرة القرويين إلى البلدان الأخرى للعمل أو لأجل عمل دراسات عليا. فيقول "أنا لم اغترب، لم أمرّ بتجربة الغربة، ولكني عاصرت هجرة المصريين بصورة تصل إلى حدود الظاهرة، وربما تتعداها كثيرًا، شدتني هذه الظاهرة عندما كنت أذهب إلى قريتي فلا أجد في الحقل سوى النساء، والشيوخ، والأطفال". ورواياته "بلد المحبوب"، و"وجع البعاد" و"أيام الجفاف" تعتبران بمثابة تنويعات على وتر الغربة. ففي رواية "بلد المحبوبات" يحكي الروائي عن الذين عادوا من الغربة بعد غياب، ثم استوطنوا فيها، في حين روايته "وجع البعاد" تتحدث عن الذين غابوا وابتعدوا ولم يعد لهم وجود في المكان المصري. وفي روايته الأخرى "أيام الجفاف" يبلغ الحنين إلى ذروة الكمال ويؤدي البطل المغترب خلف الله البرتاوي إلى إصابته بالجنون، بمجرد هجرته من بلدته "المنصورة" إلى قرية قريبة من "دمنهور" ليعمل هناك مدرسًا. وعلمًا أن القريتين المنصورة، ودمنهور تقعان في الوجه البحري في دلتا نهر النيل، ولا تحول فيما بينهما إلا مسافة يسيرة قلما تتجاوز عن مائة كيلومتر.

1 . نفس المصدر، ص: 38.

(ب) ملامح القضايا الريفية الخاصة بكل من رواياته: هنا نريد الوقوف لدى كل الأعمال الروائية ليوسف القعيد لندرس وجود الكائن الريفي في كل رواية، ونكشف القضايا الريفية التي تدور رواياته حولها على النحو التالي:

الملامح الريفية في رواية "الحداد": وهي رواية يوسف القعيد الأولى التي تم نشرها عام 1969م. تدور أحداثها في بيئة ريفية، في منطقة الدلتا المصرية، في مركز إيتاي البارود، وهي منطقة ريفية، وقد نشأ بها الروائي وترعرع في ربوعها. وفي هذه الرواية عالج القعيد على وجه أساسي قضية "الثأر"، و"الصراع بين مقتضيات العدالة الرسمية، وطرق العقاب العائلي الذي يسود في المجتمع الريفي المصري. وتهيمن البيئة الريفية مع شتى قوانينها وتقاليدها على الرواية. الزمان والمكان كلاهما يحملان الطابع الريفي. وفي الرواية حضور ملموس للفلاحين، بل الروائي يرصد الأحداث بعين فلاح مصري. واللغة الروائية خليطة من العامية المصرية والفصحى؛ حيث تتخلل العاميةُ المقاطع السردية بالإضافة إلى الحوار. ويسود جوّ من الحزن واليأس، والإحباط في الرواية بشكل عام، إذ تقع البطلة عيشة ابنة القتيل فريسة الانتقام، إذ تبدو ظاهرة التعطش للانتقام مثل اللازمة المتكررة على طول الرواية.

الملامح الريفية في رواية "أخبار عزبة المنيسي": وهي رواية يوسف القعيد الثانية، تم نشرها في عام 1971م، أي بعد سنتين من إخراج روايته الأولى "الحداد". وفي هذه الرواية واصل القعيد فكرته عن الريف المصري، بتصويره. والتيمات والأمزجة مشابهة فيما بين الروايتين إلى حدّ كبيرٍ. إذ تعالج هذه الرواية جريمة قتل "الحاج منصور أبوالليل"، وتجري الأحداث في قرية الضهرية، وهي قرية القعيد نفسها. ومن خلال هذه الرواية أثار القعيد قضايا بارزة معنية بالقرى والأرياف:

الأولى – قضية الاستغلال: القرى والأرياف تتميز بسكانها السذج، والبسطاء، الذين يقعون فريسة سهلة للاستغلال من قبل الطبقة العلية، عمدة القرية، وأبنائه، وحاشيته، وبالإضافة إلى حادثة اغتصاب الفتاة الريفية "صابرين" من قبل ابن سيد القرية ثم الحمل منها، تتواجد أنواع الاستغلال الأخرى حيث يواجهون الفلاحون وأهل القرية مشكلات ناتجة بسبب المستغلين والمنتهزين.

الثانية – قضية القتل لأجل الشرف: في الرواية أكبر الأحداث يتمثل في ضحية الفتاة القروية الشابة "صابرين"، التي يغتصبها ابن سيد القرية ثم تحمل منه، ويتم ترتيب عملية الإجهاض غير أن شقيق الفناة لا يقدر أن يطيق العار الناتج عن هذا الاغتصاب للعائلة، فيقتلها بتجريعها سُمّ الفئران زاعمًا أنه دواء. فهذا قتل حادث الشرف.

الثالثة – ضحية البريئات: في القضية نفسها تتمخض مشكلة ريفية أخرى، وهي قضية المرأة الريفية؛ فبدلا من أن يؤخذ الثأر من المغتصب، وأن يقتل شقيقها الزاني المغتصب "ابنَ سيد القرية" يقتل أختها، عارا على ما حدث معها. يعني أن المجتمع الريفي لا يغار على الفعل القبيح أو الجريم، بل يغار على من يصبح حصاده من الأبرياء، نتيجة الأقوياء والأشرار، فبدلا من أن توجه العقوبة إلى الجاني والمجرم، يأخذون الثأر من الأبرياء.

وجانبًا مهمًا من هذه الرواية فيما يخص بالريف المصري، أو القضية الريفية نجد أن الريف المصري أو القرية المصرية تتعرف على العالم الخارجي؛ فتمسّ شؤون العالم الخارجي فضاء القرية المغلق، وبدأ القرويين يتعرفون على ما يجري من أحداث خارج القرية؛ فيعلم كل من عبد الستار، وصفوت بفضل الراديو، والصحف

عن حجم خسائر الجيش المصري في سيناء، ثم تراجع الجيش عبر قناة السويس؛ والذي يؤجج إحساس صفوت بالمرارة، ويزيده إخفاقة.

وفي هذه الرواية توظف القعيد تقنيات سردية جديدة، بل من هنا شهدت الكتابات الروائية الفنية لديه تطورا في السمات التقنية التي تميز بها. إنه أول مرة وظف تقنيات السرد الزمني الحكائي، إذ بدأ الفعل الأساسي في يوم الثلاثاء، بتأريخ 23/ من مايو عام 1967م، ثم تراجع القص إلى الوراء نحو ستة أشهر، بالتحديد إلى يوم الثلاثاء، بتأريخ 13/ سبتمبر عام 1966م، يعني تقنيات تيار الوعي؛ من خلال الاستقدام والاسترجاع. كما وظف القعيد تقنية "الخطف خلفًا" والتي أدت إلى تعقيدات سردية، بحيث تتشابك أحداث الراهن وذكريات الماضي، وتتداخل بعضها مع البعض الآخر. وفي تحقيق الجريمة خاض الروائي إلى غمار التجربة النفسية.

الملامح الريفية في رواية "أيام الجفاف": هذا العمل الروائي قد أطلق بعض الناقدين بأنه قصة طويل أو رواية قصيرة أو ما نقوله بالإنجليزية بـ (Novelette)، فهي أقل أهمية من الروايتين السابقتين من حيث الخطاب والتقنية، فهي أصلاً شبه سيرة ذاتية تدور أحداثها حول الروائي نفسه، واستخدم الروائي صيغة المتكلم المفرد.

وفي الرواية اختار الروائي ابن المدينة الذي تدفعه ظروف العمل إلى الحياة في الريف، حيث يعاني العزلة، حتى يدفعه الملل والشوق إلى الحياة أن يصطنع أعمالًا تؤدي به إلى الانهيار النفسي. وتجري الأحداث الروائية في قرية صغيرة من الريف المصري من محافظة البحيرة.

ونجد في الرواية البطل يتعب نفسه لأجل الحصول على وظيفة المعلم في مدرسة إحدى قريةٍ من قرى الدلتا. إنه يلتقي بالعديد من الوجهاء المحليين. ومن

خلال لقاءاته معهم يزيل الروائي الستار عن الطبقة العليا من القرويين، ويعثر على أفكارهم ونظرياتهم تجاه هموم الفلاحين والقرويين. وينتهي البطل في ختام الرواية إلى السأم، والوحدة، واليأس، بسبب ضعفه النفساني، لأنه شخص خجول مثل القرويين الآخرين على المعتاد. والقصة كلها تدور في قرية "دمنهور". وفي الرواية يتمتع الفلاح مكانة مرموقة، إذ يتغير موقعه من فلاح ساذج إلى قروي متعلم ومثقف، كما يتغير الأسلوب من العامية الريفية إلى الفصحى الحديثة.

والبطالة والحياة العاطلة من القضايا الريفية البارزة، والتي حاول القعيد إبرازها في هذه الرواية، حيث تطارد البطالة البطل حتى تمام الرواية، ويظل عاجزًا عن تحقيق أي شيء إيجابي في حياته. ونقطة مهمة فيها توحي إلينا إحدى القضايا الريفية هي أن المشاكل الريفية لم تكد أن تصل إلى السلطة والإدارة إلا بشق الأنفس، كما تدل عليه عمل البطل عندما يخط الرسائل إلى أسرته، ويشرع في كتابة المذكرات، غير أنها لا تبوء بالنتائج المرتقبة، ومن ثم تتدهور حالته الذهنية، فيضع خطة لكتابة رسائل نفسية ومن هنا يسافر إلى قرية دمنهور طالبا نقله، لكنه يجد نفسه معقود اللسان في اللحظة الحاسمة1، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أن مشاكل الأرياف لم تزل كما كانت، وأن مساعي الإصلاح ذهبت سدىً، وهي في أمس حاجة إلى مزيد العمل، والسعي لأجل رفع مستوى معيشة الأرياف.

الملامح الريفية في رواية "البيات الشتوي": هذه رواية أخرى للقعيد تحمل بين جنباتها الملامح الريفية. تم نشر الرواية عام 1974م. تدور أحداث الرواية في قرية مصرية،

---

1 . ستاركي، بول، من المقابر إلى ميدان التحرير دراسة في روايات يوسف القعيد (دراسة في أعمال القعيد)، ترجمة إلى العربية: ثائر ديب، منشورة على موقع منتديات ستار تايمز (أرشيف: أدباء وشعراء ومطبوعات)، بتأريخ: 2008/08/11م، بتوقيت: 01:52 صباحا، من خلال الرابط التالي:
(http://www.startimes.com/f.aspx?t=11358671).

إثر زيارة مجموعة من المهندسين المتعلمين لأجل استقصاء إمكانية استخراج النفط. مكث المهندسون في القرية لأيام، مقيمين في الخيام، وفي النهاية وصلوا إلى نتيجة أن استخراج النفط هناك لايبوء بالربح الاقتصادي، ولذا يغادرون إلى القاهرة ويتركون القرية وأهلها على أحوالهم. ومن خلال هذه القصة يفصّل الروائي منظوره بتعمق عن ذهنية المهندس المتعلم عصمت، وذهنية القرويين.

وأما فيما يتعلق بالملامح الريفية في الرواية فتتجلى في عدة مناحٍ؛ وأهمها، أن الروائي اتخذ القرية خلفيةً ومسرحًا للأحداث. والتمايز الطبقي والمحلي؛ في شكل الفجوة المدينة والقرية، والتمايز بين الأغنياء والفقراء. ومن الملامح الريفية الأخرى أن القرية المصرية بدأت ترتبط بالعالم الخارجي عبر مواصلات الاتصال وإذاعة الراديو، عندما يحصلون على الأنباء الدولية من إعفاء نكيتا خروتشوف من جميع مناصبه، وانهيار الحكم العسكري في السودان، وتجربة الصين بتفجير القنبلة الذرية الأولى.

الملامح الريفية في رواية "يحدث في مصر الآن": ظهرت رواية "يحدث في مصر الآن" عام 1977م. واتخذ القعيد زيارة الرئيس الأمريكي نيكسون لمصر سنة 1974م. هذه الرواية أيضًا تدور حول جريمة قتل ثم ما يتبعها من تحقيقات مثل رواياته الأخرى، غير أن المقتول هنا ليس شخصا وإنما هي وثيقة رسمية.

والملامح الريفية في الرواية تتبلور في عدة صور منها: إن مسرح الأحداث الروائي هو قرية من قرى الدلتا، أي بيئة الروائي المحلية الخاصة. ومن القضايا الريفية الصراع والتمايز الطبقي بين الفقراء المصريين المضطهدين، والأغنياء القادرين على استغلال الفرص، خاصة لدى توزيع المعونة الأمريكية وفق هواهم. ومن أبرز الملامح الروائية عند القعيد أنه دائمًا يقدم ضروب التعارض الاجتماعي؛ حيث يضع

الأغنياء مقابل الفقراء، والنافذين مقابل البعيدين عن كل نفوذ، والقرية مقابل المدينة، وهكذا... وبالتالي يمكننا الاطلاق على الرواية بأنها وثيقة من وثائق النقد الاجتماعي. والرواية تبحث عن القضايا الاجتماعية في الثمانينيات وبالتحديد قرب 1974م.

الملامح الريفية في رواية "الحرب في برّ مصر": كتبت هذه الرواية عام 1975م، غير أنها لم تصدر إلا في عام 1978م. هذه رواية أخرى للقعيد تبتدأ بمقتل أحد الفلاحين وما يتلوه من تحقيق. وإطار الرواية الزمني يشكل زمن حرب 1973م. وتقوم حبكة الرواية على الاستغلال الطبقي، حيث يقرر على ابن عمدة القرية أن يرسل ابنه إلى الجندية، وهو لايحب ذلك. فقام العمدة بعملية انتحال شخصية مكانه، حيث يُقنع خفيرًا أن يرسل ابنه إلى الجندية مكان ابن العمدة، ولكن ينفضح الأمر عندما يستشهد ابن الخفير في المعركة ويُعاد جثته إلى القرية! وبعد افتضاح المكيدة يبدأ التحقيق، ولكن قبل وصول المحقق والمفتش إلى نتيجة حاسمة، يُستدعى المحقق للمثول أمام موظف كبيرٍ في القاهرة، وهو يأمر المحقق لقفل القضية. طبعًا حاول الروائي أن يكشف عن السياسات المحلية غير النظيفة التي يمارسها القادرون على استغلال الفرص من أهل القرية، خاصة الأغنياء، وأصحاب السلطة من أهل العمدة، وحاشيته. تدور أحداث الرواية خارج البيئة الريفية غير أن الشخصية الرئيسية يتمثل في شاب قروي، وتجري التحقيقات فيها، ومعظم الشخصيات الروائية تنتمي إلى القرية. والقصة تقدم في أسلوب رمزي، لكن الرمز هنا واضح. يقول بول ستاركي عن هذه الرواية والملامح الريفية:

"ومفادها أنَّ الفلاح المصري المظلوم والرازح تحت رحمة فئات اجتماعية أخرى، لا يُتَاح له أيما إتاحة أن يقرر مصيره. ومما يعطي لهذا العنصر الرمزي وزناً

إضافياً أنَّ ما من شخصية من الشخصيات الأساسية في الرواية تُسمَّى باسمها، بل يُنْظَر إليها كتمثيلٍ لفئاتٍ أخرى من المجتمع المصري أكثر منها شخصياتٍ بحدّ ذاتها"1.

فالفلاح المصري لم يتحرر بعد من الاستبعاد والاستغلال، وهو مظلوم، والقادر النافذ يحكم على الناس كما يشاء، وينفذ أمره حتى ولو على حساب خسارة الآخرين سواء أكانت مادية أم معنوية.

ومن الناحية الفنية، تعتبر هذه الرواية من أنضج الروايات الفنية للقعيد. فقد حازت الرواية المرتبة الأولى ضمن أفضل مائة رواية عربية، وحصل الروائي على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2008م خاصة بفضل هذه الرواية.

الملامح الريفية في رواية "شكاوي المصري الفصيح":أخرج الروائي عمله بين أعوام 1981م و1985م، على غرار ثلاثية نجيب محفوظ. وقد جاءت الرواية في أقسام ثلاثة: نوم الأغنياء، والمزاد، وأرق الفقراء بالتوالي. وهي أضخم رواياته، وتحتوي على 1100 صفحة تقريبًا.

والفكرة الرئيسية تدور على رحلة تقوم بها عائلة فقيرة مصرية من إحدى ضواحي القاهرة "المقابر" حيث تعيش بها، إلى ميدان التحرير وسط القاهرة وهناك تحاول نفسها للبيع. غير أنها لم تستطع بيعها، بل تم اعتقال الأسرة، وواجهت التحقيق.

---

1 . ستاركي، بول، من المقابر إلى ميدان التحرير دراسة في روايات يوسف القعيد (دراسة في أعمال القعيد)، ترجمة إلى العربية: ثائر ديب، منشورة على موقع منتديات ستار تايمز (أرشيف: أدباء وشعراء ومطبوعات)، بتأريخ: 2008/08/11م، بتوقيت: 01:52 صباحا، من خلال الرابط التالي:
(http://www.startimes.com/f.aspx?t=11358671).

وأصلًا ترجع خلفية الرواية إلى يوم الجمعة بتأريخ 19 نوفمبر عام 1976م، أي في فترة زيارة الرئيس المصري أنور السادات للقدرس في محاولة للبدء بعملية السلام في الشرق الأوسط، وقرب انتفاضة الجوع عام 1977م، وبه تعالج الرواية فترة مضطربة حديثة من التاريخ المصري.

هذه أول رواية للقعيد خرج عن بيئته الريفية، واتجه إلى المدينة، غير أنه اتخذ عائلة فقيرة لا تتحسن أوضاعها من عائلات القري والأرياف؛ فهي عائلة طُردَت من شقتها، لتسير في طريق جديد، إذ تأوي إلى مقابر، لكنها لا تلبث إلا وتُطرَد منها لمرة أخرى بعد اكتشاف أفرادها وهم يحفرون نفقًا بحثًا عن كنز دفينٍ. ليست حالاتهم المادية وأوضاعهم الاقتصادية هي مشتركة بينهم وبين الريفيين، بل أنهم يتشاركون أيضًا في مستوى المعيشة والحياة الاجتماعية، وعاداتهم، وطقوسهم. إذ يُلقب رأس العائلة "عباس" مع فقرها وبؤسها وشقاءها وتعاستها بـ "المليونير"، وزوجته بـ"الست الكبيرة"، وكذا يلقب الآخرون من أفراد العائلة بما فيه سخرية منهم، كما يحدث هذا في القرى والأرياف، حيث تكون هذه الألقاب ذات السخرية اللاذعة شائعة، وفي هذا دلالة كبرى على النقد الاجتماعي المرير للمجتمع المصري الحديث.

ومن الناحية الفنية تعتبر هذه الرواية نموذجًا من نماذج الكمال الفني، واحتواءها على روح الابتكار والتجريب، اللهم إلا أن المقاطع المُمِلة من التأمل الأدبي والاستغراقات الطويلة في قضايا المجتمع المصري قد يدفع القارئ بعض الأحيان إلى الاشمئزاز والتنفر من قراءة الرواية ومواصلتها إلى النهاية.

الفصل الثاني

ملامح القضايا الريفية المصرية لدى الروائيين المصريين الآخرين: نماذج مختارة

هنا نريد أن نقف لدى بعض الروائيين المصريين الآخرين عدا روايات يوسف القعيد، لندرس رواياتهم التي تعالج الريف، وقضايا الفلاح، ومشكلاتهم، والجو الريفي. ومن المهم جدًا أن عدد الروايات العربية المصرية التي عالجت الريف كثير جدًا، كما سبقت الإشارة إليها من فينة وأخرى على طول هذه الدراسة، ومن ثم نسلك الطريقة الانتقائية في اختيار النماذج الروائية الريفية المصرية، على النحو التالي، لكشف الملامح المعنية بالقضايا الريفية في الروايات المصرية، ولكي يصل البحث إلى غايتها في هذا الفصل بتحديد السمات الريفية في الروايات المصرية بشكل عام من خلال النماذج المختارة.

ملامح القضايا الريفية في روايات محمد حسين هيكل، "زينب" نموذجا: يعتبر محمد حسين هيكل واحدا من أعلام الثقافة المصرية كما يعد من مؤسسي رواد الرواية العربية المصرية بفضل إسهاماته في تأسيسها وإغنائها بتقديم التجارب الروائية الرائعة، كان له باع طويل وإلمام كامل باللغة العربية ومعرفة واسعة بالأدب العربي، كما أنه يعرف بجرأته النادرة وموقفه الحاسمة وتدخلاته القيمة وأفكاره الحساسية في الأوساط العلمية والأدبية والثقافية والسياسية. إنه لعب دورا مهمًا في نشأة الرواية العربية وتطورها في مصر وبفضل جهوده المكثفة حققت الرواية العربية ذروة الكمال.

واعتنى محمد حسين هيكل في رواياته عناية كبيرة بالأسلوب واستخدم له جميع الوسائل الفنية الممكنة، فأسلوبه يمتاز بالبساطة والسهولة والصراحة والوضوح وسلامة التعبير ويعتمد محمد حسين هيكل على مختلف التقنيات السردية والأساليب المتنوعة ولا يميل إلى الرمزية إلا نادرا، ويضاف إلى هذا كله قدرة المؤلف الفائقة التي تتجلى في دقة التصوير وبراعة التعبير وروعة التحليل في رواياته بدقة متناهية.

وأما روايته "زينب" ظهرت كأول رواية فنية عام 1913م، فوجدها النقاد جديرة بالاعتناء والتقدير وتناولوها بالنقد والتقييم. ثم سايرت الرواية العربية على طريق الارتقاء الفني وبلغت ذروة نضجها وازدهارها من الناحية الفنية والخطابية.1 بدأ محمّد حسين هيكل بكتابة رواية "زينب" سنة 1910م في باريس، بفرنسا، حيث كان يدرس الاقتصاد السياسي، وأكملها سنة 1911م، ونشرها سنة 1913م، تعتبر رواية "زينب" بإجماع النقاد أول رواية فنية في تاريخ الأدب العربي، كما يقول الأستاذ حمدي السكوت: "إن التاريخ الحقيقي للرواية العربية بالمعنى الدقيق للكلمة إنما يبدأ بعام 1913م حين ظهرت رواية "زينب" محمد حسين هيكل"2. وتصور رواية "زينب" واقع الريف المصري في تقاليده القاسية وطبيعته السمحة، كما هي تحكي قصة شاب مثقف من أبناء الطبقة المتوسطة اسمه "حامد"، يحب ابنة عم له اسمها "عزيزة"، وتحول التقاليد القاسية في الريف دون التحقيق عن هذا الحب، ثم اختار أهلها زوجاً آخر لها، ويحرم منها حامد نهائياً، ثم يجد حامد بعض العزاء عند فتاة ريفية من الطبقة الكادحة اسمها زينب ولكن هي ثانية تفضل عليه "إبراهيم" رئيس العمال الذي تعمل تحت إشرافه... ويتم حرمان من زينب، ومن خلال الرواية نرى أنّ زواج زينب

1. وادي، طه، هيكل: رائد الرواية، السيرة والتراث، ص 91،92، الطبعة الثانية، دار النشر للجامعات، القاهرة، 1996م.
2. السكوت، حمدي، الرواية العربية (ببلوجرافيا ومدخل نقدي 1865م- 1995م) المجلد الأول (مقدمات ومدخل نقدي)، قسم النشر بالجامعة الأمريكية، الولايات المتحدة الأمريكية، 2000م، ص: 8.

تزوج مع رجل آخر"1. وفي الحقيقة تسعى هذه الرواية إلى أن تبين للقارىء حالة القرية التي لا تعترف بمشروعية الحب بين الرجل والمرأة وأنّ التقاليد القاسية ترسم خطوط العيش، ولا بّد للناس أن يستسلم أمام هذه التقاليد القاسية ومصيرهم القدري. وتجدر بالإشارة إلى هنا أن محمّد حسين هيكل تأثر في روايته "زينب" إلى حدّ كبير بالأدب الفرنسي حال كونه يشكو لبعده عن الوطن وحنينه له ولقريته، ولكن قد استطاع أن يقدّم رواية فنيّة واقعيّة يبين زاوية من الحياة الريفيّة.

لايختلف الإثنان في أن رواية "زينب" تتميز باستطراد السرد وقلة الحفاوة بالحوار وإقامة القصة على عمود الحب والدوران حوله في المجتمع المصري في طبقتي الفلاحين والإقطاعيين، وتُعتبر رواية "زينب" أول رواية اجتماعية تشرح حياة الريف المصري وعاداته ومعيشته.

ومن الأسباب المهمة التي تتميز بها رواية "زينب" من الروايات الأخرى هي الواقعية التي لم تكن تتوافر عادة في الروايات السابقة، فاكتسبت الرواية بذلك أصالة بتقديم صورة واقعية للعادات والقيم والتقاليد وجوانب الحياة الريفية المصرية، كما يكتب الأستاذ يحيى حقي: "إن مكانة قصة "زينب" لا ترجع فحسب إلى أنها أول القصص في أدبنا الحديث، بل إنها لا تزال إلى اليوم أفضل القصص في وصف الريف وصفاً مستوعباً شاملاً.2

وفي نهاية المطاف يمكن لنا القول إن رواية "زينب" امتازت عدة روايات منها بالطابع الريفي، حاملا بين دفتيها المذاق الريفي المصري، وأثارت مشكلات الفلاحين، وكشفت عن الصراع الجاري في ذاك المكان النائي عن المدينة والحضارة

1. هيكل، محمد حسين رواية "زينب"، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1992م.
2. حقي، يحيى، فجر القصة المصرية، نهضة مصر للنشر، مصر، 2008م، ص48.

المدنية، بكل تقاليدها وطقوسها وقضاياها المختصة بها، وبه سجلت الرواية المصرية حضورها الملموس في قائمة الروايات المعالجة لقضايا القرى والأرياف.

ملامح القضايا الريفية في روايات طه حسين، "الأيام" نموذجا: يعتبر الأستاذ طه حسين واحدا من أعلام الثقافة المصرية المعاصرة وذلك نظرا إلى جهوده الجادة في الأدب العربي وبفضل ما ساهم في تأسيسها وإغنائها بتقديم رواياته القيمة التي شكلت علامات متميزة في تاريخ الرواية العربية في مصر، وحظي طه حسين بشهرة واسعة ليس على الصعيدين المصري والعربي فحسب، بل على الصعيد العالمي أيضا فهو يعد من الرواد الروائيين الذين كتبوا أعمالهم باللغة العربية الفصحى ونشر طه حسين الجزء الأول من أيامه عام 1929م، والجزء الثاني 1939م، وأديب عام 1935م، ويلتقي العملان في أنهما يقتربان كثيراً من روايات الترجمة الذاتية، وفي أنهما كذلك حاولا رصد حركة الوعي الثقافي التي بدأت في أوائل هذا القرن من خلال تمرد العقليّة الأزهريّة على جمودها المستسلم، وقد حاول العملان تقديم صورة تسجيليّة للمجتمع المصري خاصة في الريف آنذاك في نشاطاته العامة والخاصة1 .

قام طه حسين بإخراج كتابه "الأيام" وهو يحس بأنّه يعيش حياة بائسة، يسيطر عليها طابع بارز، هو طابع الحرمان، وكان العامل المباشر الذي جعل من الحرمان اللون البارز الذي يلّون حياته يتمثل في جهل بيئته وفقرها، هذه البيئة التي تعيش حياة غيبية لا تعترف بالعلم الحديث، ولا تستطيع أن تمنح الطفل الحنان الذي

1. المصدر نفسه: ص 41.

يرطب حياته، ولا الطبيب الذي يعالجه ولا التربية الصالحة التي تشفي جراح نفسه، والتقى في باريس بالسيدة التي منحته بعض العزاء وعوضته عن الحرمان"1.

كتاب "الأيام" لا يمثل المحاولة الوحيدة التي ساهم بها الدكتور طه حسين في ميدان الرواية في فترة ما بين الحربين، فقد قدّم لنا المؤلف في نفس الفترة المحاولة الثانية في كتابه "أديب" ليكون حلقة الاتصال التي تربط بين الأيام في جزأيها الأول والثاني، وبين الأيام في جزئها الثالث2.

ملامح القضايا الريفية في روايات عبدالرحمن الشرقاوي، "الأرض" و"الفلاح" أنموذجا: إن الشرقاوي نشأ في بيئة فلاحية وانحاز للفلاحين وقد حاول أن يقوم بحل القضايا الفلاحية والمشكلات التي عانتها الطبقة الكادحة والفقيرة من خلال كتاباته. إنه كتب أول رواياته باسم "الفلاح" كاشتراكي معتدل ومتخلي عن التطرف الماركسي؛ ففيها يبدو رجل الدين محترمًا متعاطفًا مع الفلاحين ومعاناتهم لهم، الذي كان من قبل قاسي القلب، ويقف هو مع معسكر العمدة وأتباعه. كما فنّد إمام القرية في "الأرض". يقول الدكتور حمدي السكوت بهذا الخصوص:

"ويكشف الشرقاوي في هذه الرواية عن أنه قد تراجع عن مذهبه الشيوعي أو الاشتراكي المتطرف؛ فعلى حين كانت الأرض بالنسبة للفلاح في رواية "الأرض" تساوي العرض والكرامة، فإن "الفلاح" الرواية الأخيرة يصرّح بأنه كان أفضل حالًا بدون الأرض التي منحتها له الدولة وبحريته التي سلبتها الثورة ، فضلًا عن أن

1. هيكل، أحمد، تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، مصر، 1983م: ص 305.
2. المصدر نفسه: ص317.

الرواية تكشف عن مدى فساد الاتخاذ الاشتراكي أو الحزب السياسي الواحد الذي تبنته الدولة".1

في حين تحول من اعتداله في روايته الثانية "الأرض" (1954م) إلى المنحاز المتعصب للأرض والفلاح. ورواية "الأرض" تعتبر عملًا مهمًا للغاية وأنضج فيما يخص بالريف المصري. وهي أول رواية مصرية تُعني بصراع الفلاحين ضد المستغلين؛ من الإقطاعيين، والهجانة، ورجال السلطة. تعالج الرواية مرحلة الثلاثينات من تاريخ مصر الحديث، وهي مرحلة الانتداب البريطاني، يرأسها "إسماعيل صدقي" ويعمل لمصالح الاحتلال البريطاني، فيحكم بالحديد والنار ويلغي الدستور رغبة منه وفي كسب ودّ سلطات الانتداب... والشعب المصري المشهور بطبيعته الثورية يقوم بالمعارضة بشدة، مع أنه يلاقي أسوأ أنواع التنكيل، والثورة تكتظ بصرامها في القرية، والتي كانت أكثر تعرضًا لجحيم حكومة صدقي، فالأحداث تدور في القرية الغارقة في العوز والاجتهاد، يسودها جشع الإقطاع من جهة، وقرارات الحكـــتومة الجائرة من جهة ثانية. "فالقطن تباع بالتراب، والفلاحون يسقطون في أيدي المرابين، والذين يملكون أرضاً تحجز عليها الحكومة، معظم سكانها تقذف بهم الحاجة إلى "المدينة باحثين عن عمل ليعودوا من بعد صفراً مهزولين"، وآخرون "يشتغلون أنفارًا لحساب مالك الأرض، الذي يملك أحياناً أراضي عدة قرى."

وقسم الروائي القرية إلى معسكرين متصارعين؛ معسكر العمدة وأتباعه، ويؤيدهم الباشا. والمعسكر المعادي لهم وهم الفلاحون؛ الأول شرٌّ كله، والآخر خيرٌ كله. هكذا يفرض الشر والخير على طبقة وأخرى. ونرى الفكر الماركسي يسود في

1. السكوت، حمدي، الرواية العربية (ببلوجرافيا ومدخل نقدي 1865م- 1995م) المجلد الأول (مقدمات ومدخل نقدي)، قسم النشر والطباعة بالجامعة الأمريكية، 2000م، ص: 80.

الرواية ويؤثر على الروائي تأثيرًا بالغًا حيث يمجد ارتباط الفلاح بالأرض، وتبرز الأرض أو ملكيتها كقيمة ثابتة، حتى يقول الفلاحون ويترددون دائمًا "أن من لا يملك أرضًا لا يملك فيها شيئًا على الإطلاق حتى الشرف". وأما شخوصه الروائية؛ فتتوزع بين ثلاثة نماذج؛ الأول يقاوم الحكومة، وهم الناشطون لأجل الثورة، وثان يعمل لصالحها؛ وهم الإقطاعيون ومؤيدو الحكومة من الرأسماليين، ثالث يبدو بمنعزل عن الأحداث.. وهم الآخرون الذي لا يمدون أيديهم إلى النضال الشيوعي، مع أنهم يعملون على شاكلتهم لأجل طرد الاحتلال؛ فمن سنة الشيوعية والتي لا تجد لسنتها تبديلًا، أنهم يحقدون دائمًا الذين لا يصطبغون بصبغتهم.

لقد أثارت روايات الشرقاوي، وبخاصة "الأرض" ضجيجا لصراحة تعبيرها عن المجتمع الجديد المتنامي، وإدانتها لمصادر الإحباط، والفساد في الماضي، والحاضر.1 وعنوان رواية "الأرض" يحدد بؤرة الصراع بين الباشا الإقطاعي والذي تؤازره أجهزة الدولة، والفلاحين، والموضوع يدور حول حكم يستلزم من نزع ملكية بعض الأراضي الزراعية المملوكة لفلاحين فقراء. بل تحتل الأرض في روايات الشرقاوي الأخرى مثل "الفلاح" و"قلوب خالية" موقعا رئيسيا. والرواية الأخيرة "قلوب خالية" جاءت في الواقعية النقدية التفاؤلية، فعند محاولة نفي "غانم" إلى الطور فانه يقف أهل القرية بشكل جماعي ضد الحكام المحلين، ويعملون على إنقاذه من مخالبهم2.

ملامح القضايا الريفية في روايات خيري الشلبي، "الأوباش" نموذجا: هذه الرواية التي ظهرت عام 1978م تبحث عن عمال التراحيل. وتجرى أحداثها في قرية في شمالي

1 . عبدالله، محمد حسن، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م، ص: 94-96
2 . المرجع السابق، ص 96.

الدلتا، وزمن السرد يتكون من عام 1950م. وعمال التراحيل هم "الغرابوة" الذين نزلوا إلى القرية بغية العمل، غير أنهم استحقوا ازدراء أهل القرية وضربات عصيهم. وفي الرواية الغرابوة مهانون، محقرون، ويفرحون بالمبيت في إسطبل الوسية، وهو مكان قذر لكنه خير من النوم على قارعة الطريق وفوق الأشجار. ويجري التشابك والشجار بين الغرابوة، وأهل القرية.

وفي الرواية تتجلى مشكلات الريف، فالغرابوة وأهل القرية كلهم ضحايا الفساد الإداري، والحرمان عن كرامة العيش. أهل القرية والغرابوة كلهم يبيتون في الاسطبل، ثم يقع عراك بينهم، وينهزم الغرابوة لأنهم الغرباء، وليس من حق هؤلاء الغرباء أن يرفعوا صوتًا أو عصًا، وينتج هذا الشجار أن يدفعهم أهل القرية إلى مكان آخر قرب منافذ الإسطبل. ثم يحاول الروائي التقريب بينهم1.

ملامح القضايا الريفية في روايات يوسف إدريس، "الحرام" نموذجا: اهتم يوسف إدريس في رواياته بحياة الفقراء في المدينة والريف؛ ففي روايته "الحرام" (1959م) رسم يوسف إدريس صورة نابضة بالحياة لقرية مصرية تتعرض لهزات الشكوك والأحقاد التي تتلاشى مع تطبيق قانون الإصلاح الزراعي؛ فيشهد الفلاحون تغيّرًا في حياتهم اليومية. وفي رواية "العيب" (1962م) يناقش الخطيئة كثمرة لمجتمع المدينة، والأسر الفقيرة على وجه خاص2.

يقول الدكتور أحمد هيكل بأنه "اشتراكي يعالج هموم الطبقات الكادحة".3 ينتقد على الاضطهادات الاجتماعية مهما كان مصدرها؛ الاحتلال، أو الإقطاعية،

---

1 . المرجع السابق، ص 89.

2 . روبرت، أعلام الأدب العربي المعاصر، سير وسير ذاتية، ترجمة إلى العربية: شريح، محمود، الرواية العربية المعاصرة 1945م– 1985م، المبحث الألماني للأبحاث الشرقية، الألمان، ص 84.

3 . القط، عبدالحميد، يوسف إدريس والفن القصصي، دار المعارف، مصر، 1980م، ص 131.

أو الرأسمالية، أو النظام الطبقي، ويستهدف القضاء على كل أسباب الفقر والتعاسة، ويمجد العاملين، ويسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية، ويرى أن الجماعة ككل هي التي تقوم بالكفاح الحقيقي لأجل هذه العدالة.

وأما روايته "الحرام" (1959م)، يعالج هموم الفلاحين والقرويين إذ اختار الروائي موضوعه من مرحلة تاريخية سوداء من تاريخ مصر، وهو زمن الإقطاعية والنظام الروتيني في مصر.

وقصة الرواية حدثت مع "عزيزة" امرأة ترحيلية تعمل في حقل أحد ملاك الأرض لتحصل على زر بطاطا، يشتهيه زوجها المريض، إذ تفاجأ بإبن صاحب الأرض يريد اغتصابها، ولكنها قاومته في المرة الأولى لكنها فشلت في النهاية فاستسلمت لضعفها وعدم التمكن من الهرب أو لسبب آخر مع هذا السبب، هو لرغبتها في الجنس، لأن زوجها كان مريضًا، لم يمارس الجنس معها منذ أيام1 وحملت منه، وجنت، لكنها ألقت جنينها في حقل... ومن سوء حظها يعثر خفير التفتيش، ويجزم أهل التفتيش بأن الخاطئة يجب أن تكون من العاملات الترحيلية، ولكن من خلال المناقشة ساورت الشكوك في نساء أهل التفيش أيضًا، حتى جعل مسيحة أفندي يشك في ابنته وزوجته، إلى أن تبين الواقع، عندما سقطت "عزيزة" في الحقل أثناء العمل، وهي مصابة بحمى النفاس، فانكشفت أنها هي أم اللقيط، والتي اعترفت بحادثة الشرف هذا، وماتت بحمى النفس. وعندما انكشفت الحقيقة، تيقن مسيحة أفندي أن ابنته ليست هي أم اللقيط، كافأها بالسماح لها بزيارة زوجة المؤذن، وابنته كانت تذهب للقاء فتى التفتيش لإرواء غلائلها الجنسية. وفي نهاية القصة نجد

1 . السكوت، حمدي، الرواية العربية (ببلوجرافيا ومدخل نقدي 1865م- 1995م) المجلد الأول (مقدمات ومدخل نقدي)، قسم النشر والطباعة بالجامعة الأمريكية، 2000م، ص: 84.

أن الفتاة هربت معه. هذه هي خلاصة الرواية ومن أهم دلالاتها من القضايا الريفية أن الرواية تبحث عن:

- الصراع الطبقي؛ طبقة "أهل التفتيش"، وطبقة "العمال الترحيلية" ويستمر الصراع بين الحلال والحرام، وبين الغني والفقير، كما يدور الصراع بين الغرابوة وأهل العزبة.
- وامتهان الطبقة الكادحة واستغلالها. والفقر والبؤس هو رأس الفساد الاجتماعي.
- والتناقض الاجتماعي والفوارق الطبقية، فلم يكن فرد الترحيلية يلقي أدنى رعاية طبية، فلو وجد زوج عزيزة علاجًا أوليًا لما أقعده المرض، فلم تعرضت عزيزة بهذه الماسأة.
- الفساد العارم في الطبقة البورجوازية، والحاكمة؛ أنه يدير إبرة الشك نحو نساء العزبة ليثبت فكرته الاشتراكية ضد الطبقة المستغِلة.
- والنقد على ميزان الحلال والحرام؛ والروائي يحطم الميزان القديم؛ والذي يعني أن الجريمة إذا ارتكبها شخص من الطبقات الكبيرة البورجوازية فهي ليست بجريمة، بل الجريمة هي ما تقترفه الطبقات المطحونة فحسب، وإن كانت الطبقة المضطهدة مضطرة عليها... فالحرام في رأيه هو "القانون الأخلاقي البورجوازي السائد في المجتمع" وإلقاء الجنين لقيطًا ميتًا، أو استسلام المرأة نفسها بعد المقاومة الأولى ليس هو الحرام. كما يقول الدكتور حمدي السكوت:

"أين الحرام إذن في رواية يوسف إدريس؟ أهو الظلم الاجتماعي والظروف القاسية التي تدفع بإمرأة مثل عزيزة إلى الخطيئة؟ أم هو القانون الأخلاقي السائد في

المجتمع والذي يسمح لأهل التفتيش رجالًا ونساءً أن يمارسوا الرزيلة في الخفاء، ثم يمصمصون شفاهم عجبًا من زلة امرأة مثل عزيزة ؟ أم هو حقًا زلة عزيزة؟!".[1]

طبعًا زلة عزيزة ليست هو "الحرام" بل الحرام الذي قلناه. هذه الرواية أدانة للنظام الاجتماعي حيث لا حقوق أو ضمانات تؤدي للفلاح الأجير، بينما هو عماد هذا المجتمع.

ملامح القضايا الريفية في روايات توفيق الحكيم، "يوميات نائب في الأرياف" نموذجًا: تعتبر رواية "يوميات نائب في الأرياف" أشهر محاولات الروائي توفيق الحكيم في الكتابة عن الريف. هذه الرواية تبحث عن بؤس الريف، وتخلفه وجهله. وقد عالج توفيق الحكيم قضايا الريف على محورين أساسيين:

المحور الأول: والذي يفيد بأن الريف المصري محكوم بقوانين لم تنبع من حاجاته، ولم تحترم أعرافه، ولم تضع في اعتبارها مستواه المادي والاجتماعي بوجه عام. هذه القضية تتمثل سلوك المؤظفين في قاعات المحاكم، وهناك يصور الروائيُ أبناءَ الريف بأن بعضهم خاضعون لهذه القوانين رغم أنفهم، غير مقتنعين بحكمتها أو صوابها، وبعضهم لا يخضعون لها، ويلجأون إلى قانون الريف الخاص المتثمل في تقاليده المسيطرة[2].

المحور الثاني: يتمثل في موقف السلطة تجاه الريف أو القرية والفلاحين، وينوب عن هذه القضايا موظفو الدولة من رجال الأمن، والإدارة، والقضاء؛ حيث يرى الروائي أنهم عابثون فاسدون غارقون في البحث عن منافعهم الشخصية، لا جرم أنهم

---

1 . المصدر السابق، ص 84.

2 . عبدالله، حمد حسن، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، نوفمبر عام 1989م، ص: 56.

حريصون على تطبيق القانون حين يكون "أداة أخذ ونهب" من الريف، ثم لا يعبأون به ولا بالفلاحين حين يكون طريقا لنيل حق بين القاضي السريع، والقاضي البطيء1. وفي ثنايا تطور القصة الروائية تتجلى صور الفقر، والتخلف، وتعسف الأحكام المنمقة بالمنطق، والمذكرات التفسيرية، والفلسفة، دون أن يبحث أمرها على مستوى الممكن، والبديل، والطبائع السائدة2.

وقد أجاد توفيق الحكيم في تصوير الريف المصري على لسان نائب الأرياف، وتسجيلاته في يومياته.

ملامح القضايا الريفية في روايات نجيب محفوظ، "القاهرة الجديدة" نموذجا: هي أول رواية تدور أحداثها في فلك واقعي اجتماعي، كتبها نجيب محفوظ في الفترة مابين 1938م–1939م ولكن لم تنشر إلا في سنة 1945م. محجوب عبد الدايم يمثل شخصية رئيسية لهذه الرواية، وهو شاب من أسرة ريفية فقيرة تمت ثقافته في الجامعة وحصل على شهادة الليسانس في الآداب. وأبواه الطيبان الجاهلان قاما بكل وسعهما لتربيته وتنشيئته وتعليمه، إلا أن من أجل جهلهما لم يحسنا تربيته فشبّ الطفل وبلغ 24سنة من عمره، مع فساد وانتهازية، سريع الانفعال والغضب، يغلب على عواطفه الحقد والبغض، وهو فوق كل ذلك أناني، شهواني وطموح إلى حد الجشع ... ومهما يكن من أمر من فساده الشخصي، هو مثقف، حامل شهادة الليسانس في الآداب، لكنه لا يجد وظيفة يرتزق منها رغم جهوده المتتالية، فيقترح صديق له إذا تزوج من سُوِيَة لأحد الوزراء والذي إسمه قاسم بك فهمي، أمكنه أن يصبح سكريترًا له، فيقبل الاقتراح ويعقد قرانه مع "إحسان شحاته" خليلة الوزير،

1 . المصدر السابق، ص 56.
2 . الحكيم، توفيق، يوميات نائب في الأرياف، دار الشروق، مصر، 2005م، ص 136- 137.

لتمارس هي علاقتها غير الشرعية مع خليلها الوزير بعد الحصول على ستار، يستر علاقتهما الفاحشة، وبعد هذا الزواج الشكلي يجد الوظيفة ويصبح سكريترًا في مكتب الوزير، يأتي الوزير ويضاجع مع زوجته، وهو يعرف كل ما يجري فيما بينهما....1

وتعكس هذه الرواية صورة نظام اجتماعي متدهور من أجل الفقر والرشوة، والأثرة، والفساد الخلقي، والبطالة، وتنافس طبقي مرير، لا يستطيع الإنسان مهما كانت ثقافته أن يجد الوظيفة بدون أن يدفع أثمن ما في يده... وهو كرامته وشرفه. والقاهرة الجديدة هي الصورة الأصلية للوضع القائم آنذاك، ويعم هذا الفساد في المدينة المصرية والريف المصري كليهما، ببعض الفوارق، العبثية والسعي وراء المادة على أي حساب من ديدن القروي المصري، في حين الانتهازية والاستغلال من ديدن المدني.

وفي رواية "ميرامار" اختار نجيب محفوظ شخصية ريفية "زهرة"، وهي الرواية الوحيدة التي تضمنت شخصية نسائية ريفية، والتي فرت هاربة إلى المدينة من أبيها الذي يريد تزويجها لعجوز. وهذه الفتاة الريفية تمثل شعلة الأمل الوحيدة في رواية تفض بالإحباط، والانحراف الخلقي، والسياسي، والاجتماعي2.

ملامح القضايا الريفية في روايات محمد عبدالحليم عبدالله: كاتب مصري، كان غزير الانتاج، بدأ يكتب القصص منذ عام 1952م. وفي قصصه ورواياته يتحدث عن "التمايز الطبقي" ويذكر مأساة الفلاحين والفقراء؛ فيذكر الفقر وتعاسة الفلاحين والظلم الاجتماعي على الطبقة الكادحة ولكنه لا يمس الحاجة إلى القضاء على

1 . عطاء الله، التفسير الاشتراكي للأدب العربي القصصي المصري: دراسة تحليلية، مركز الثقافة الدينية والفنية، مهراج غنج، يوبي، الهند، 2016م، ص 204-205.
2 . عبدالله، محمد حسن، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، 1989م، ص 89.

الفقر؛ فالفقير في قصصه ورواياته قانع كل القناعة، راضٍ تمام الرضا، والقناعة كنز لا يفني؛ فلا يثور الفلاح الفقير عنده، اللهم إلا أنه استطاع أن يبرز في رواياته شخصيات الطبقة الفقيرة على أنها ضحايا بريئة لمجتمع ظالم. خاصة في رواياته الأولى "لقيطة" التي صدرت عام 1947م. ومهما يكن من أمر نجح الكاتب في التصوير الاجتماعي للطبقة الكادحة، الذي أدّى إلى الشعور بالتآسي والتعاطف مع الفقراء والتفكير في أوضاعهم الأليمة1.

1 . عطاء الله، التفسير الاشتراكي للأدب العربي القصصي المصري: دراسة تحليلية، مركز الثقافة الدينية والفنية، مهراج غنج، يوبي، الهند، 2016م، ص: 221.

الفصل الثالث

أوجه التشابه والاختلاف بين يوسف القعيد والروائيين الآخرين في معالجة القضايا الريفية المصرية

المقارنة بين النصوص الأدبية تدرس المقاربة اللغوية والموضوعية في حدود اللغة الواحدة، والأدب القومي الواحد، وتقوم على دراسة جوهر الأدب وعناصره وأسرار الجمال فيه وبه تتجلى أسباب الجمال وعناصر القوة والضعف في العمل الأدبي، والمقاربات الفكرية والفنية لدى الأدباء1. وتكون هذه المقاربات على أسس اللغة (الفونولوجية والصوتية/ التركيب/ البيان/ الأسلوب)، والخطاب الدلالي (الموضوع/ والفكرة). ومن خلال هذه الآليات يمكن للباحث أن يدرس النصوص الروائية المعنية بالريف المصري، مركزًا على روايات يوسف القعيد والروائيين المصريين الآخرين الذين اتخذوا القضايا الريفية والجو الريفي موضوعا وأداة للرؤى والتعبير.

وقد سبق البيان أن الملامح الريفية في روايات يوسف القعيد وبعض الروائيين المصريين الآخرين تتجلى فى عدة صور وأشكال. ومن خلال تلك الملامح وأسلوب المعالجة تتجلى أوجه التشابه والاختلاف بينهم غير أنه لايُدرَك إلا بإمعان النظر،

1 . زلط، أحمد، الأدب المقارن: نشأته وقضاياه واتجاهاته، الحكاية الخرافية أنموذجا، هبة النيل العربية، الجيزة، مصر، 2005، 48.

وقراءة البيانات بالدقة والجدية، ولكي نكون أكثر صراحة ووضوحا، هنا نقدم بعض الملاحظات على أوجه التشابه والاختلاف بين يوسف القعيد والروائيين الآخرين من هذا المنظور.

شهد الروائيان توفيق الحكيم ويوسف القعيد كلاهما كل ما يجري على المسرح الوطني المصري في القرن العشرين، وتميزا في الإبداع الأدبي القصصي الرواية والقصة القصيرة، مع بعض الفوارق في الكمية، والإنتاج، والأسلوب، والتنوع في الموضوعات. وتكون المقارنة بين عمل يوسف القعيد الروائي الأول "الحداد" (1969م)، وعمل توفيق الحكيم الروائي "يوميات نائب بالأرياف" (1937م) مهمًا جدا، عالج الروائيان في رواياتهما قضية الثأر والصراع، والعلاقات القروية من خلال تدوين اليوميات، والأحداث التي تجري القرية، وفي الروايتين نجد محاولات لحلّ لغز جريمة القتل عن طريق التحقيق الرسمي، والجريمة معقدة للغاية في الروايتين. وفي رواية القعيد "الحداد" يوجد تشابه قوي في تدوين الملاحظات على غرار اليوميات في شكل صورة يوميات يسجلها النائب، غير أن الأحداث في صورة مماثلة لها لدى القعيد تم تسجليها على أيدي القرويين والفلاحين، وتتطور الأحداث على لسانهم مع تطور الرواية، ومن هذا المنظور يوجد بينهما تشابه، وأوجه التباين تتجلى في منظور الروايتين؛ إذ يقدم توفيق الحكيم في روايته منظوره عن الريف المصري منظور المثقف المتعلم، في حين يرجع منظور القعيد في روايته "الحداد" منظور غير المثقف، والساذج، بسبب اعتماده على تسجيلات الفلاحين بأنفسهم. وفي "يوميات نائب الأرياف" يتم رصد الأحداث الموصوفة بعين النائب المثقف الواعي في حين

يرصد الروائي القعيد في روايته "الحداد" الأحداث الموصوفة بعين فلاح مصري. ونظرًا إلى هذه الأوجه للتشابه والتباين يقول الناقد بول ستاركي:

"والحقّ أنَّ روايته "الحداد" تذكّرنا في بعض أجزائها بعمل الحكيم "يوميات نائب في الأرياف" إلى درجةٍ تغري المرء بأن يحسب أن القعيد قد صاغ عملَه على غرار عمل الحكيم، جزئياً على الأقلّ. بيد أن ضروب التشابه هذه تخفي ضروباً عميقة من الاختلاف هي بمثابة نُذُرٍ وبشائر لتيماتٍ وانشغالاتٍ ستتضح في كثير من أعمال القعيد اللاحقة"1. فالتشابه فيما بين الروايتين تكاد تكون جزئيًا، وهي عميقة في نفس الوقت. وبالإضافة إلى ذلك في هذه الرواية والروايات الأخرى للقعيد يسود الإحباط والعجز كملمح بارز وصفة مميزة غير أن توفيق الحكيم في روايته الأخرى "عودة الروح" (1933م) يعبر عن البعث المصري ويرى أن ثورة 1919م علامة على نهاية فترة ما بعد العصر العثماني ومن هنا تبدو له إمكانية تصحيح مسار تاريخ مصر وترجيع اتصالها ببطولاتها العريقة وأمجادها القديمة... ومن هنا يبدو الروائي توفيق الحكيم متفاعلًا والقعيد متشائمًا ليس في هذه الرواية بل في رواياته الأخرى. فقد حاول الحكيم خلق صورة جميلة جديدة لمصر بما فيها مدنها وأريافها لتقوم حضارتها الجديدة على مقومات مصرية بحتة. وفي روايته الأخرى "أخبار عزبة المنيسي" ركز القعيد على جريمة القتل والتحقيق بعد ذلك، مثل روايته الأولى "الحداد"، وهذه الثيمة أيضًا تتشابه مع توفيق الحكيم في روايته "يوميات نائب الأرياف".

---

1 . ستاركي، بول، "من المقابر إلى ميدان التحرير – دراسة في روايات يوسف القعيد (ترجمة: ثائر ديب)، دراسة منشورة على موقع منتديات ستار تايمز، تم تنزيلها على الموقع 2008/08/11م، من خلال الرابط التالي:
(http://www.startimes.com/f.aspx?t=11358671)، تاريخ الزيارة: 2019/01/08م، بتوقيت الهند: 01:51 ظهرًا.

ورواية القعيد "أيام الجفاف" أيضا تحمل الخلفية القروية، غير أن أهمية الفلاح باعتباره السارد الرئيسي هنا تتغير، بالنسبة لروايتي "أخبار عزبة المنيسي"، و"الحداد" حيث ينال الفلاح قسطًا أوفر ولكن في رواية "أيام الجفاف" يعود بنا الكاتب إلى تشابه أكثر بينها وبين رواية توفيق الحكيم "يوميات نائب في الأرياف" لينظر مثله إلى الريف المصري بعين القروي المثقف أو المتعلم على الأقل. وتشابه آخر مع رواية الحكيم يوجد في الابتعاد عن استخدام اللغة الريفية العامية والإلحاح على الفصحى الحديثة خلافا لرواياته السابقة. ومن الملامح البارزة لهذه الرواية أنها تقلت التقنيات السردية الجديدة المتمثلة في تقنيات تيار الوعي (الاستباق والاسترجاع) فجاءت الرواية بصورة عامة مستقيمة البناء، غير أن تقنية المذكرة والرسالة تميز هذه الرواية عن الروايات السابقة.

وهناك بعض الروايات الريفية التي تشارك في إرسال النقد اللاذع الساخر إلى السلطة، بأسلوب فكاهي أليم، بالتركيز على فساد أجهزة الإدارة، ومن هذه الروايات رواية "الحرام" ليوسف إدريس، و"الأوباش" لخيري شلبي، و"يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم، و"الجبل" لفتحي غانم1.

إن رواية محمد حسين هيكل "زينب" ورواية "الأرض" للشرقاوي كلتيهما تعالجان قضايا الريف، ولكنهما عندما نوازن بينهما نجد أن قرية زينب لم تعرف طعم الكرابيج كما عرفت قرية الشرقاوي، ولم تذق قرية زينب اضطراب مواعيد الري، ولم تجرب بول الخيل في الأفواه، ولم تصرف قرية زينب زهو النصر وهي تتحدى القضاء والإنجليز العمدة والحكومة، وتنتصر لبعض الوقت، وزينب التي لم تكن أبدا على

1. عبد الله، محمد حسن، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م، ص: 80.

الرغم من كل شيء جميلة كوصيفة لم تذهب إلى قاعة الطحين ذات يوم لتعود إلى أمها باكية كما صنعت وصيفة1، وعلى هذه الشاكلة تتباين الروايتان بالرغم من معالجة قضايا الريف المصري.

القضايا الريفية المشتركة والمتباينة في الأعمال الروائية المصرية: وبشكل عام توحي الدراسات المتعمقة للأعمال الروائية المصرية إلى أنها تشترك في بعض القضايا بفارق ضئيل في الرؤى والأداة، ونسبة الوقوف لدى معالجة قضايا القرويين، وإبراز الملامح الريفية، وتحليل الشخصيات الريفية، وتحديد سمات المجتمع الريفي المصري، وإثارة المشاكل السائدة في القرى والأرياف، ولأجل محاولة العثور على العقبات الرئيسية التي تحل دون النهوض بالأرياف، وتطويرها. ومن هذه القضايا والمشاكل العامة المشتركة في معظم الروايات الريفية، هي كالنحو التالي:

- هي تتحدث عن الفقر والبؤس السائد في المجتمع المصري آنذاك، ويحللونه تحليلًا ماديًا، وتعكس عن الاضطهادات الاجتماعيــة التي تبتلي بها العامة من الناس من قبل الطبقة البورجوازية الحاكمة والمسيطرة والمالكة لكل شئ. وتحكي عن الإقطاعية والرأسمالية وطغيانها ومدى استغلالها الطبقة البروليتارية والموظفة الصغيرة.
- التمايز الطبقي أيضا ينعكس من خلال رواياتهم.
- الحقد والظغينة ضد المستغلين، كما يضمرها كل شيوعي وماركسي لهم، أيضا نجد لدى كل منهم.

1. الشرقاوي، عبدالرحمن، الأرض، دار الشروق للنشر، القاهرة، مصر، 2017م، ص 344- 345.

- الروايات تتصل بالشعب اتصالًا مباشرًا، لا تخرج عن إطار الأدب الهادف ويلتزم به التزامًا تامًا. وتسعى لإذابة الفوارق الطبقية. وتحاول لوضع أغلال العبودية من أعناق الكادحين والفلاحين.

- وأن الإقطاعية هي رأس كل شر. والإقطاعي أو المالك يحاول أن يحتضن أموال الآخرين لم يكسبه بعرق جبينه، بل الاستغلال المادي هو هدفه الوحيد يسعى لتحقيقه.

- الفلاح يعاني من أزمات اقتصادية ولا يحصل على البيت ولقمته إلا بشق الأنفس. والفلاح والعامل يحصل بعد معاناة شديدة شيئًا ويأتي الإقطاعي ليذهب به. والإقطاعية تسبب الفوضى والتشريد في الفلاحين؛ وتسلب طمأنينتهم.1

- معظم الأحداث تدور حول القرى والأرياف، أو على الأقل تأتي الشخصيات الرئيسية من القرى والأرياف. والقرى والأرياف هي تمثل المجتمع المصري، كشريحة اجتماعية كبرى. القرى والأرياف كلها خير.

- تقدم الروايات قصة الصراع إما بين الطبقة العليا من بين أهل القرى، أو التناقض في السلطة والقرويين.

- الوجهة الرومانسية في الأرياف تختلف كثيرًا عما تحمل من سمات في المدن المصرية، والمرأة في قضايا الحبّ في معظم الأحيان تشهد الخيبة في الأمل، وقلما تفوز بتحقيق أحلامها؛ التزويج القهري، أو قتلها باسم الشرف، أو اعتداء عليها، من أبشع الاعتداءات التي تواجهها المرأة في الريف المصري.

---

1 . عطاء الله، التفسير الاشتراكي للأدب العربي القصصي المصري: دراسة تحليلية، مركز الثقافة الدينية والفنية، مهراج غنج، يوبي، الهند، 2016م، ص: 125-150.

ومن أبرز القضايا والمشاكل الريفية تتبلور في تلك الروايات هي:

- **قضية الإقطاعية:** كانت الإقطاعية هي العدو اللدود المباشر للفلاحين وبالتالي للمجتمع المصري كله خاصة بالنسبة للمجتمع الريفي.
- **قضية الرأسمالية:** إن الرأسمالية كانت من العوامل الرئيسية التي أدت إلى تفاقم الفقر والبؤس والتعاسة، كما لعبت دورًا جذريًا في التفاوت الطبقي؛ هذا غني وذاك فقير، يزداد الغني في غناه والفقير في فقره، والرأسمالية لا تمنح العامل إلا قلة قليلة مما يسدّ رمقه للحياة. والرأسمالي يعيش معيشة ترفيهية وحياة باذخة لا على كدّه وإنما على حساب الآخرين؛ والعامل والمؤظف يصب عرقه ليعود ربحًا كثيرًا، يذهب كله إلى سيده الرأسمالي، ولا تمكث عنده إلا قطرةً من البحر وحبةً من الخردل. وهذه الرأسمالية التي ضاق بها الخناق على الشعب المصري، في حين كانت الرواية المصرية تشهد زهر شبابها كانت الرأسمالية ترسم صفحات بشعة من الاستغلال والظلم الاجتماعي وتقوية الفوارق الطبقية بين المصريين... فإذا كانت وظيفة الأديب الروائي الاعتناء بالمضايقات الاجتماعية، يُحتِّم عليه أن يثور ضد النظام الرأسمالي المتطرف.
- **مشكلة الفقر والبطالة:** إن المجتمع الريفي الذي تحدثت عنها الروايات الريفية كان يشكو بالفقر والبؤس والحرمان المادي، وعدم تواجد الفرص السانحة لحصول لقمة العيش، وكانت المشكلة هي مشكلة اجتماعية. وكان من المفروض أن يتصدى بإثارتها الروائيون في مجال الإصلاح الاجتماعي. وطبعًا أنهم تناولوا هذه المشكلة وحاولوا علاجها، وسلكوا في سبيلهم الخطط المرسومة وعندما نقوم

بدراسة الروايات الريفية المصرية وتحليلها نجد فيها موادًا كثيرة تتحدث عن مشكلة الفقر والتشرد والحرمان المادي والبطالة.

- **مشكلة الفلاح والأرض:** الريف بما فيه قضية الفلاح والأرض من أبرز القضايا الاجتماعية والاقتصادية التي تتجلى من خلال الأعمال الروائية الريفية في موضوعاتها ومناهجها، وبقي الريف بعيدًا كل البعد عن متناول كتاب الروايات الريفية في مصر بشكل واقعي قبل العقد الرابع من القرن العشرين، لأن طبقة كبار الملاك الزارعين حرصت كل الحرص على أن لا تتيح للريف أن تنفذ إليه فكرات أو دعوات أو آراء تقدمية وثورية وازدادت ضغوطها عليه بفضل سيطرتها على أدوات الإنتاج ووسائله الزراعية، وملكيتها لرأس المال الأساسي في الريف وهو "الأرض" لأن لا تظهر حركات الاحتجاج على الإقطاعيين وملكيتهم للأرض واستئثارها لهم دون الآخرين. فالذين أخرجوا الأدب القصصي قبل العقد الرابع من القرن العشرين أنهم وقفوا عند الريف وقفات المشاهدين، لا يجدون فيه موادا غير الأشجار الوارفة، والنخيل الباسق، والنسيم العليل، والجداول الراقية، والفلاح القانع الراضي الوادع. وهذه القصص لا تصف الأحوال الواقعية للفلاحين، وأرضهم، بل تتحدث عن مشروعات يوتوبية لاسبيل إلى تحقيقها ولا تستند إلى تفسير علمي وتحليل موضوعي لمشكلات القرية المصرية، والطبقات الاجتماعية المتصارعة فيها، والقيم والأخلاقيات السائدة فيها، والأسباب الجذرية التي تدفع القرية إلى التدهور والانهيار، وسكونها ووقوفها في موضعها ثابتة لا تستجيب لدواعي التطور ولا يصيبها شئ من تقدم ونمو.[1] وما أن أطل العقد

1 . النساج، سيد حامد، اتجاهات القصة المصرية القصيرة، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، مصر، 1977م، ص101-102.

الرابع من القرن العشرين إلا وبدأت الدعوة إلى ضرورة إعادة تنظيم الملكية الزراعية، وبعد تعديلات الإيجارات ورفع أجور العمال الزارعين، خاصة منذ سنة 1946م نتيجة مساعي المثقفين الثوريين في المدن، والذين نزلوا من أهل الأرياف في المدن وتثقفوا هناك أو في الدول الأوربية وجهوا إلى القضايا الريفية، وحوّلوا مجرى الرياح من المدن نحو الأرياف والقرى، وانحازوا لها، ورأى بعضهم أن الثورة الاجتماعية المستهدفة لا تأتي إلا من الأرياف والفلاحين، الكادحين في الأرض العاملين لاستيراد خيراتها الزراعية، لهذا جاءت أعمال الأدب القصصي من أمثال سعد مكاوي، وعبد الرحمن الشرقاوي، وزكريا الحجاوي، وفاروق منيب، ومحمود البدوي، ويوسف إدريس عن الريف المصري وفلاحه، وأشقياء أرضه وتعساء ترابه، مختلفة تمام الاختلاف عما كتبه محمد أحمد شكري، ويوسف جوهر، وعبدالعزيز عمر ساسي، وغيرهم من الرومانسين. ونجد في قصص التقدميين تحليلًا موضوعيًا لمشكلات الفلاح والأرض، والقيم الاجتماعية والأخلاقية في الأرياف المصرية...1

وأما فيما يتعلق بالتقارب الفكري فقد اشتركت الروايات الريفية بمعالجة قضايا خاصة ونرى أن فكراتها وموضوعاتها ومضامينها تكاد تكون واحدة، فقد تختلف الأحداث، وتتعدد أسماء الشخوص، وتتنوع القرى أو مواقع الأحداث ولكن المالك المستعبد، والفلاح المقهور، وعمليات اغتصاب الأرض أو العرض، والصراع الدامي بين الطبقات الذي تحركه عوامل مادية، هي التي تشكل الإطار العام الذي تدور في

1 . عطاء الله، التفسير الاشتراكي للأدب العربي القصصي المصري: دراسة تحليلية، مركز الثقافة الدينية والفنية، مهراج غنج، يوبي، الهند، 2016م، ص: 161- 163.

فلكه هذه الأعمال، فضلًا عن الحوار العامي والسرد الذي تتخلله ألفاظ عامية متداولة.

وأما فيما يخص بالمقارنة بين الروايات المصرية الريفية العامة وروايات يوسف القعيد المعنية بالقضايا الريفية، فأوجه التباين فيها تتجلى من خلال عدة الارتكازات والمحاور الخطابية والأسلوبية؛ ومن خلال دراسة الروايات المصرية الريفية العامة وروايات يوسف القعيد وجد الباحث:

- أن القعيد أكثر في ذكر جريمة القتل وما يتلوه من تحقيقات، ومن خلالها بدأ يوسّع أفكاره عن الريف المصري، والقرية.
- أنه اتخذ قريته بالسياق الأوسع منطقة الدلتا نموذجًا للريف المصري بشكل، فتلازم المكان الواحد، بل بالتحديد مولد القعيد وقريته هي أكبر الظواهر تميزه عن الآخرين.
- أنه يغلب على روايات القعيد التشاؤم، ومن هنا تنتهي معظم رواياته بالنهاية المأساوية، فلا تصل شخصياته الرئيسية وأبطاله في أغلب الأحيان إلى معالجة المشاكل، فإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أن القعيد لم يكن متفائلا عن أوضاع الريف المصري.
- وأنه قلما نجد الشخصيات الروائية تقوم بأعمال الثورة أو التغيير الجذري ليقضي على المثالب الاجتماعية، كما تعود عليه الروائيون من قبل خاصة الذين كتبوا بالالتزام الفني، خاصة في ظل النقد الاجتماعي، والنقد الماركسي الواقعي، وأخضعوا الفن لصالح المجتمع.

- وأن رواياته خالية عن الالتزام، غير أنه لا يعني أنه لا يرى في نظرية الأدب الملتزم من قيمة وتأثير، بلى، ولكنه كان يرى أن الرواية لا بدّ أن تبقى رواية، لا تصبح وثيقة تاريخية واقعية. وأنه كان يحاول الجميع بين الالتزام ومقتضى الفن وإعطاء الفن جماله حتى يمكن للفن أن يبدئ مفاتن جماله بسحريته.

- وأن أهم الفوارق في السمات الريفية بين روايات المصريين العامة ورايات يوسف القعيد الخاصة، هي أن معظم الروائيين عالجوا في رواياتهم مشاكل الريف وقضاياه بالمنظور الاشتراكي أو الماركسي أو الشيوعي أو الاشتراكي العربي الناصري، في حين يعالج القعيد هذه القضايا في رواياته بمنظور ما بعد الرأسمالي، حيث يرفض التبعية الرأسمالية، والفوارق الاجتماعية الناتجة عن الرأسمالية الأمريكية بعد خوض السادات في ممارسة الرأسمالية الأمريكية، كما تحدث عن أثر التغيرات البنائية والسياسات الاقتصادية، وأنساق القيم الاجتماعية في الظروف المختلفة اللهم إلا أنه بعض التشابه في نقد الرأسمالية الأمريكية مع الروائيين الملتزمين بالواقع الاجتماعي النقدي في الإطار الاشتراكي.

- وأن الروائيين الآخرين من أمثال طه حسين في "دعاء الكروان"، ويحيى حقي في "دماء وطين" نبهت الاهتمام بقضايا الريف أيضًا، مع توفيق الحكيم في روايته "يوميات نائب في الأرياف"، والتي تقلد أسلوبها يوسف القعيد أيضا في بعض رواياته وبالتحديد "الحداد". كلهم حاولوا إزاحة الستار عن الجريمة في الريف، بسبب الحب أو بسبب آخر، غير أن طه حسين ويحيى حقي عالجوا المشكلة من رؤية رومانسية، ثم من رؤية واقعية، وأما توفيق الحكيم فقد عالج

نفس القضية لكن معللة بالبنية الاجتماعية، والموروث، والعوامل الاقتصادية، والحب أيضًا في هذا الرصد الشامل لمواسم الجريمة، وأدواتها، ودوافعها، ونتائجها على السواء، اللهم إلا أن القعيد رغم كونه قريبًا من طريقة توفيق الحكيم، لم يُتح مجالًا أفسح للحب في الرواية.

خاتمة البحث

إن الريف من أهم الموضوعات الأدبية فى آداب جميع الأمم، ولا يزال يحمل مكانة مرموقة فى الأدب العربي الحديث منذ بدايته حيث تناولته جميع الأنواع الأدبية العربية الحديثة موضوعيا وعالجت قضاياه ومشاكله. والرواية العربية الحديثة لها علاقة أصيلة بالريف، وهذه العلاقة تبدأ منذ مولد الرواية العربية التي مهما اختلف في تأصيل بدايتها، فإن كل البدايات تعود إلى مولد الرواية في بيت الفلاح في مصر. إن الرواية العربية الأولى "زينب" لمحمد حسين هيكل كانت ريفية تجري أحداثها فى الريف، وأثارت هذه الرواية ثورة أدبية وفكرية في الأدب العربي الحديث وحثت الآخرين من الكتاب أن يتجهوا إلى هذا الموضوع. وكتبت العديد من الروايات المصرية على مدار القرن العشرين لها أوضاع ريفية حتى كتب معظم الكتاب المصريين رواية واحدة على الأقل عن الفلاح وقريته. من أهم الأشخاص البارزين الذين لعبوا دورا فعالا فى هذا المجال هم محمد حسين هيكل، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وعبد الرحمن الشرقاوي، وعبد الحكيم قاسم، وخيري شلبي وغيرهم. وعلى رأس هؤلاء يوسف القعيد، لأن رواياته مهمة جدا فى تاريخ الرواية العربية الريفية إذ تحمل مكانة مرموقة فى تطور الرواية الريفية فى مصر. إن الروائي يوسف القعيد نفسه واحد من أبرز الكتاب الشباب المصريين ومؤلف غزير الإنتاج الحديث للروايات الريفية. وهو يعتبر لسانا ناطقا بالريف المصري من بين الأدباء المصريين في مرحلة ما بعد نجيب محفوظ، إنه استخدم تقنيات أدبية مبتكرة ونهجا أدبيا جديدا فى كتاباته التي انعكست فى رواياته وقصصه بوضوح، وقد عرف القعيد بنبرته السياسية الناقدة، وعرضت بعض أعماله للمصادرة، وهو لا يساوم فى تسجيل ما رآه.

ولتحقيق أهداف هذا البحث، قام الباحث بإلقاء الضوء على وضع الرواية الريفية فى بلدان العالم العربي مقارنة مع أنواع أخرى من الروايات الريفية المصرية، والاستقراء عن كيفية انعكاس الظروف المختلفة لظهور وتطور الرواية الريفية فى مصر. كما حاول الباحث إبراز الملامح الريفية التي انعكست فى كتابات القعيد الروائية والقصصية، والأسباب التي دفعته إلى الكتابة عن الفلاح وأرضه وقريته حتى أصبح فلاحا فصيحا وتحول من فلاح يكتب أدب الفلاحين إلى مثقف يكتب عن الفلاحين، وحاول الباحث لدراسة مقارنة بين يوسف القعيد وبعض الروائيين الآخرين لكي تتعين مكانته بينهم فى معالجة قضية الريف.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث هي كما يلي:

- أن جميع الأنواع الأدبية العربية سواء كانت شعرا أو نثرا تناولت الريف موضوعيا وعالجت قضاياه ومشاكله.
- أن الرواية الريفية هي التي نظمت حبكتها المركزية في الريف حيث أهل الريف هم الشخصية الرئيسية فيها، والتي تتحدث مباشرة أو غير مباشرة عن أمور تتعلق بأعرافهم وطرق حياتهم، وتعالج شؤونهم وقضاياهم حسبما تعكس عليها الظروف.
- أن الفلاح المصري الذي كان منذ آلاف السنين العمود الفقري للاقتصاد الزراعي والتجاري فى مصر، قد أصبح مهيمنا على الخطاب الاجتماعي والفكر السياسي للدولة المصرية الحديثة في القرن العشرين، وظهر فجأة كشعار قوي للهوية الوطنية فى مصر.

- أن الشعراء والكتاب والفنانين والمؤلفين للموسيقى بدأوا يركزون فى بداية من القرن الماضي على الفلاح باعتباره موضوعا مناسبا لفن وطني جديد. وهذا كان من الأمور التي لم يمكن التفكير فيها قبل مجرد خمسين عامًا.
- أن هذا التحول الكبير في الصور والحوار السياسي المحيط بالفلاح المصري يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر على الأقل حيث أنتج الاستعمار البريطاني واندماج مصر في اقتصاد رأسمالي عالمي الظروف الاجتماعية والسياسية التي جعلت هذا التحول ممكنا.
- أن معظم النقاد اتفقوا على أن الرواية الفنية العربية الأولى الفنية بالمعنى الحقيقي للكلمة هي رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل التى التي ظهرت عام 1914م.
- أن أهم الكتاب الذين كتبوا روايات ريفية ولعبوا دورا فعالا فى هذا المجال قبل ثورة يوليو 1952م، محمد حسين هيكل، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهم.
- أن الكتاب فى مرحلة ما بعد الثورة هم عبد الرحمن الشرقاوي، ويحيى حقي، ويوسف إدريس، ومحمد عبد الحليم عبدالله، وعبد الحكيم قاسم، ويوسف القعيد وغيرهم.
- أن الرواية الريفية فى مصر تطورت فى مرحلتين: مرحلة من بداية القرن العشرين حتى ثورة يوليو عام 1952م، ومرحلة لما بعد الثورة.

- أن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة فى القرن العشرين تسببت فى ظهور وتطور الرواية الريفية فى مصر، وهي تنعكس بوضوح في مواضيعها الفكرية والشعرية.
- أن أهم عواملها المؤثرة لظهور وتطور الرواية الريفية فى مصر تشمل وجود مناطق ريفية بشكل هائل في البلدان العربية، ونقل أهلها من القرى والصحاري إلى المدن، وانتقالهم من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي، ومرور المجتمع العربي من خلال تغييرات، وحالة الفلاحين المنخفضة، ومشكلة الهوية الوطنية المصرية والمساواة الاجتماعية، وأزمة اقتصادية وسياسية فى الثلاثينات والأربعينات، وتأثير ثورة يوليو على الكتاب المصريين، والصراع بين الريف والمدينة وغير ذلك.
- أن هناك انخفاضا خلال فترة الثمانينات في أهمية كتابة الرواية الريفية فى مصر. وممثلها الرائد حتى الوقت الحاضر هو يوسف القعيد، ولكنه بدأ في كتابة المزيد من الكتب مع إعداد المدينة في غضون الثمانينات وهذا يوضح مناوبته في الاهتمام.
- أن بعض الكتاب الآخرين أيضا كتبوا رواية أو روايتين عن الريف بعد الثمانينات، من أهمهم بهاء طاهر صاحب "خالتي صفية والدير" عام 1991م، والدكتور مرعي المدكور صاحب "يوم الزينة" عام 2010م وغيرهم.
- أن الرواية الريفية لا تشكل مجموعة من الكتاب، ولا نوعا أدبيا، أو نوعا فرعيا من الأدب المصري، بل تشكل مجموعة من الروايات التي تستخدم القرية كوضع وموضوع لها. ومن أهمها رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل عام 1914م، ورواية

"الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوي عام 1954م، ورواية "يحدث في مصر الآن" لمحمد يوسف القعيد عام 1977م. وهذه الروايات الثلاث يمكن أن تعتبر روايات رئيسية ونماذج لهذه المجموعة من الرواية الريفية.

- أن رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل تمثل نكتة بداية للرواية الريفية والفترة الرومانسية فى مصر، ورواية "الأرض" للشرقاوي هي نتاج للواقعية ولا سيما الواقعية الاجتماعية فى فترة عبد الناصر، وأن روايات يوسف القعيد وخاصة روايته "يحدث فى مصر الآن" أيضا مهمة جدا فى تاريخ الرواية العربية الريفية لأنها تحمل مكانة مرموقة فى تطور الرواية الريفية فى مصر فى مرحلة ما بعد نجيب محفوظ.
- أن الرواية الريفية تصوّر المصرية الفلّاح بريئا فقيرا مستغَلّا، والإقطاعيَّ ظالما مستغِلّا ولعل تصوير جرائم الإقطاع ومعركة الفلاحين لنيل حقوقهم من الإقطاعيين هو الموضوع الرئيسي في الرواية الريفية المصرية.
- أن يوسف القعيد واحد من أبرز الكتاب الشباب المصريين، ومؤلف غزير الإنتاج الحديث للروايات الريفية. وهو يعتبر لسانا ناطقا بالريف المصري من بين الأدباء المصريين في مرحلة ما بعد نجيب محفوظ.
- أنه استخدم تقنيات أدبية مبتكرة ونهجا أدبيا جديدا فى كتاباته التي انعكست فى رواياته وقصصه بوضوح، وقد عرف القعيد بنبرته السياسية الناقدة وعرضت بعض أعماله للمصادرة، وهو لا يساوم فى تسجيل ما رآه.

- أنه بالرغم من انتمائه إلى الطبقة الوسطى، لم يصبح جزءا من البرجوازية العربية المستغلة، فهو قريب جدا بحكم نشأته من الطبقات الفقيرة في القرية المصرية، وفي المدينة أيضا عاش قريبا جدا من الطبقات الكادحة.
- أن قضية الفلاح، وتصوير جرائم الإقطاع، ومعركة الفلاح لنيل حقوقه من الإقطاعيين من الموضوعات الرئيسية في كتاباته ذات الطابع الاشتراكي. وكذلك قضية الأرض، والصراع حولها أيضا وجدت مكانة مرموقة في كتاباته الريفية. ويخوض الفلاح وأهل القرية فى كتاباته ساعيين في سبيل الحرية والعدالة.
- أن الموضوعات الأخرى فى كتاباته تشمل المعتقدات والخرافات الريفية، والاضطهاد والشقاء في الحياة، والصراع الريفي، وسذاجة الحياة الريفية، والمرأة الريفية ومشاكلها فى المجتمع، والربط بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية، والظلم والقهر والاستغلال، والمقاومة، والصراع الاجتماعي، والهجرة إلى المدن، والهجرة إلى الريف أيضا وغير ذلك.
- أن يوسف القعيد قام برفع صوت الفلاح بين الأوساط العلمية والسياسية والاقتصادية، وحاول لفت انتباه المهتمين بالقضايا الريفية. ففي روايته "البيات الشتوي" نجد شخصية الفلاح قانعة بواقعها الأليم من جهة، ومن جهة أخرى يحلم الفلاح باليوم الذي يأتي فيه المنقذ الذي ينقذ القرية مما تعاني من الظلم والفقر وتسد حاجاتهم.
- أن القعيد اهتم بتصوير الريف العربي حيث تنعكس فيه نكسة حزيران لعام 1967م (حرب أكتوبر 1967م) من خلالها، وحاول أن يتلمس الأسباب في التخلف والعوامل الطبقية وراء هذا التخلف، ويتخلخل البنى الاجتماعية

والاقتصادية والثقافية والأخلاقية، لذلك فهو دائما يربط بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية، ويبدو ذلك من خلال اختيار بداية أحداث رواياته الأولى بعد صدور القرارات الاشتراكية وقوانين الإصلاح الزراعي وتحديد ملكية الأرض، فكأنه أراد أن يقول إن القرارات الثورية لن تغير من واقع الأمر شيئا فأعوام الثورة، وسنوات من تطبيق تلك القرات، غير أن القرية تعيش وكأنها خارج التاريخ.

- أن القعيد ركز على الطبقة المهمشة والفقيرة في معظم رواياته؛ فلا تختلف طبيعة الشخصيات المهمشة في رواية "الحرب في برّ مصر" عن طبيعة الشخصيات فى رواية "يحدث في مصر الآن"؛ حيث توجد عائلة "مصري" الفقيرة مقابل العمدة الغني. وأيضًا نجدها في نفس الحالة المهانة في ثلاثية "شكاوي المصري الفصيح" على سبيل المثال.
- أن السياسة تعد من المحاور الرئيسية في مشروع القعيد الروائي، وقد تجلت هذه الظاهرة في صراع الفلاح مع السلطة، وأنه في رواياته الثلاث: "يحدث في مصر الآن"، و"الحرب في بر مصر"، و"ثلاثية شكاوي المصري الفصيح" على وجه خاص تصدى عن القضايا السياسية سواء تتعلق بالريف المصري أو المدينة المصرية. اللهم إلا أنه حاول الجمع بين رؤيته السياسية والقيمة الفنية للرواية.
- أن الشيء الجديد الذي نجده في روايات يوسف القعيد، هو أنه يتحدث عن غربة في وطنه الأم، والاغتراب في بلاده، وبالرغم من أنه أرغم على الحياة في المدينة وبالتحديد في مدينة القاهرة منذ عام 1965م، إنه يرى الأفضلية في الخلق

للقرى، فلذلك يقول "لقد عشت في المدينة مغتربًا عنها، لم أستطع أن أكون جزءًا منها أبدًا، حملت غربتي على كتفي وعشت في المدينة مرغمًا".

- أن رواية "يحدث في مصر الآن" وثيقة من وثائق النقد الاجتماعي حيث تبحث الرواية عن القضايا الاجتماعية في الثمانينيات وبالتحديد قرب 1974م.
- أن توفيق الحكيم ويوسف القعيد كليهما شهدا كل ما يجري على المسرح الوطني المصري في القرن العشرين، وتميزا في الإبداع الأدبي القصصي الرواية والقصة القصيرة، مع بعض الفوارق في الكمية، والإنتاج، والأسلوب، والتنوع في الموضوعات.
- أنهما عالجا في رواياتهما "الحداد"، و"يوميات نائب بالأرياف" قضية الثأر والصراع، والعلاقات القروية من خلال تدوين اليوميات والأحداث التي تجري القرية. وفي الروايتين نجد محاولات لحلّ لغز جريمة القتل عن طريق التحقيق الرسمي، والجريمة معقدة للغاية في الروايتين.
- أن روايته "الحداد" يوجد فيها تشابه قوي في تدوين الملاحظات على غرار اليوميات في شكل صورة يوميات يسجلها النائب، غير أن الأحداث في صورة مماثلة لها لدى القعيد تم تسجليها على أيدي القرويين والفلاحين، وتتطور الأحداث على لسانهم مع تطور الرواية، ومن هذا المنظور يوجد بينهما تشابه، وأوجه التباين تتجلى في منظور الروايتين؛ إذ يقدم توفيق الحكيم في روايته منظوره عن الريف المصري منظور المثقف المتعلم، في حين يرجع منظور القعيد في روايته "الحداد" منظور غير المثقف، والساذج، بسبب اعتماده على تسجيلات الفلاحين بأنفسهم. وفي "يوميات نائب الأرياف" يتم رصد الأحداث

الموصوفة بعين النائب المثقف الواعي في حين يرصد الروائي القعيد في روايته "الحداد" الأحداث الموصوفة بعين فلاح مصري.

- أن القعيد في رواية "أيام الجفاف" يعود بنا إلى تشابه أكثر بينها وبين رواية توفيق الحكيم "يوميات نائب في الأرياف" لينظر مثله إلى الريف المصري بعين القروي المثقف أو المتعلم على الأقل. وتشابه آخر مع رواية الحكيم يوجد في الابتعاد عن استخدام اللغة الريفية العامية والإلحاح على الفصحى الحديثة خلافا لرواياته السابقة.

- أن التشابه يوجد أيضا بين رواياته ورواية "الحرام" ليوسف إدريس، و"الأوباش" لخيري شلبي، و"يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم، و"الجبل" لفتحي غانم فى إرسال النقد اللاذع الساخر إلى السلطة، بأسلوب فكاهي أليم، بالتركيز على فساد أجهزة الإدارة.

- أن التشاؤم يغلب على روايات القعيد، وقلما نجد الشخصيات الروائية تقوم بأعمال الثورة أو التغيير الجذري ليقضي على المثالب الاجتماعية، كما تعود عليه الروائيون من قبل خاصة الذين كتبوا بالالتزام الفني، خاصة في ظل النقد الاجتماعي، والنقد الماركسي الواقعي، وأخضعوا الفن لصالح المجتمع.

- أن معظم الروايين عالجوا في رواياتهم مشاكل الريف وقضايا الفلاحين بالمنظور الاشتراكي أو الماركسي أو الشيوعي أو الاشتراكي العربي الناصري، في حين يعالج القعيد هذه القضايا في رواياته بمنظور مابعد الرأسمالي، حيث يرفض التبعية الرأسمالية، والفوارق الاجتماعية الناتجة عن الرأسمالية الأمريكية بعد

خوض السادات في ممارسة الرأسمالية الأمريكية، كما تحدث عن أثر التغيرات البنائية والسياسات الاقتصادية، وأنساق القيم الاجتماعية في الظروف السياسية.

- أن الروائيين الآخرين من أمثال طه حسين، ويحى حقي، ويوسف القعيد أيضا في بعض رواياته وبالتحديد "الحداد" تقلدوا رواية "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم فى معالجة قضية الريف. كلهم حاولوا إزاحة الستار عن الجريمة في الريف، بسبب الحب أو بسبب آخر، غير أن طه حسين ويحى حقي عالجا المشكلة من رؤية رومانسية، ثم من رؤية واقعية، وأما توفيق الحكيم، فقد عالج نفس القضية لكن معللة بالبنية الاجتماعية، والعوامل الاقتصادية، والحب أيضًا في هذا الرصد الشامل لمواسم الجريمة، وأدواتها، ودوافعها، ونتائجها على السواء ولكن القعيد رغم كونه قريبًا من طريقة توفيق الحكيم، لم يُتح مجالا أفسح للحب في الرواية.

هذا غيض من فيض من النتائج المهمة التي توصلنا إليها من خلال مئات من الصفحات بعد العرض والتحليل من الاقتباسات من شتى كتابات القعيد وآرائه الفنية والخطابية، وتدقيق المعلومات المبعثرة حول الموضوعات والقضايا المعنية بالريف.

المصادر

1. إدريس، يوسف، الحرام، مكتبة مصر، ط1، 1959م.
2. بك، بيرل، الأرض الطيبة، روايات الهلال، ط1، 1952م.
3. بك، جون شتاين، عناقيد الغضب، ترجمة: سعد زهران، دار المعارف، مصر، ط1، 1971م.
4. البنودي، عبد الرحمن، الأرض والليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1975م.
5. حبيبي، أميل، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحاس المتشائل، دار الهلال، 1974م.
6. حسين، طه، أحلام شهرزاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2000م.
7. حسين، طه، الأيام، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مصر، ط1، 1992م.
8. حسين، طه، المعذبون فى الأرض، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012م.
9. حسين، طه، شجرة البؤس، دار المعارف، مصر، ط1، 1943م.
10. حقي، يحيى، صح النوم، دار نهضة مصر، 1976م.
11. الحكيم، توفيق، أهل الكهف، دار الشروق، مصر، ط1، 1933م.
12. الحكيم، توفيق، عصفور من الشرق، دار الشروق، مصر، ط1، 1946م.
13. الحكيم، توفيق، عودة الروح، دار الشروق، مصر، ط1، 1933م.
14. الحكيم، توفيق، يوميات نائب فى الأرياف، دار الشروق، مصر، ط1، 1937م.
15. الحكيم، توفيق، يوميات نائب في الأرياف، دار الشروق، مصر، 2005م.
16. داؤد، أحمد يوسف، الخيول، دار الحصاد، دمشق، 1976م.

17. دهني، صلاح، ملح الأرض، اتحاد الكتاب العرب، مصر، 1972م.
18. زرزور، فارس، المذنبون، اتحاد الكتاب العرب، 1974م.
19. الشرقاوي، عبد الرحمن، الأرض، دار الشروق للنشر، القاهرة، مصر، 2017م.
20. الشرقاوي، عبد الرحمن، الفلاح، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1968م.
21. شلبي، خيري، الأوباش، دار الشروق، مصر، ط1، 1978م.
22. عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطئ)، سيد العزباء، قصة إمرءة خاطئة، دار المعارف، القاهرة، 1944م.
23. عبد الله، محمد عبد الحليم، الجنة العذراء، مكتبة مصر، 1970م.
24. قاسم، عبد الحكيم، أيام الإنسان السبعة، دار الشروق، مصر، 1969م.
25. القعيد، يوسف ، يحدث في مصر الآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2002م
26. القعيد، يوسف، أخبار عزبة المنيسي، هيئة الكتاب، مصر، 1997
27. القعيد، يوسف، البيات الشتوي، مكتبة الأسرة، مصر، 2002م.
28. القعيد، يوسف، الحداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1987م.
29. القعيد، يوسف، الحرب فى بر مصر، دار الشروق، 2008م.
30. القعيد، يوسف، القلوب البيضاء، دار الشروق، 1987م.
31. القعيد، يوسف، المزاق، دار المستقبل العربي، 1983م.
32. القعيد، يوسف، أيام الجفاف، مكتبة مدبولى الصغير، 1973م.
33. القعيد، يوسف، بلاد المحبوب، دار الشروق، 1987م.

34. القعيد، يوسف، تجفيف الدموع، مطابع الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الاولى، 1981م.

35. القعيد، يوسف، حكايات الزمن، وزارة الاعلام والثقافة، بغداد، العراق، 1980

36. القعيد، يوسف، حكايات من الزمن الجريح، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافية والإعلام، دار الرشيد، عراق، عام 1980م.

37. القعيد، يوسف، شكاوى الفصيح المصري، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1989م.

38. القعيد، يوسف، طرح البحر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2005م.

39. القعيد، يوسف، عرق الفقراء، دار المستقبل العربي، 1985م.

40. القعيد، يوسف، فى الأسبوع سبعة أيام، هيئة الكتاب، مصر، 1975

41. القعيد، يوسف، قصص من بلاد الفقراء، دار الهلال للطباعة، مصر، الطبعة الأولى، مايو 1983م.

42. القعيد، يوسف، قصص من بلاد الفقراء، رؤية الهلال، 1985م.

43. القعيد، يوسف، من يخاف كامب ديفيد، مكتبة مدبولي، 1993م.

44. القعيد، يوسف، من يذكر مصر الأخرى، وزارة الثقافة، سوريا، 1984م.

45. القعيد، يوسف، نوم الأغنياء، دار الموقف العربي، 1981

46. كالدويل، ارسكين، أرض الله الصغيرة، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، مصر، 1933م.

47. محفوظ، نجيب، القاهرة الجديدة، دار الشروق، ط1، 1945م.

48. محفوظ، نجيب، ميرا مار، مكتبة مصر، ط1، 1945م.

49. محمد عاطف، غيث، القرية المتغيرة، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1964م.

50. مدكور، مرعي، رواية يوم الزينة، دار الهلال ضمن سلسلة روايات الهلال، مصر، 2010م.

51. المطلبي، عبد الرزاق، الأشجار والريح، دار الكلمة، العراق، 1971م .

52. المطلبي، عبد الرزاق، الظامئون، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، العراق، 1967م.

53. مينه، حنا، بقايا صور، جامعة القاهرة، كلية الآداب، مصر، 1978م.

54. نحوي، أديب، متى يعود المطر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1960م.

55. هيكل، محمد حسين، زينب، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة، 1992م.

56. الوهاب، سعد الدين، المحروسة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1967م.

المراجع

1. أمين العالم، محمود، أربعون عاماً من النقد التطبيقي، البنية والدلالة في القصّة والرواية العربية المعاصرة، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1994م.
2. باختين، ميخائيل ، أشكال الزمان والمكان في الرواية، ت: يوسف حلاّق، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1990م.
3. بدر، عبد المحسن طه، الروائي والأرض، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971م.
4. بدر، عبد المحسن، طه، الروائي والأرض، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1979م.
5. بدران، إبراهيم والخماش، سلوى، دراسات في العقلية العربية، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1974م.
6. بدران، إبراهيم، والدكتورة سلوى الخماس، دراسات في العقلية العربية (الخرافة)، دار الحقيقة، بيروت، الطبعة الأولى، 1974م.
7. بدوي، محمد، الرواية الجديدة في مصر، دراسة في التشكيل والأيدولوجيا، المؤسسة الجامعية للنشر والدراسة والتوزيع، بيروت 1993م.
8. بروكس، كلينت، روائع التراجيديا في أدب الغرب، ترجمة د. محمود السمرة، دار الكاتب العربي، ط1، 1965م.
9. بريل، ليفي، العقلية البدائية، ترجمة: د. محمد القصاص، مراجعة حسن الساعاتي، مكتبة مصر.

10. التازي، محمد عزالدين، روائيون وتجارب قراءات في أعمال إبراهيم عبدالمجيد، أحمد إبراهيم الفقيه، إلياس خوري تركي الحمد، سلوى بكر، واسيني الأعرج، يوسف القعيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 2018م.
11. الأنصاري، محمد جابر، الناصرية بمنظور نقدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002م.
12. جندي، أنور، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع، مطبعة الرسالة، 1959م.
13. حسن، محمد عبد الغني، الفلاح في الأدب العربي، دار القلم للطباعة والنشر، 1965م.
14. حقي، يحيى، فجر القصة المصرية مع ست دراسات أخرى من نفس المهام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1987م.
15. حماد، الصالح حامدي، أحسن القصص، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، 1910م.
16. حمدان، جمال، شخصية مصر (دراسة عبقرية المكان)، عالم الكتب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1980م.
17. حمدان، جمال، شخصية مصر: دراسة عبقرية المكان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1980م.
18. حمداني، حميد، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي (دراسة بنيوية تكوينية)، الشركة الجديدة، دار الثقافة مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985م.

19. حمودة، حسين، الرواية والمدينة، نماذج من كتاب الستينات، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ط1، 2000م.
20. الخطيب، عبدالله، روايات باكثير: قراءة في الرؤية والتشكيل، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005م.
21. خيري، زكي، المسألة الزراعية، مطبعة الشعب، بغداد، 1974م.
22. الدباغ، فخري، السلوك الإنساني: الحقيقة والخيال، كتاب العربي، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي، العراق، 15 يوليو، 1986م.
23. الراعي، علي، الرواية في نهاية قرن، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1991م.
24. رمزي، اسكندر، نبيل، الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر، دار المعرفة الجامعية – إسكندرية، مصر، ط1، 1988م.
25. رمضان، عبد العظيم، صراع الطبقات في مصر (1837م–1952م)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1978م،
26. زجاجي، باقر جواد، الرواية العراقية وقضية الريف، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1980م.
27. السكوت، حمدي، الرواية العربية–ببليوغرافيا ومدخل نقدي، قسم النشر بالجامعة الأمريكية، الولايات المتحدة الأمريكية، 2000م.
28. سليمان، نبيل، الرواية السورية (1967م– 1977م)، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، ط1، 1982م.
29. سمعان، إنجيل بطرس، دراسات في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1978م.

30. سويف، مصطفى، الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، 1970م، وينظر أيضا: د. نجيب إسكندر، د. رشدي منصور، التفكير الخرافي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1962م.

31. سي– كيه، عبد الرشيد، صورة الريف المصري في روايات توفيق الحكيم، رسالة ما قبل الدكتوراه قدمها الطالب، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند، 2012م.

32. سيد إمام و آخرون، "القعيد روائيا"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2001م.

33. السيد، شفيع، اتجاهات الرواية المصرية منذ الحرب العاملة الثانية إلى سنة نقدية، دار المعارف، مصر، ط1، 1978م.

34. سيلوني، إيجنازيو، فونتمارا، ترجمة: كامل، مصطفى، دار الرافدين، بيروت، 2017م.

35. شتا، سيد علي، الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر، المكتبة المصرية للطباعة والنشر، مصر، 2003م.

36. الشنطي، محمد صالح، الرواية العربية في مصر من عام 1952م إلى عام 1967م، رسالة الدكتوراه قدمها الطالب، جامعة القاهرة، القاهرة، مصر، 1983م.

37. الصميلي، يوسف، موازين نقدية فى النص المصري: يوسف القعيد نموذجا، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1995م.

38. الضبع، مصطفى، فلاح الرواية رواية الفلاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998م.

39. الطاهر، عبد الجليل، البدو والعشائر في البلاد العربية، معهد الدراسات العربية العالية، مطبعة الاعتماد، مصر، ط1، 1955م.

40. عبد الحميد، شاكر، سيكولوجية الإبداع الفني في القصة القصيرة، دار غريب، القاهرة، 2001م.

41. عبد الخالق، غسان، الزمان – المكان – النص – اتجاهات فى الرواية العربية المعاصرة فى الأردن، دار الينابيع للنشر والتوزيع والاعلان، عمان، 1993م.

42. عبد العظيم، صالح سليمان، سوسولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الأولى، 1998م.

43. عبد الغني، محمد، الفلاح في الأدب العربي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي للتأليف والنشر، المكتبة الثقافية، الطبعة الأولى، 1965م.

44. عبد الغني، مصطفى، الاتجاه القومي في الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م.

45. عبد الله، محمد حسن ، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1989م.

46. العبد، عاطف عدلي، المرأة الريفية، دار العارف، القاهرة، سلسلة إقرأ (484)، الطبعة الثانية، 1987م.

47. العبد، عاطف عدلي، المرأة الريفية، دار المعارف، ط2، 1987م.

48. العزة، سناء سميح، القضايا الموضوعية والفنية في روايات ليلى الأطرش، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999

49. العلام، عبد الرحيم، الفوضى الممكنة، دراسات فى السرد العربي الحديث، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 2001.

50. عوض، لويس، المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث، معهد الدراسات العربية، مطبعة الجيلاوي، القسم الأول، ط1، 1963م.

51. عيروط، هنري، الفلاحون، ترجمة إلى العربية: محيى الدين اللبان ووليم داؤد مرقوس، مؤسسات الحلبي، القاهرة، ط8، 1968م.

52. غوستاف، كارل يونغ ، الإنسان ورموزه، ترجمة: سميرة علي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط1، 1984م.

53. غولدمان، لوسيان، وآخرون، البينونة التكوينية والنقد الأدبي، ترجمة إلى العربية: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1984م.

54. فتحي، ابراهيم، الخطاب الروائي والخطاب النقدي فى مصر، هيئة الكتاب، 2004م.

55. فضل، صلاح، أساليب السرد في الرواية العربية، دار سعاد الصباح، الكويت،1992م.

56. الفيومي، إبراهيم، دراسات في الرواية والقصة القصيرة، وزارة الثقافة، عمّان، 1997م.

57. قصراوي، مها حسن، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

58. ماضي، عماد خالد، التفاعل النصي في الرواية العربية المعاصرة، دار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر 2016م.

59. محسب، حسن، قضية الفلاح في الأدب العربي، دار الأقلام، القاهرة، مصر، 1965م.

60. محسب، حسن، قضية الفلاح في القصة المصرية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971م.

61. مراد، يوسف، مبادئ علم النفس العام، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.

62. مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م.

63. المساري، هاجر محمود علي معلا، الشخصية الريفية في رواية الأرض في الأدب العربي الحديث (دراسة فكرية وفنية)، رسالة ماجستير قدمتها الطالبة إلى مجلس كلية التربية للبنات – جامعة بغداد، بغداد، العراق، 2002م.

64. مصطفى، ساجد مصطفى، الشخصية في الرواية العراقية (1980م–1958م) دراسة نقدية، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 1996م.

65. ممو، أحمد، دراسات هيكلية في قصة الصراع، الدار العربية للكتاب، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، ط1، 1984م.

66. موسى، شمس الدين، المرأة الأنموذج في الرواية العربية الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.

67. موسى، فاطمة، في الرواية العربية المعاصرة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1971م.

68. النساج، سيد حامد: الرومانسية في القصة المصرية القصيرة، مجلة الهلال، السنة 85، مارس 1977م.

69. النساج، سيد حامد، بانوراما الرواية العربية الحديثة، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، مصر، 1980م.

70. النساج، سيد حامد، بانوراما الرواية العربية الحديثة، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1980م.

71. النوري، قيس، الحضارة والشخصية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط1، 1981م.

72. نوفل، سيد، الدكتور هيكل في تاريخ القصة العربية، مجلة الهلال، عدد خاص، مارس 1977م.

73. هانت، سونيا وهيلتن، جينيفير، نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1988م.

74. هاني، الراهب، الشخصية الصهيونية في الرواية الإنجليزية، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية، 1975م.

75. الهلالي، عبد الرزاق، المجتمع الريفي العربي والإصلاح الزراعي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1960م.

76. هيكل، أحمد، تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، مصر، 1983م.

77. وادي، طه، الرواية السياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1992م.

78. وادي، طه، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، مركز كتب الشرق الأوسط، 1973م.

79. وادي، طه، هيكل رائد الرواية:السيرة والتراث، دارالنشر للجامعات، مصر، 1998م.

80. الورقى، السعيد، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1982م.

81. يمنى، العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية التعبير وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، ط1، 1998م.

المراجع الإنجليزية

1. Allen, Roger, Arabic novel, An Historical and Critical Introduction, Syracuse University Press, New York, 1st Edition, 1982.
2. Elad, Ami, The Village Novel in Modern Egyptian Literature, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 1994.
3. Elsadda, Hoda, Gender, Nation, and the Arabic Novel: Egypt 1892-2008, Syracuse University, 2012.
4. Mary N, Layoun, Travels of a Genre: The Modern Novel and Ideology, Princeton Legacy Library, Princeton University Press. 2014.
5. Sakkut, Hamdi, The Arabic Novel: Bibliography and Critical Introduction, 1865-1995, American University Press, Cairo, 2001.
6. Selim, Samah, The Novel and the Rural Imaginary in Egypt, 1880-1985, Routledge Curzon, London, 2004.
7. Vincent, Andrew, Modern Political Ideologies, Cambridge, Massachusetts, Black Well Publishers INC, 2nd Edition, 1995.

الجرائد والمجلات

1. الدماصي، رغدة، ندوة حول حياة وأعمال يوسف القعيد، صحيفة الأهرام، مصر، فبراير، 2016م.
2. ناظميان، رضا، أدب الريف في رواية "الأرض" للشرقاوي، و"كليدر" لدولت آبادي"، مجلة إضاءات نقدية، السنة الخامسة، العدد التاسع عشر، أبريل، 2015م.
3. نبيل، سليمان، الرواية الريفية في سوريا (1967م-1977م)، مجلة الأقلام، بغداد، العدد 9، السنة 14، 1979م.
4. صبري، حافظ، المقهى الزجاجي- الأيام الصعبة- عرض ونقد، عالم الكتاب، القاهرة، العدد 40، يناير، 1984م.
5. شكري، غالي، الحب والأرض بين التناظر والمفارقة، مجلة فصول، القاهرة، العدد 340، 1987م.
6. إبراهيم، فتحي، الرواية المصرية، مجلة إبداع، القاهرة، العدد 5، 1992م.
7. قاسم، سيزا، مشكلة الإبداع الروائي عند جيل الستينات، مجلة فصول، القاهرة، المجلد 2، العدد 2، 1982م.
8. لبيب، عباس، بين الأرض وفونتامارا، مجلة فصول، القاهرة، يناير-مارس، 1982م.
9. الكافوري، السعداوي، يوسف القعيد في حوار "ما بعد السبعين": لا أكتب أدبًا سياسيًا، القاهرة، مصر، مجلة أخبار الأدب، مارس، 2014م.

المحتويات

الأرقام	المحتويات	رقم الصفحة
1	مقدمة البحث	1
2	**الباب الأول: نظرة عابرة على الرواية الريفية فى مصر**	1
3	الفصل الأول: الريف فى الرواية العربية الحديثة	2
4	الفصل الثاني: الريف فى الرواية المصرية الحديثة	15
5	الفصل الثالث: نبذة عن أهم الروايات الريفية المصرية	33
6	**الباب الثاني: القضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية فى الرواية الريفية المصرية**	51
7	الفصل الأول: نظرة عامة على القضايا الاجتماعية والسياسية الريفية المصرية	52
8	الفصل الثاني: القضايا الاجتماعية فى الرواية الريفية المصرية	67
9	الفصل الثالث: القضايا السياسية فى الرواية الريفية المصرية	84

10	**الباب الثالث: يوسف القعيد وكتاباته حول الريف المصري**	99
11	الفصل الأول: موضوعات ريفية في كتابات يوسف القعيد	100
12	الفصل الثاني: تجليات الريف في كتابات يوسف القعيد القصصية	111
13	الفصل الثالث: تجليات الريف في كتابات يوسف القعيد الروائية	117
14	**الباب الرابع: دراسة مقارنة بين يوسف القعيد وبعض الروائيين الآخرين في معالجة قضية الريف المصري**	137
15	الفصل الأول: ملامح القضايا الريفية المصرية في روايات يوسف القعيد	138
16	الفصل الثاني: ملامح القضايا الريفية المصرية لدى الروائيين المصريين الآخرين: نماذج مختارة	155
17	الفصل الثالث: أوجه التشابه والاختلاف بين يوسف القعيد والروائيين الآخرين في معالجة القضايا الريفية المصرية	169
18	خاتمة البحث	181
19	المصادر	191

20	المراجع	195
21	المحتويات	206

PhD Thesis

Egyptian Countryside in the Contemporary Arabic Novels with Special Focus on Yousuf al-Qaeed's Novels: A Selective Study

(Al-Reef Al-Misri Fi Al-Rewayah Al-Arabia Al-Moaserah Be Al-Tarkeez Al-Khas Ala Rewayaat Yousuf al-Qaeed: Derasah Inteqaiyah)

Thesis submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of the requirements for the award of the degree of

Doctor of Philosophy

Submitted by

Mohammad Shahnawaz Alam

(Enrolment No. 12/51/MA/011)

Under the supervision of

Dr. Ubaidur Rahman Tayyeb

Centre of Arabic and African Studies,

School of Language, Literature and Culture Studies,

Jawaharlal Nehru University, New Delhi–110067

2019